جنكيز داغجي

الرَّجُلُ الذي فَقَدَ وَطَنَهُ

رواية

ترجمة:
أماني محمد صبحي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

الرَّجُلُ الذي
فَقَدَ وَطَنَهُ



أماني محمد صبحي المسيدي/ مدرس مساعد بقسم اللغة التركية كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر، ترجمت رواية "طبيب الأناضول" لأحمد حمدي تانبينار و"التفاح الأخضر" لناظم حكمت وتترجم حاليا رواية "هم أيضًا كانوا بشرًا" لجنكيز داغجي.

....

الرَّجُلُ الذي فَقَدَ وَطَنَهُ

طبعة 2020

رقم الإيـــــداع: 2020/1851

الترقيم الدولي: 978-977-821-134-4

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET

elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

جنكيز داغجي

الرَّجُلُ الذي فَقَدَ وَطَنَهُ

رواية

ترجمة

أماني محمد صبحي

مراجعة

أ.د. محمد غازي
عميد كلية اللغات
والترجمة جامعة الأزهر

أ.د. إيمان عيسى
رئيس قسم اللغة التركية وآدابها
كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

داغجي، جنكيز
الرَّجُلُ الذي فَقَدَ وَطَنَهُ:رواية/ جنكيز داغجي،
ترجمة: أماني محمد صبحي
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٠
٣٨٤ ص، ٢٠ سم
تدمك ٤-١٣٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص التركية
أ- صبحي، أماني محمد (مترجم)
ب- العنوان

٨٩٤,٣٥٢

رقم الإيداع: ١٨٥١/ ٢٠٢٠

إهداء

إلى من عاش فيهم الوطن قبل أن يعيشوا فيه...

من فقدوا أوطانهم وافتقدتهم أوطانهم...

من فقدوا هويتهم أو أُفقدوها...

من أصبح وطنهم ذكرى

أو أصبحوا ذكرى في وطنهم...

إنما تبقى الأوطان بأبنائها ما بقوا...

(1)

روما 3. 9. 1946

أعيش منذ أسبوعين بلا طبيب، مذ قال طبيبي: عليك تعوُّد العيش دوني، وأنا أحس بأني أكثر ضعفًا وعجزًا. كان الطبيب قد قال: أهو العجز فحسب؟ أنت تخاف من شيء في حياتك.. هناك خوف خفي بأعماقك.. وإذا فهمنا سبب خوفك، سنخلصك منه.

لا أعرف متى أو لِمَ خفت؟ جال بخاطري أن لا طبيب ولا أحد يمكنه مداواتي.. أنا على يقين من هذا.. تيقنت منه بمرور الوقت، أنا أهرب من الحياة؛ حياة الغربة، لا يتحدث معي أحد في أي شيء مطلقًا. لست منهم، ماذا يجعلني مختلفًا عنهم، لم أكن أعلم وكذا الطبيب، لو كان ثمة مكان يأويني في الحياة فهو الذكريات.

أريد أن أذهب مرة أخرى وأرى الطبيب، لا سيَّما إذا كتبت ذات يوم الذكريات وانتهيت منها؛ ربما يعلم مخاوفي ويعالجني، وأصبح صادق طوران القديم من جديد.

4. 9. 1946

ذهبت صباح أمس إلى منزل الطبيب، لم يكن موجودًا، انتظرته

ساعة في الطرقة، ولم يأتِ؛ فذهبت.

تجولت حتى الظهيرة أمام منزله كي أراه في الشارع ثم توقفت، كم كان وقتًا مملًا! عدت في النهاية إلى الفندق، أغلقت حجرتي، وفكرت وعيناي مغرورقتان بالدموع في عدم رغبة الطبيب في رؤيتي.

دام حزني هذا إلى المساء، ثم بدأ مزاجي يعتدل والتحفت شوارع روما في الخارج مع ظلمة ليلها وبرودته. نسيت ألمي مثل طفل، وأحسست فجأة باحتياجي لحب، أردت فجأة أن أنسى كل مساوئ ومخاوف الحياة وأكون أحد الذين يعيشون في الغربة ويسيرون في الشوارع ويضحكون.

الطبيب كان على حق، حان الوقت لأفيق من غفوتي وأسرد الحياة كما كانت، وهكذا سرعان ما أخذتني الحياة في غمرتها مساء أمس.

قررت الخروج من حجرة الفندق وخرجت، لم يكن غرضي أن أصبح مثل الإيطاليين ذوي الخصلات السوداء الناعمة الذين يتحدثون في الطرق محركين أيديهم وأذرعهم؛ أردت فقط السير إلى مركز المدينة دون خوف، عبرت الجسر بلا رهبة وبلا تردد أيضًا، عاهدت نفسي ألا أنشغل بشيء بعد ذلك مهما كان يضايقني، وأن أحيا ككل الناس وأقبل الحياة كما هي. كنت قد اقتربت من مركز المدينة، وكانت الفتيات الرقيقات يمررن

متشابكات الذراعين أسفل ضوء مصابيح الشارع، كان الجنود الأمريكيون الزنوج ذوو الأسنان البيضاء والألسنة الحمراء يظهرون بغتة بين الفينة والأخرى من الزوايا المظلمة كالجن الحارس للعالم السفلي.

وصلت إلى ساحة واسعة يتجول فيها جماعات الفتيات وشباب الجنود، وفي الجهة الأخرى كانت تصدر أصوات موسيقى من مطعم ذي حديقة، تقدمت إلى الحديقة؛ حيث كان معظمها يمتلئ بفتية بزي عسكري، كان الفتيان والفتيات يرقصون على ضوء مصابيح معلقة في الأشجار، وقفت في ناحية وتابعت الراقصين كأنما كنت أندب حظي نوعًا ما، وحين هممت بالخروج من الحديقة سمعت صرخة صوت رقيق بين ذراعي عسكريَين إنجليزيين؛ كانت فتاة قصيرة، نحيلة الخصر، ذات وجنتين لامعتين كالماس، وشعر أسود؛ وكان الجنود الثملى يجرُّون الفتاة إلى جانب، ويضغطون يديها وكانت تصرخ، كان المحيطون بالفتاة والعساكر يشاهدونهم مقهقهين، أنا -أيضًا- كنت أتابع هذا من جهة التسلية فحسب وأضحك، بعد قليل تخلصت الفتاة من أذرع العساكر وأتت إلى جواري، هزَّتْ يدها ناظرةً إلى وجهي كأنما تعرفني منذ زمن، وقالت: أرأيت الإنجليزي؟! يريد أن يرقص معي غصبًا قائلًا إن معي المال! وأنا أريد مالك أنت!

كانت تظنني إيطاليًّا غالبًا، وتشتكي إليَّ بلغة إيطالية دون توقف

كالآلة ناظرةً إليَّ تارةً وإلى عساكر الإنجليز تارةً أخرى، كنت صامتًا، وكانت الفتاة تقترب مني بهدوء ولطف، وبدت هادئة نوعًا ما، ثم حدثت نفسها للمرة الأخيرة قائلةً: يتدللون قائلين: انتصرنا في الحرب ويريدون أن يفعلوا ما يحلو لهم، كنت أريد أن أجيب؛ لكنني تراجعت فجأة تذكرت من كنت، تذكرت زيِّي العسكري الذي خلعته العام الماضي في تيرول[1] وألقيته في النهر ثم قلت فحسب: هم جنود.. أرادوا التسلي قليلًا.

- «كان الألمان جنودًا أيضًا، وكانوا كذلك يريدون التسلية إلا أنهم قتلوا الأرواح البريئة لأجل التسلية».

- «هكذا كان الألمان الذين فعلوا الأفاعيل.. آنستي».

- «يا لهولاء؟ أوكنت تظنهم ملائكة؟! آه، ربما هم ليسوا ظالمين إلى هذا الحد؛ لكني لا أحب أبدًا أصحاب الزي العسكري».

- «صحيح؟!».

- «لا أحبهم، أأنت –أيضًا– عسكري؟».

- «لا، لا».

- «لكنك أديت الخدمة العسكرية، أليس كذلك؟».

للحظة لم أعرف ماذا أقول، حاولت فقط إخفاء وجهي الفزِع

1- تيرول (Tirol): ولاية نمساوية تقع في قلب جبال الألب.

قليلًا.

- «أنت لا تشبه العسكريين».

أعجبتني كلماتها هذه والنظرة البريئة في عينيها فضحكت وقلت: «لا أنا لم أُؤَدِّ الخدمة العسكرية».

- «ما أجمل هذا؛ لكن ألست إيطاليًّا؟».

- «لا».

- «إذن أنت فرنسي؟».

- «لا».

- «بولندي؟ تشيكي؟».

- «لم تستطيعي أن تعرفي».

- «أف.. لا يهم، أنت أسمر كالإيطاليين، ألا ترقص معي؟».

حين اقتربت مني أكثر وأصبحت جميع استدارات جسدها اليافع بين ذراعي، شعرت أني ولدت من جديد، ركلت كل عمري الذي عشته وحياتي التي أفنيتها مع كل مخاوفي وطرحتها بعيدًا، لم أستطع التحدث، فلو أردت التحدث عن سعادة الدنيا التي أحاطتني لما كان بإمكاني قول شيء، كأن الكلمات كانت ستهرب مني.

قالت بصوت رقيق ساندةً رأسها الصغير على صدري في ما

كانت ترقص: «هل أنت متزوج؟».

تحدثت عن نفسي قليلًا، وكانت تنظر إلى وجهي كأنما يهمها ما أقول، خرجنا من حديقة المطعم في الساعة العاشرة تمامًا، وسرنا في شارع مهجور صامت مظلم وقد تشابك منا الذراعان، وتلامست الأكف والأصابع بين الفينة والأخرى، في الطريق ذكرت لي اسمها، كان «أنَّا»، واتفقنا أن نتقابل، كنا سنتقابل الأحد القادم، أوصلتها إلى المنزل الذي تسكنه، وبقيت أنظر إلى «أنَّا» بفرحة طفل إلى أن اختفى جسدها النحيف وراء الباب.

بعد ذلك ظللت وحيدًا في غرفة الفندق مجددًا، كان يوجد بداخلي شعور لا يُحييني فحسب بل يُحييني بسعادة وهناء؛ وكأن معي كل أريج شبابي العابر، تفرق مئات الأعوام بين صادق طوران الحالي وصادق طوران الذي كان يتمشى أمام منزل الطبيب الليلة الماضية، كنت أفكر في الماضي وفي ذكريات صادق طوران التي هربت من ضوء المصباح المعلق في السقف واختفت في الخزانة، وأنقل من ذاكرتي المنصرمة أيامي المقبلة، جلست وأردت كتابة روايتي الجديدة هذه.. كنت أنتظر الأحد القادم ومعه «أنَّا» اليافعة في ملابسها الرقيقة وشعرها الأسود اللامع المنسدل على كتفيها ناظرًا إلى فضاء الليلة الساحر من النافذة المفتوحة.

1946 . 9 .7

لم تَدُمْ سعادتي طويلًا، استأنفتُ الحياة ثانية آلامها القديمة معي كما كان من قبل.

ذلك الأحد ذهبت إلى المطعم ذي الحديقة مساءً، «أنَّا» لم تكن موجودة؛ انتظرت، ولم تأتِ؛ بحثت عنها بين العساكر الثملة في الشوارع حتى منتصف الليل، حسبت كل امرأة ذات قوام نحيف أراها في ضوء مصابيح الشارع (أنَّا)، ولم تكن «أنَّا» في أي مكان أصلًا، كانت تخدعني؛ مثلها مثل حظي الذي خدعني وذهب كأنه طفل متشرد وضع حجرًا بدلًا من المال في صينية شحاذٍ ضرير.

بعد ذلك كان الناس ينحنون من طنوف بيوتهم السوداء بادين أمامي من الزوايا الحالكة، وكانت السيدات يُخرجن ألسنتهن من بين أذرع العساكر الثملة ويضعن أيديهن في آذانهن ويضحكن مقهقهات، لست أبحث عن «أنَّا» الآن، ولن أبحث عنها كذلك؛ أنا لست منهم، ولو صادفت «أنَّا» لن أصدقها ثانية، ماذا حدث لي هذا المساء؟ من كنت؟ انسقت وراء «أنَّا» كمن وجد منقذه واكتفيت بتقبيل قدميها، من كانت؟ ربما هي –أيضًا– قطعة لحم عفنة بقيت من عسكري ثمل!.. غريق في بحر طوَّقه ثعبان.. أنا كذلك طوَّقتها؛ لكنها انسلت كالثعبان من بين ذراعي المفتوحة، وهربت.

1946 .9 .9

لم أخرج طوال اليوم من حجرتي، ولم أفكر في «أنَّا»، حلت محلها في نفسي اليوم مارية، وجدت مكانها اللائق بها، تذكرت مارية ثانية حين تناولت ذكرياتي، أنا اليوم -كما في العام السابق- في المكان الذي تركتني فيه مارية، ولو أني لن أرى شيئًا في حياتي بعد الآن غير الشوق لتكن مارية المسكينة ذكراي الأخيرة.

لن أذكر بعد الآن الطبيب أو «أنَّا» أو حتى روما، وسأظل مع أيامي بعد عودتي من القرم ثم من روسيا ومارية وجهًا لوجه، وسأسترجع ذكرياتي مرة أخرى.

في ربيع عام 1942 شُكِل فيلق[2] تركستاني من الأسرى ذوي الأصل التركي داخل نطاق الجيش الألماني، وصرنا جنودًا من جديد، كان حالنا بالزيّ الألماني مضحكًا ومؤلمًا على ما يبدو؛ إلا أننا لم نُعِرْه اهتمامًا، ولم نفكر فيه أصلًا.. ذكريات الأسر لعام كانت ستصبح مؤلمة بقدر لا يمكنه جعلنا ننسى مشهد باب الأمل المفتوح أمامنا اليوم؛ حيث لم يكن بوسعنا في الأسابيع الأولى غير النظر بخوف إلى الألمان، وقد انحسر هذا الخوف تدريجيًّا بإعادة عساكر الألمان مرارًا علينا أننا سنصبح نواة الجيش التركستاني القادم، لم نكن نعلم أَكُنّا سنرى ذات يوم الانضمام

2- قوة عسكرية مكونة من عدة وحدات.

إلى جيش تركستان العظيم حقًّا؛ لكن استقلال تركستان هذا الأمل أو الحلم كان يكفي لجعل قلوبنا تخفق باضطراب يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة، ويملؤها بالإخلاص والتضحية؛ فإذا كانت كل أمة تحارب من أجل الحصول على حقها؛ وتأخذ حقها مضحية بدمائها لِم لا نسير من الطريق عينه؟!

كان أئمة الطابور يعظوننا ويسدون إلينا النصح كل صباح قبل الخروج للتدريب، لم يكن هؤلاء الأئمة يشبهون الأئمة القدامى، كانوا رجال دين متحمسين، منفعلين، في الخامسة والثلاثين من العمر، حليقين، مرتدين زيًّا رسميًّا يزين ياقته الهلال والنجمة، كان وجود أئمة كهولاء من أجل أناس يضطهدون لأعوام مثلنا ضروريًّا، وبعد عدة شهور في ما كانوا يجثون على حوافِّ قبور بلا شواهد لشبابنا الذين استشهدوا في وديان أوكرانيا، ويقرؤون «يس» غير آبهين لأزيز الرصاص فوق رؤوسهم، ولا الشظايا المنفجرة؛ كانوا يثبتون لنا هذا جيدًا.

كانوا يقولون: «انظروا إلى أكمام أزيائكم! جوامع سمرقند الثلاثة البيضاء على أكمام أزيائكم تعني «الله معنا»، فهل ستخلصون جوامعكم هذه من أيدي الروس الذين افتروا على الله؟».

كنا جميعًا نرد: «سنخلصها!»، وطوال أربعين عامًا إذا أفلتت مرة من فم أحد أصدقائنا كلمة روسية خطًا أو سهوًا كانوا ينفعلون، ويقولون: «أعطى الله تركستان لغة، كما لكل أمة لغة».

أجل، كنا نحن نواة الجيش التركستاني العظيم الصاعد، كنا نصدق هذا شيئًا فشيئًا، أننا سنزداد، ولنطأ أقدامنا -ولو- شبرًا من أرض الوطن -شبر واحد- كنا سنحميه مثل النسور، وتحوز أمتنا تركستان من جديد.

كان أسرى جدد ينفصلون عن معسكرات الأسر كل يوم، وكانت لجيونوفا[3] الصغيرة قد تكدست حتى سمرقند؛ ألف، خمسة آلاف، عشرة آلاف، عشرون ألفًا، ثلاثون ألفًا، كانوا يقولون إن العدد الإجمالي للجيش سيصل إلى ثلاثمائة ألف بعد ستة أشهر، كنا نتدرب كثيرًا كل يوم، وكانت شوارع لجيونوفا تئن بصرخات الآلاف الصادرة من أفواههم «نفديكي تركستان»، وبأصوات أقدامهم التي ترُجُّ الأنحاء من الصباح وحتى المساء.

ثمة خوف ظلَّ في أعماق السكان الأصليين، فهؤلاء الناس الذين عاشوا في سلام وأمان لأعوام لم يكونوا يرون أو يسمعون! ما معنى تركستان؟ لم تعنِ لهم الكلمة أي شيء، كانوا يظنوننا مغولًا، وكأنما قد ظهرنا لهم فجأة من تحت الأرض، كثيرًا ما كانوا ينظرون لنا مستغربين، وكان جرس الكنيسة القابع وسط الحديقة الصامتة الهادئة يدق بشكل غريب وببطء من جهة ما، لم تكن تلك الكنيسة تدري بأننا -أيضًا- صرنا أبناءً للحزن.

3- لجيون أوفا بالتركية (Legyonova) وبالإنجليزية (Legionowo): هي مدينة تقع في مركز بولندا الشرقي.

كانت الأسابيع تمر والشهور تترى، ويستمر التدريب؛ تدريب السلاح والهجوم الليلي والدفاع وحرب العصابات.. كلها لأجل الاستقلال، ولأجل تركستان.

الكتائب الأولى كانت قد تجهزت، ذهبوا إلى المحطة، أصوات أقدامهم تصلنا من الشوارع، يركبون القطارات، ولم يكن أحد يتحدث، خلال السكون لم يكن يُسمع إلا الصرير الصادر من طرق الحديد لبعضه؛ كانوا على أهبة الاستعداد، يرحلون لإنقاذ الأمة، وهل يوجد عمل لهم هنا بعد الآن؟! سيضحون بأنفسهم غدًا، ويفتحون لنا طريقًا للوطن.

ربما تسقط أرواحٌ عدة قبل بلوغ حدود الوطن، ما الضرر في هذا؟! أليست كلها من أجل تركستان؟! ألن تصبح تركستان لنا ثانية؟! ألن تكون هي وترابها وحجرها وهواؤها ومياهها وسماؤها وجوامعها وكل أراضيها لنا ثانية؟! بعد ذلك لم يكن لدينا غير كلمتين مقدستين فحسب: تركستان والاستقلال! كنا سنضحي بدمائنا حتى آخر قطرة في هذا الطريق وفي سبيل هذه الغاية المقدسة، كان الموتى سيضحون بأرواحهم في سبيل هذا عن طيب خاطر؛ لأن الباقين سينقلون ذكرياتهم إلى ذاك الوطن العزيز.

ارتدينا أزياءنا بهذه المشاعر ومع هذه الأفكار.

لم نقم بأي عمل لأسبوعين، كان الرقيب التتري الأشقر النحيف

طويل القامة ذو الوجه الشاحب قليلًا يَصُفُّنا كل صباح في صفوف، ويعلمنا النظام المتَّبع في الفَيْلَقِ، ويقول: بعد إعلان مجموعاتكم سيسمح لكم بالذهاب كل مساء إلى المدينة، الفتيات الجميلات في المدينة لسن قليلات؛ لكن انتبهوا! لا تقولوا لي لأرجع بحمى الحب، إذا أصابتكم حمى الحب سأضعكم أولًا في المستشفى، ثم في السجن.

كان كل صباح يُكرر هذا ضاحكًا، ثم كنا ننظف داخل وحول المبنى الذي ننام ونستيقظ فيه، ونشاهد من بعيد الجنود العائدين من التدريب؛ أو نترقب مغادرتنا إلى مجموعاتنا مستلقين تحت ظلال أشجار السنط، وذات صباح جاء الرقيب التتري ومعه كاتب، كان يكتب أسماءنا جميعًا ورتبنا في الجيش الأحمر(الروسي)، لا أعلم لماذا جعلتهم يكتبون رتبتي كجندي، ربما لأنني لم أرِدْ أن ينظر أصدقائي من حولي إليَّ نظرة مختلفة؛ أو ربما لأنني لن أصبح صادق طوران القديم بعد ذلك.

مع أننا ظننا أننا سنرحل مباشرة إلى الكتائب بعد أن كُتبت أسماؤنا؛ إلا أن حياتنا الفارغة والمملة استمرت أسبوعًا آخر، كان الرقيب التتري يأتي إلينا كل صباح ويُحدثنا بألا ننسى أننا أسرى الألمان، وأن نعتني بقوتنا أكثر، ثم يذهب.

في النهاية أتى إلينا قبيل مساءٍ من ثمانية لعشرة عرفاء تركستانيين مع ضابط ألماني، صاح العرفاء وهم يدخلون

الحجرات: إلى الخارج، هلم بنا، إلى الخارج!

كان العرفاء يَبدون قساة جدًّا، وصرخ أحدهم قائلًا: «تنامون تحت الظل مثل الغنم منذ أسبوعين، وتأكلون خبزًا بلا كدّ؟! أنتم تحت أمري من الآن فصاعدًا! سترون كيف سننزعها من جلودكم!»؛ كان البعض يسبُّه جهرًا، ربما كان فعلٌ كهذا ضروريًّا من ناحية النظام، العسكرية ليست شيئًا جديدًا علينا كذلك، غير أن تعاليم العرفاء كان يُشعر بانطلاقها من عيونهم.

كنا قد اصطففنا أمام المبنى، وقُرأت أسماؤنا، وغادرنا إلى فرقنا؛ نزلت في الفرقة نفسها مع الشيخ خشنود. كانت مشاعر الأسر ستستمر داخلنا أكثر لولا أن خشنود كان يمسك بيدي مثلما كنا في الأسر بسعادة قائلًا: «إننا لن نفترق بعضنا عن بعض».

كنا نتفحص العرفاء ذوي الأصوات الجشة والأحذية النظيفة والشرائط الفضية المحيطين بالضباط مفكرين: أي منهم سيصبح عريفنا؟!، قال شخص بجواري لزميله بصوت منخفض:

- «ذو الشارب منهم يشبه الأوزبك[4]».

- «فرقتنا كلها على وشك أن تصبح أوزبكية، عجبًا ألا يأتي إلينا غيرهم؟!».

4- هي جماعات تركية ظهرت في القرن الخامس عشر الميلادي واستوطنت بلاد ما وراء النهر وتركستان ويستوطنون اليوم الدولة المعروفة باسمهم أوزبكستان.

في ما كان خشنود يقول للأوزبك المتحدثين:

- «يا أنتم! لا تنتحبوا هناك! فما الفرق بين الأوزبك والقيرغيز؟!».

أمسكتْ يدٌ بكتفي؛ فأدرت رأسي، وللحظة ضاقت بي الدنيا، كان يقف في مواجهتي قيليشباي الذي وجدته قبل عام إبّان خوض معركة جسر إليكساندروفاك[5] ثم فقدته. وجهه كان يبدو شاحبًا قليلًا، وعيناه كانتا تتقدان ببريق خفي غامض ذي مغزى، كان يقف ويده على كتفي دون حديثٍ، كأنما كان ينتظر حديثي عنه.

قلت: «كنا قد تقابلنا أول مرة في كراسنويا[6]، كنتَ في وحدة الملازم سليمان، أليس كذلك؟».

لم يُجب، أستطيع القول بأنني أحب البشر كيفما هم ومن أي جنس ولون وطبقة كانوا؛ لكن لِم لا أعلم؟! كان هناك شيء أحسسته بقلبي ولم أستطع أن أراه بعيني في حديثي مع قيليشباي في هذه الدقائق جعلني أغادره وأبتعد، تراجعت قليلًا، فحدق فيَّ أنا والشيخ خشنود بنظراتٍ حادة ممسكًا السلسلة الفضية المعلقة على صدره بين جيبه وعروة الزرار، ثم ذهب إلى الضابط الألماني دون أن ينطق.

5- هي مدينة في راسينا في مقاطعة وسط صربيا.

6- كراسنودار هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفدرالي الروسي كراسنودار كراي، قام بتأسيسها أحفاد القوقاز وضمتها روسيا مع الأراضي الواقعة شمال غرب القوقاز نتيجة انتصاراتها على تركيا.

سأل الشيخ خشنود قائلًا: «أتعرفه؟».

قلت: «تقريبًا».

كان قيليشباي الذي وجدته بين المزارع خلف مدفعية سليمان بمائة متر، كان هو قيليشباي بهيئته الخارجية فحسب، لم أكن أعرف باطنه جيدًا.

شردت، وكانت الفرق قد غادرت إلى مجموعاتها في ما أنا أفكر في قيليشباي القديم ناظرًا إلى قيليشباي الموجود أمامي وظللنا في الساحة بمفردنا.

خشنود: «انظر يا صادق! ذلك الشخص يأتي ناحيتنا، غالبًا سيكون هو عريفنا.. ياه كم يبدو قاسيًا!».

لم يكد يُتم حديثه حتى سُمع صوت أحد القيادات من بعيد:

- «للشماال دُر!».

- «لليميين دُر!».

كان صوت قيليشباي يصدر شديدًا ومتقطعًا:

- «أنا هكذا لا أحب ابن المرأة، قفوا مثل الجند؛ وإلا جعلتكم جميعًا تسيرون إلى الكتيبة على أطرافكم الأربعة».

أوصلنا إلى الفرقة، وجعلنا ندور إلى اليمين وإلى اليسار أمام البناية عدة مرات، ثم اقترب إلى الشيخ خشنود الذي وقف

منتصبًا بجواري وصرخ قائلًا: «أنت ياشيخ! ألا تعرف يمينك من يسارك؟! ماذا كنت تفعل في العسكرية؟! أكنت كاتبًا، أم ماذا؟».

رد الشيخ موضحًا: «لا يا عريف! لم أكن كاتبًا..»، إلا أن قيليشباي هز أصبعه أمام أنف خشنود قاطعًا كلامه:

- «لا ترد عليَّ هكذا! أيًّا كنت في الجيش الأحمر انْسَهُ! هنا ليس الجيش الأحمر! سأعلمك كيف تتحدث معي هاه!».

كان يُحدث خشنود بهذا: لكني أقول لك ابنتي؛ كـأنه يقول افهم أنت عروستي.

تغيرت حياتنا بعد هذا اليوم، كنا نستيقظ باكرًا، ونحمل سلاحنا فور سماع صوت الرقيب في الطرقة، ثم نلقي بأنفسنا خارجًا، وهكذا كان يبدأ اليوم، من جانبنا، كنا نمر من شوارع الفيلق تحت النظرات القاسية لقائد الكتيبة الآتي فوق فرسه، كانت السرايا تغادر إلى الكتيبة والكتائب تغادر إلى الفرق ثم يبدأ التدريب، كانت حواف الغابة والرمال والتلال تتكدس كلها بالجند، وكان قيليشباي يدربنا حتى الفرقة، كان يريد أن يبدو أكثر قسوة وجدية من القائد بصوته ونظراته وأفعاله، وبات كأنه غير مهتم كثيرًا بي، أنا -أيضًا- كنت أحاول الابتعاد عنه قدر الإمكان، كنت لطيفًا بعض الشيء على الأكثر، وحاولت أن أحافظ على هذا اللطف بالاجتهاد في التدريبات بقدرٍ كافٍ، فغالبًا ما كنت أول من يسمع الأمر وأشد من يعدو كثيرًا؛ كان قيليشباي يذهب بنا

إلى الرمال فور مغادرة الكتيبة، وهناك كان يجعلنا نعدو ويأمرنا أن نصعد زحفًا التل الشائك ذا الأحجار الكائن في نهاية الرمال، ويجعلنا نفعل هذا ليس مرة أو مرتين بل عشر مرات على الأقل؛ لدرجة أننا كنا نعود من تدريب قيليشباي شبه موتى.

نعم، ليس هذا الرجل قيليشباي الذي عرفته في كراسنويا، كنت قد بدأت أشك في كونه قيليشباي، كانت عيناه تبرقان دائمًا كأنهما لحيوان بري؛ عندما كان الشيخ خشنود يريد الحديث معه بعد التدريب كصديق حتى، كان يعقد حاجبيه ويمط شفتيه في امتعاض، ثم يبتعد عنا دون إجابة أو متحدثًا بكلام لا معنى له، كان خشنود يستاء كثيرًا من هذا في الأيام الأولى، الآخرون -أيضًا- كانوا يعتقدون أنه يفعل ما يفعله لئلا يثقل علينا في التدريب؛ لكن شدة قيليشباي وقسوته كانت تزداد يومًا بعد يوم، وكان الحديث يدور حول طريقة العريف قيليشباي وفعله هذا معنا في الأوقات التي كنا نظل فيها بمفردنا في الحجرة لكنني لم أكن أنضم إلى الحديث.

كان شخص قيليشباي قد أصبح في المرتبة الثانية بالنسبة إليَّ كلما اعتدت التدريب في الفيلق، ولهذا بدأت أنسى قيليشباي الذي تعرفت إليه في كراسونيا شيئًا فشيئًا، حتى أنني رضيت بقيليشباي الحالي الجديد العصبي القاسي البغيض.

ذات يوم جعلنا العريف قيليشباي نعدو تحت الشمس الحارقة

على التل الشائك ذي الأحجار في ما كان يدخن سيجارة مستلقيًا في ظل رجال الكتيبة، عدنا ومرافقنا ورُكبنا مُثخنة بالجروح والكدمات والدماء، كان رجال سريّتنا قد سُمح لهم بالذهاب إلى المدينة في اليوم نفسه، وكنت أنا والشيخ خشنود وبعض الأصدقاء -أيضًا- في الحجرة، قال موهان الأستراخاني[7] الأشقر النحيل قصير القامة ذو العينين الواسعتين: ألا يوجد من سُمح له بالذهاب؟

لم يُجب خشنود.. ضحك بمرارة فحسب، نحن -أيضًا- لم ننطق، وران صمت عميق على الحجرة لبرهة؛ ثم توالت الأحداث وقال موهان قافزًا فجأة من السرير: «ابقوا أنتم! أنا سأذهب، وأشتري قارورتي جعة من الحانة، سأشرب واحدة، وأحطم رأس ذلك القيرغيزي[8] الأسود بالقارورة الثانية»، قالها ثم نظر في عينيّ كأنه ينتظر مني جوابًا، وجهه الغاضب وكلماته أيقظت فيّ شيئًا من الخوف، فبادرته سريعًا وقلت:

7- أستراخان هي إحدى مدن روسيا العريقة في الكيان الفيدرالي الروسي وتقع على بُعد 1500 كيلومتر جنوب شرق موسكو، وتشتهر بتنوع سكانها العرقي من حضارات وقوميات مختلفة منها الروس الأرثوذكس والتتار المسلمين والأتراك، وقد اعتنق سكانها الإسلام في القرن الثاني عشر عندما حكم المدينة القائد المغولي بركة خان، ويعتبر عام 1558 هو تاريخ إنشاء أستراخان الحالية، وتبلغ نسبة المسلمين 15% من سكانها، وقد ذُكرت أستراخان في كتب الرحالة والمؤرخين العرب مثل ابن بطوطة وأحمد بن فضلان اللذين زارا المدينة وأطلقا عليها اسم»الحاج طرخان».

8- هم إحدى العرقيات التركية، استوطنوا وسط آسيا ويستوطنون اليوم قيرغيزستان ويتحدثون اللغة القرغيزية التركية.

- «موهان! اجلس بدل أن تذهب! أليس عيبًا ما فعلته؟! هل نسيت أنك جندي؟! والجندية ليست أسوأ من الأسر أليس كذلك؟!».

- «ما العيب؟! هذا الشقي مَنْ يظن نفسه بكونه عريفًا؟! لماذا لا يدربنا مثل العرفاء الآخرين؟».

تدخّل في الحديث واحد من الخلف قائلًا: «هذا تظاهر يا موهان! يريد أن يجعل الألمان يرضون عنه؛ فلو دربنا بشدة سيعلق له القائد شريطة فضية أخرى على كتفه، ومن يدري؟! عندما تنال رضاهم ربما يجعلونك ذات يوم رقيبًا أنت الآخر».

- «أنا أحمل رصاصة الألمان في صدري، وهذا يكفيني».

بعد أن نطق بكلماته هذه امتقع وجهه وسار ببطء ثم جلس على حافة السرير وأشعل سيجارة؛ نظرت إلى موهان، كانت يداه ترتجفان.

خيّم الصمت على الحجرة ثانية كما كان من قبل، وبينما يحدق بعضنا في وجوه بعض في صمتٍ هكذا، فُتح الباب ودلف للداخل حسن صديق موهان، لم يكن حسن من كتيبتنا، وتحدث كأنه يريد فهم ما جرى قائلًا:

- «يا شجعان! هل عدتم من جنازة؟».

لفنا الصمت من جديد فسار ووقف أمام المرآة المعلقة في الحائط؛ انحنى ثم استقام وصفف شعره الأسود الناعم وارتدى

قبعته ثم تراجع نحو الباب، بعدها عاد إلينا ثانية وقال وهو متكئ على الباب:

- «عريفنا يُحدث فتاة عمرها ستة عشر عامًا في منزل بجوار المحطة، هي مثيرة للغاية، وسنذهب كلنا معًا، قلت لكم إنها عروسة؛ لكنها تريد جنودًا أقوياء مثلنا».

وبَّخ موهان صديقه: «لا تتذمر، واذهب لعملك!».

- «سأذهب موهان، وللأسف لا يمكنني دعوتك أيضًا؛ فبعد تدريب قيليشباي أصبحتم كالنساء..».

- «ماذا تقول؟! اذهب وإلا أوسعتك ضربًا، هيا، يا الله!».

- «سأذهب.. سأذهب..».

- «هذه الليلة إذا دخلت هذه الحجرة دون أن تستحم ستجد نفسك مع سريرك في الخارج».

هدأ حسن فجأة وأضاف بصوت منخفض:

- «لا تغضب يا موهان! كنت أمازحك سنذهب إلى الحانة وليس إلى الفتاة، إذا أردت تعال أنت أيضًا!»، قالها ثم خرج.

السماء زرقاء صافية، والطرق مليئة بالغبار، وكل الجوانب قاحلة، الطبيعة الصفراء تحت الشمس الحارقة صامتة كأنما تستمع لأصوات أقدامنا، شفاهنا الجافة المشقوقة لا تتحرك، لا

يمكننا فتح أفواهنا، ويتصبب العرق من جباهنا ووجناتنا على صدورنا العارية، أريد أحيانًا أن أرفع يدي وأمسحه ولا أستطيع، رؤوسنا منتصبة ونتقدم محركين أيدينا وأرجلنا مثل الدمى؛ أجل نحن اليوم دمى من الخشب، كنا مجرد دمى بلا روح وبلا شعور بالنسبة للضابط البروسي[9] ذي الوجه الأحمر والحاجبين والرموش الشقراء القادم من ناحية السرية على ظهر حصانه.

«ايينه، زوي.. ايينه، زوي.. ايينه، زوي..» والأصوات الصادرة عن خطانا لا تعرف التوقف «رَّاب، رَّاب...رَّاب، رَّاب»، تملأ هذه الأصوات جماجمنا كما تملأ شوارع الفيلق، دائمًا ما نتقدم ورؤوسنا منتصبة تحت نظرات الضابط القاسية والباردة دون التفكير في شيء، ونستمع دائمًا إلى أصوات الأقدام تلك.

- «ايينه، زوي.. ايينه، زوي..».
- «رَّاب، رَّاب.. رَّاب، رَّاب..».

تعوَّد الكلب الذي ينام منحنيًا على حافة الطريق على هذه

9- بروسيا هو الاسم القديم للمقاطعة الألمانية التي أطلق عليها لاحقًا "بروسيا الشرقية" وقد سميت على اسم السكان الأصليين البروسيين ذوي الأصول البلطيقية. وقد أصبحت منذ عام 1225 مركز دولة فرسان الرهبنة الألمانية ثم قسمت إلى بروسيا الملكية تحت سلطة التاج البولندي عام 1466، وإلى إمارة بروسيا بعد علمنة ما تبقى من دولة الفرسان عام 1525، وفي عام 1618 ألحقت إمارة بروسيا بإمارة براندنبورغ الانتخابية، وتحولت بروسيا إلى جمهورية بعد انهيار الملكية عام 1918 ثم جاءت نهايتها بعد حلها على يد الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية عام 1947، واليوم تتقاسم ألمانيا أراضي بروسيا مع ست دول أخرى من فرنسا إلى روسيا.

الأصوات غالبًا، يتطلع إلى صفوفنا بعين واحدة دون أن يرفع رأسه ودون أن تنتصب أذنه، ويبكي الطفل المسكين أمام أحد الأبواب منتحبًا وقبضتاه على عينيه، تجر الطفل إلى الداخل فجأة يد ممتدة من وراء الباب ممسكة بياقته، انقطع الصوت فجأة.. ران الصمت والفراغ على كل مكان ثانية.. ثم انطلقت بغتةً صرخةُ الضابط من فوق فرسه:

- «ايينه، زوي.. ايينه، زوي..».

- «رَّاب، رَّاب...رَّاب، رَّاب..».

تدور الكتائب الأمامية إلى اليسار، ثم تنعطف إلى الطريق المغبر كأنها تَنانين ذات مائة قدم، لا تُسمع أصوات أقدامها الثقيلة وهي تبتعد ببطء داخل سحب الغبار المتصاعدة.

اقتربنا من حواف غابة الصنوبر، نتقدم الآن بعد خروجنا من المدينة وقد أصبحت اللفتان على كتفي كل منهما كأنها تحمل ثقل عشرات الكيلوات، سأل موهان وهو يمسح العرق الذي على جبهته: «متى سيعطوننا استراحة؟».

أجاب خشنود شبه مازح:

- «ما يُعَرفني؟.. اذهب إلى عريفنا قيليشباي واسأله، فبالتأكيد هو يعلم..».

صمت موهان؛ لكن أيُبالي حسن في الخلف بهذا؟ إنه ليس من

فرقتنا، يمكنه التحدث بحرية، تدخل في حديثنا بتمهل:

- «هل عريفكم صديق القائد؟».
- «صديقه للغاية.. شرب أمس خمرًا مع القائد في الحانة».
- «قد يجعله رقيبًا».
- «ألم يعد عريفكم بتزويجه ابنته؟».
- «ها، أنا لا أعرف هذا، اسألوه أنتم!».

صمت ڤيليشباي، فهو لا يستطيع أن يفعل اليوم ما يريده، سار خلال فرقتنا ثم كتيبتنا، ولم يستطع فعل ما يريده؛ لكننا جميعًا أدركنا من نظراته ما سيفعله بعدما يغادر الفرقة والكتيبة، كان حاجباه معقودين وشفتاه مغلقتين بشدة وعيناه في الأرض حين غادر الكتيبة، كلنا يعلم هذا؛ لكن أيبالي حسن بهذا؟

يقول: «عريفكم الشاب القوي يحبكم كثيرًا، هو لا يشبه عريفنا أبدًا، عريفنا قاسٍ جدًّا، للغاية..».

- «نحن -أيضًا- نحبه كثيرًا».

لم يستطع ڤيليشباي أن يتحمل هذا الكلام أكثر من هذا، امتقع وجهه ونظر إلى وجه الشيخ خشنود بغضب جم؛ كان عراك على وشك الوقوع لو طال الحديث أكثر من هذا فتدخل موهان السائر بجواري بين خشنود وڤيليشباي قائلًا بصوتٍ منخفض ولكنه

صارم:

- «لو مد يده على الشيخ سأمزقه إربًا..»، في هذه اللحظة صدرت صرخة من ورائنا:

- «طائرات العدو آتية من اليمين!..».

دخلنا الغابة جريًا، نُسي كل شيء، واختفى بعضنا في الحفر بين الأشجار وجثا بعضنا على ركبتيه، وأطلقنا النار في الهواء دون توقف؛ حل هذا محل الراحة والتسلية عندنا.

استمر تدريب السلاح ذلك اليوم حتى وقتٍ متأخر، طهرنا الغابة من أفراد العصابة، وخرجنا منها وقد خضبت الشمس الهابطة من السماء الشفق الغربي بالأحمر القاني، استدعى قائد السرية قواد الكتائب وشرح لهم الوضع، قاد الرقباء الألمان الكتائب، وسارت العصابة التي نجحت في الخروج من الغابة نحو لجيونوفا، فتحركت الكتيبة فورًا لتقطع الطريق على العصابة قبل أن تصل إليها، ومشطنا المزارع والمنازل وكل مكان يُمكن أن يختبئ فيه أفراد العصابة حتى وصلنا إليها.

سرنا والرقباء الألمان في مقدمتنا إلى لجيونوفا بين المزارع كقطعان ذئاب، وكانت النسمات العليلة تهب على المزارع الشاسعة، أنا وقيليشباي وخشنود وموهان كنا جميعًا معًا، أيقظ صمت الأجواء واهتزاز السنابل الذهبية مع الرياح الخفيفة مشاعر الشوق داخلي، سرنا إلى بيتٍ متهدمٍ بعض الشيء ومحاطٍ بسور

ذي سقف من التِّبْن وجدار أبيض، كان ركام المزرعة المرتفع في الفناء وعريش العربة المنتصب دون فرس بجوار الركام يلفتان النظر، توقف القائد السائر في المقدمة، وأصدر أمره مشيرًا بيده إلى الجند الآتين وراءه:

- «انبطحوا أرضًا!»؛ فانبطحنا فورًا.

كان هناك شخص نحيف طويل القامة يدور في الفناء، كان يقف مرارًا ويتفحص المزرعة واضعًا يده على عينيه كالمنظار، رأيت الرقيب الألماني الموجود بجواري يذهب زاحفًا إلى القائد، كانت هذه اللحظات لحظات سكون الحرب، بين الفينة والأخرى كانت تُسمع أصوات البنادق منفردة من بعيد فحسب، شنت الكتيبة الأولى هجومها الأخير على الأغلب قبل أن تلج لجيونوفا، يجثو الرقيب الآن على ركبتيه في جوار القائد وينظر إلى المنزل الموجود أمامهم بالمنظار، كنا ننتظر الأمر منبطحين داخل المزارع، وكان خشنود يروي لموهان حكاية مضحكة بصوت خافت حيث بدا ضحك موهان من بعيد.

كانت الشمس قد غابت في كبد السماء، وأخذت السحب فوقنا الدنيا الحزينة في كنفها، وتهيأت لتغرقها في نوم عذب، فجأة صدر من البيت صوتٌ حاد، بعد دقيقة أو دقيقتين مرغ صغير خنزير تحرر من بين إطارات العربة التي بلا حصان الموجودة في الفناء أنفه في الأرض، ثم بدأ الجري باتجاه بنادقنا بسرعة

قدر استطاعته مصدرًا آه واهنة ومتقطعة مرارًا، أطلق الجند الضحكات من أفواههم، وأفرغ خشنود بندقيته مداعبًا موهان بقوله:

- «جرى هذا الخنزير إليك مباشرة موهان، هو يعرفك على الأغلب، أو صديقك؟»، توقف الحيوان مكانه، وبدأ يضرب أنفه في التراب، فانطلق خشنود على الفور.

سقط الحيوان على قدميه الأماميتين مع مرور الرصاصة من فوق السنابل محدثة أزيزًا، وما لبث أن انقطع صوته المخيف شيئًا فشيئًا، وتمدد تمامًا على الأرض بعد قليل، صرخ خشنود وهو لا يزال واقفًا على قدميه قائلًا:

- «أليس هذا ذنبًا؟ من قتل الحيوان هناك؟»,

قاطعه صوت شخص مستلقٍ على حافة المزرعة بقوله:

- «لِم يكون هذا ذنبًا يا شيخ؟ لِم يكون قتل الحيوان المحرم ذنبًا؟»، وأضاف آخر: «اجلس مكانك هيا، يا مذنب..».

لم ينطق خشنود بعدها، جثا ببطء وقال كأنما يحدث نفسه: «من قتل هذا الخنزير، خنزير!».

جرى عدة رقباء مع القائد في الجناح الأيسر إلى المنزل حين كنا لا نزال منبطحين في المزارع ننظر إلى الخنزير الميت، كانت هناك سيدة أمام البيت تبكي بحرقة رافعةً يديها إلى السماء،

فنهض بعض العرفاء الألمان ثم التركستانيين وجروا إلى البيت فازدحمت مقدمة البيت، وكنا نحن -أيضًا- في هذه اللحظة واقفين على أقدامنا وننظر إلى البيت، إلا أن خشنود جثا على ركبتيه ودمدم قائلًا: «بدأنا حرب الاستقلال بقتل خنزير، يا لها من بركة! يا له من خير!»؛ صرخ موهان بصوت حاد وهو قادم إلينا بعد خروجه من وسط زحام فناء البيت:

- «ماذا يوجد هناك؟ هل تقام جنازة للخنزير؟».
- «ليس الخنزير هو من مات فحسب! اخترقت إحدى الرصاصات التي أطلقت على الخنزير صدر رجل، والمسكين غارق في دمائه».

عبرت رعشة عمودي الفقري، فجريت إلى البيت سريعًا، وكان الرقيب الألماني الموجود في الفناء يؤخِر الجنود إلى المزرعة، في ما يرفع العريف التركستاني بجوراه يديه، ويصرخ قائلًا:

- «هيا انصرفوا! اغربوا عن وجهي! ألم تشاهدوا ميتًا أبدًا؟!»؛ اقتربتُ، كان هناك شخص طويل القامة تستلقي رأسه في الدماء بين العربة وكومة المزرعة، وقد صبغت بقع الدماء الصغيرة والكبيرة قميصه الأبيض. كان الجند يدخلون ويخرجون من باب البيت الضيق والمنخفض كأنما يريدون أن يروا الميت أكثر، لم أكن أجرؤ بأي حال على الدخول ما دام الميت في البيت، خرج عريف وصرخ مقتربًا من الرجال

الملتفين حول الميت:

- «هيا يا شجعان، تراجعوا! تراجعوا! ولتجعلوا رغبتكم رؤية ميت.. وستحققون كثيرًا من رغبتكم في روسيا!»، خرج عدة جنود وبعدهم بعض العرفاء من البيت، وكان القائد والرقباء يتحدثون أمام الباب.

قال القائد بصوته المعتاد:

- «لا ذنب للقروي... ذهب ضحية خطأ، وسأوضح هذا بنفسي لقائده».

استمر حديث هؤلاء أطول قليلًا ناظرين إلى القروي المُسجَّى متمددًا في دمائه، وبقيت وحدي أمام الباب، ذلك المساء تملكني خوف غريب وشغف طفل، لكن شغفي طغى على خوفي فدخلت المنزل حين كان الرقباء يخرجون مع القائد من الفناء؛ وجدت نفسي في حجرة شبه مظلمة، في اليمين نافذة صغيرة وبجانب النافذة كانت توجد مرآة مشقوقة صغيرة معلقة على الحائط، وفي الجانب الأيسر وجد مصباح أسيتيلين زجاجه أسود فوق منضدة مكسورة، وبعكس كل هذه الأشياء الصغيرة والمعدمة كانت هناك خزانة ضخمة مثل الجبل مقابلهم تلفت النظر؛ عندما هممت بالخروج ميزت في زاوية الحجرة المظلمة سيدة شعثاء تجلس صامتة كقطة خائفة في الظلام، وكان هناك طفلان في حضنها، وكانت رأس طفل ثالث مسندة على صدرها، كان ذلك

الطفل كأنما قد وُلد على صدر أمه؛ كان منطويًا كأنما يوجد لاصق بوالدته، أحاط أحد الأطفال الراقدين في حضن أمه عنقها عندما رآني، وعقد علي عينيه الواسعتين اللتين تحملان الكثير، خفتُ من نظرات ذلك الطفل، كنت أحس بهوة متسعة مظلمة وعميقة بيننا، كانت عينا الطفل تحدثانني بأشياء عميقة للغاية ومؤلمة جدًّا زعزعت نفسي تمامًا؛ ربما كنت للمرة الأولى أقرأ رعب وفزع الحرب في عيني طفل.

نُفخ البوق في الخارج، وأطلت الشمس التي أوشكت على المغيب على الداخل وألقت بأشعتها الأخيرة على زجاج النافذة الصغيرة كأنها تقول ليت ضوء الأمل لا ينطفئ في هذا المنزل، كانت الأم والأطفال صامتين وكذا الأيقونة[10] القابعة في الزاوية صامتة.

حين خرجت من المنزل كنت كقطعة الثلج، كانت كتائبنا تبتعد عن المنزل ببطء داخل مزارع القمح، وكان قلبي ونفسي يرتعدان بشدة ليس من الشغف الزائد بل من الخوف، نظر الميت الراقد في الفناء إليّ وأتى إليّ كأنما يريد التحدث معي، جريت إلى الكتائب، ظننت أن عيني ذلك الطفل وحوائط الحجرة الصامتة والأيقونات تطاردني إلى أن وصلت إلى الكتائب بين المزارع، بعد قليل كنت

10- الأيقونة تعريب لكلمة يونانية تعني صورة أو تمثالًا مُصغرًا لشخصية دينية يقصد بها التبرك، غلافه من ذهب أو فضة، تحفظ فيها ذخيرة من ذخائر القديسين وتعلق في العنق عادة.

وسط موهان وخشنود، وكان خشنود صامتًا أما موهان، فكأنه كان يتحدث إلى موضع كل شخص، نظر إلى وجهي فجأة قائلًا:

- «لم وجهك شاحب عزيزي صادق؟»، لم أجب.

- «هل رأيت الميت؟».

- «رأيته..».

- «هل هي أول مرة ترى ميتًا؟».

- «الأولى..».

- «خفتَ قليلًا على الأغلب؟».

- «قليلًا..».

- «لا تنظر! إذا كنت تخاف من الميت لا تنظر إليه! اعبر بجانبه وابتعد، لا تنظر إلى وجهه، لا ضير لو نظرت لقدميه، أنا أخاف لو نظرت إلى فم الميت فقط، يوجد خوف بسيط بيديه كذلك لكنه ليس كفمه، كنا في الأسر لئلا نرى فم الميت، نجره من ساقه ونخرجه من الكوخ، انظر إلى شيخنا.. هو -أيضًا- يدمدم قليلًا لكن ما السبب؟ ما ألمه؟ لا أعرف؛ هل هو لأجل الخنزير أم لأجل القروي؟».

- «بكى الشيخ آنفًا! لأجل من؟».

- «ها هو لا ينطق.. لأجل الخنزير على ما أعتقد».

هبط صمت الحداد على الحقول مترامية الأطراف التي غابت عنها الشمس، وكان موهان لا يزال يتحدث في ما كانت الدنيا برمتها تتهيأ للاستغراق في النوم أسفل حجب السحب البادئة في الاسمرار، وخشنود وراءهما لا يزال صامتًا، كنت أدير رأسي بين الفينة والأخرى وأنظر إلى الكوخ الباقي في الخلف المتواري عن العين متضائلًا مثل سفينة غابت في آفاق البحر.

هذا هو ذنبنا!.. ماذا سيحمل لنا طريق الاستقلال؟ لم أكن أعلم؛ لكني لم أكن وحدي، كان هناك رجال ألوذ بهم بجواري كأيام دخولي تحت حماية العريف مصطفى والأذربيجاني[11] وسليمان.

ذهبت إلى جوار خشنود قبل خروجي من حقل القمح وولوجي لجيونوفا، كان يدعو والبندقية على كتفه وعيناه على الأرض قائلًا: «اللهم اغفر ذنوبنا!».

بعد هذه الحادثة بأسبوعين تمامًا قبيل المساء، دخل قيليشباي إلى الحجرة أثناء تنظيفنا بنادقنا، كانت نظراته تبدو مرتبكة ولونه شاحبًا، جلس بجواري، ونظر في عيني كأنما ينتظر كلامي أولًا، لم أنبس ببنتِ شفةٍ، فقال بعد قليل:

11- جمهورية أذربيجان هي إحدى ست دول تركية مستقلة في منطقة القوقاز في أوراسيا عاش الناس فيها منذ عصور ما قبل التاريخ. ودخلها الإسلام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وحكمها الأمويون ثم العباسيون ثم الصفويون ثم الأتراك العثمانيون. لكنهم لم يحتفظوا بحكمها طويلًا حيث سيطرت روسيا عليها في 1920م. وقد حصلت على استقلالها 1991م. 1412هـ بعد أن استمرت 70 عامًا جزءًا من الاتحاد السوفيتي السابق.

- «صادق بك!»، نطق كلمة بك بصعوبة كأنه يبتلع لقمة محشورة في حلقه.

- «لدي ما أخبرك به»، وقفت وخلال توقفي اندهشت من اللقب الذي أضافه لاسمي وسألته:

- «إن شاء الله هو خبر جيد؟»؛ صمت لحظة، ورفع رأسه، ونظر إلى وجهي.

- «ليس سيئًا.. خبر جيد، جاء منذ قليل موظف من القيادة، هم يبحثون عنك».

- «عني أنا؟».

رد:

- «أجل، عنك. الَقَ قائد الفيلق على وجه السرعة!».

- «قائد الفيلق؟!»

- «نعم، قائد الفيلق أمر أن تأتيه بسرعة».

لا زلت لا أدري أكان هذا خبرًا جيدًا، وضعت بندقيتي على فراشي وسرت إلى الباب، أتى قيليشباي بجواري، وتوقف قبل الخروج من الحجرة ونظر إلى وجهي طويلًا ثم قال بصوت منخفض:

- «صادق بك، آذيتكم كثيرًا بالتدريبات التي أمرتكم بها، هل

ستعفو عني؟»

تفحصت ڤيليشباي بنظراتي الباردة من رأسه حتى أخمص قدميه.

- «تتحدث كما لو كنا سنغادر معًا يا عريف».
- «أظن أن هذا ما سيحدث».
- «لو تعلم شيئًا أفصح عنه».
- «لست متأكدًا... فقط أخمن، أمس كان القائد يقول: بعد ذلك سيصبح الضباط التركستانيون في قيادة السرايا والكتائب».
- «ومِن ثَم، ماذا يعني هذا لي؟».
- «كنت قائدًا في الجيش الروسي..»، خرجت من الحجرة قبل أن ينهي ڤيليشباي ثرثرته.

كنت أرى المقدم إرنيك قائد الفيلق للمرة الأولى، حين يغلق أزرار زيِّه الضيق كان جسمه على وشك الانفجار كأنه عجين منتفخ في قَصْعة، صار وجهه الحليق الناصع شديد الحمرة من جراء هذا الضيق، كان ذا قفا غليظ، وعيناه الخضراوتان تبدوان لامعتين ونديتين، وجفنا عينيه متوردين، غير أنه لا يُعد قبيحًا، أما أكثر شيء يجذب الانتباه في وجهه هو أثر جرح سيف غائر نوعًا ما يمتد من أسفل أذنه اليمنى وحتى طرف شفته؛ سحب المقدم سيفًا قاطعًا بمهارة ليتخلص من قطعة لحم بحجم ظفر

الخنصر من طرف شفته راغبًا في إظهار السنة الذهبية الفريدة التي في فمه، وكشف عنها؛ على الرغم من عيب وجهه هذا لم يكن المقدم إرنيك -كما قلت- قبيحًا ولا شخصًا سيئًا مقارنة بمظهره، استقبلني كأنه يعرفني منذ أَمَدٍ، كان يعرف اسمي ورتبتي ويناديني كمال، ويعرف اسمي الآخر -أيضًا- على الأغلب، في حجرة طويلة وضيقة وقف على قدميه وراء تمثال للحيثيين[12] من البرونز فوق طاولة بنية وأشار لي على مكان بالمقعد، أمسك بيدي قبل أن أجلس، وشد عليها، نظرت إلى وجهه جيدًا، لم يكن يشبه أيّا من الألمان الذين تعرفت إليهم حتى ذلك اليوم، كانت الابتسامة الدائمة على طرفي شفتيه طبيعية؛ ومع هذا كنت لا أستطيع منع نفسي من النظر كأني أنظر إلى قناع أو إلى وجه ممثل، كنت أشبهه أحيانًا بالرقيب بوخ، وفي الحقيقة لم يكن مثله، كان يفعل كل خير يستطيعه لأجلي ومع ذلك لم أستطع أن أغيّر فكرتي أبدًا، كانت محبة المقدم إرنيك من قبل الجند كافةً يمكنها إثبات خطأ اعتقادي، كان يأتي أحيانًا إلى صلاة الجمعة ويشاهدنا من طرف الساحة، وبعد عام شاعت رواية بين المُلالي أن القائد أسلم، لكن هذا ما لبث أن نُسي.

كان ينظر داخل عيني الآن بابتسامة على طرف شفتيه جالسًا على كرسي وراء المنضدة، ثم قال بتركيته الضعيفة للغاية:

12- الحيثيون: هم شعب هندوأوربي من قبائل الأناضول سكنوا آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام منذ3000 ق.م.

«تقومون بتدريب الجنود منذ شهر».

حكى عن ضعف تركيته ورغبته في تطور معرفته بهذه اللغة في وقت قصير، خاصة أنه يهتم بلهجات القيرغيز والأوزبك؛ لم أسأل قط، ولم يتحدث أبدًا عن الحياة التي عشناها في الجيش الأحمر ثم في معسكرات الأسر، هبَّ فجأة حين بدأت الحديث عن اللغة وقطع المسافة بين طرف الغرفة وطرفها الآخر ثم قال ضاحكًا: «كمال بك! بموجب الأمر الذي تلقيناه من قائد قواد الجيش، سنسلم جميع الكتائب والسرايا للقادة التركستانيين»؛ لم أنبس بصوت، فسأل مجددًا بابتسامة على طرف شفتيه: «ألم يسعدك هذا الخبر ولو قليلًا؟».

رفعت رأسي دون أن أجيب، ونظرت إلى المقدم إرنيك وضحكت، ففهِمَ من ضحكتي هذه أني قبلت القيادة، ما كنت سأعترض بأي حال! فبدلًا من بقائي جنديًّا وسحج ركبتي في الحصى، كنت سأصبح ضابطًا وأتنقل فوق الفرس؛ وبدلًا من صراخ العرفاء فيَّ، كنت سأعنفهم؛ وبدلًا من تعفني في ملابس برائحة العرق والتراب، كنت سأرتدي زيَّ ضابط؛ كنت سألمع بنياشيني وجلودي! كنت أقرب إلى طوران القديم في ذلك الوقت، ونهضت على قدمي حين أخذ المقدم إرنيك قبعته من الحمالة.

- «أيمكنني الذهاب، سيدي القائد؟».

رد: «لا، استطعنا أن نختار ثلاثين ضابطًا في الفيلق بأكمله،

وأنت الحادي والثلاثون؛ سنفتتح دورة تدريبية للضباط لمدة ثلاثة أشهر تحت إدارة أفضل الضباط الألمان، وستتولى إدارة الكتائب والسرايا بعد أن تتمرن جيدًا على الأسلحة الألمانية ووسائل التدريب لثلاثة أشهر؛ ستأتي معي الآن وسأريك الدورة التدريبية ثم سأوصلك إلى أصدقائك».

ارتدى قبعته، وخرجنا من الغرفة؛ بدا كأنني أرفع رأسي بفخر عند هبوطنا درج البناية معًا وركوبنا السيارة، ربما كنت أشعر في هذه اللحظة بالسعادة والراحة وبأني شاب للمرة الأولى، كنت أنظر إلى زيِّ المقدم مرارًا في السيارة وحين كنا نخرج من الأبواب ذات المقابض الحديدية وندخل الساحة التي على يمين الرصيف، كان زيُّه أنيقًا وجميلًا وملفتًا للنظر، لكني استأت من الصليب المعقوف الذي يمسكه نسر فضي بمخالبه فوق قلبه على صدره، ربما كان هذا بسبب أن الصليب المعقوف لم يكن بالنسبة لي يعني أي شيء، لكن بعدما أصبح ضابطًا وأدخل روسيا مع كتيبتي ما كنت سأبالي لصليب ألمانيا ولا لنسرها!

ألن أرتدي القبعة الشركسية[13]؟ ألن أجعل فتيات أوكرانيا يطرزن لي الهلال والنجمة فوق قبعتي الشركسية؟ لأعبر من

13- الشركس: مجموعة شعوب تشمل سكان شمال القفقاز من أديغة وشيشان وآفار ولزجين وغيرهم. وقد أُضطُرَّ الكثير من الشركس إلى الهجرة إلى الأراضي العثمانية أو الروسية كنتيجة للحروب التوسعية التي شنتها الإمبراطورية الروسية في المنطقة والتي استمرت أكثر من مائة عام. واسم شراكسة يطلق الآن على جميع الشعوب التي كانت تسكن الشمال القوقازي، ولهذه الشعوب حضارة مشتركة.

حدود تلك الدولة أولًا!.. ولن آبَهَ للنسر الألماني؛ نعم، سأصبح بعد الآن طوران القديم، سأصير رجلًا ثانية، ومن يدري؟! ربما سيبدأ الدم التتري الذي يجري في عروقي عمله.

نزلنا من السيارة بين كوخين صغيرين، كان قسم من أصدقائي الذين انضموا لدورة الضباط يقفون متكئين على جدران الكوخ، تابعتهم طويلًا من الطرف، ثم انضممت إليهم؛ في أول يومين لم نكن نهتم بأي شيء، وفي مساء اليوم الثالث أُعلن بدء دورة الضباط، كان الافتتاح مع الولائم والضجيج، واجتمع كل ضباط الفيلق ذوي الرتب العالية، وفي الكوخ الطويل أُلقيت الخطب أسفل علمي تركستان والألمان، ورفعنا الأقداح نخب ألمانيا ومن أجل استقلال تركستان.

أصبح أحمد الشاب الأوزبكي الحيفاوي الأسمر طويل القامة ذو الوجه الشاحب الذي تشتعل عيناه الواسعتان بوميض الرُّقي أقرب إنسان لي ذلك المساء، وكان مثلي يعتبر استقلال تركستان مطلبًا عزيزًا؛ إلا أنه عندما يحل وقت اتخاذ القرار سيكون أقوى وأشجع وأكثر تضحية مني.

في ليلتنا الأولى حكى لي بإسهاب عن ذكريات الحرب وعن تجاربه على الجبهة، كان يجتهد قدر إمكانه ليكتم الأدوار التي لعبها في هذه الأعمال ويحطها لدرجة تافهة، كان متدينًا، وكان يعد النجاة بروحه في الأسر من فضل الله وعنايته، وقال وعيناه

مغرورقتان بالدموع أنه لهذا سيضحي مستقبلًا بحياته في سبيل الله والأمة فحسب.

كان أغرب ما في الأمر أنه سأل عن اسمي ومَن أنا ومِن أين أكون، وقبل أن يعلم عرض عليَّ الصداقة الحميمة مادًّا يده إليَّ، كان هذا مضحكًا قليلًا بالنسبة لي، لكنني قبضت على يده دون أن أشعر وقبلت صداقته، كانت له قوة مؤثرة في البشر في نظرات عينيه الإنسانية لدرجة أن يدينا وقلبينا كذلك ارتبطا معًا وصرنا صديقين، كانت صداقتنا حميمة للغاية لكنها مع الأسف لم تدم طويلًا.. ميزت صفحة أحمد أقين في حكايتي بالصفحة الحمراء، لكن تلك الصفحة ستأتي لاحقًا..

بدأنا دورة الضباط بعد الوليمة مباشرةً، وبجدية شديدة أطفأنا المصابيح وبمجرد أن خلدنا إلى النوم انطلقت صرخة في الطرقة: «إنذار!»، وقف الألمان على أبواب الحجرة، لم يجعلونا نضيء النور، حملنا أسلحتنا في الظلام وألقينا بأنفسنا في الطرقة مُزَرِّرِينَ أزياءنا، كان الألمان في الطرقة يصرخون بلا توقف، وتهكم بعضهم بلطف قائلًا: «إلى الخارج! السادة الضباط إلى الخارج».

كان المطر يهطل بغزارة في الخارج وكنا ننتظر الألمان أمام الكوخ وأزياؤنا الصيفية الخفيفة ملتصقة بأجسامنا، بعد نصف ساعة أتى الألمان، وأوصلونا مع القادة الأشداء إلى السهول،

جرينا في الوحل لساعات أسفل المطر، رأينا معلمينا باكر الصباح التالي، كلهم عرفاء، أشد وأعنف العناصر في الجيش الألماني، يحومون حولنا ككلاب الصيد مشمرين عن سواعدهم، لا تفوتهم شاردة ولا واردة، ما أقساهم وما أشدهم! حين أفكر في أن هؤلاء سينتصرون أشعر بأني لن أرى استقلال تركستان أبدًا، كان أحمد أقين مثلي يفكر في العرفاء؛ حيث سأل بخوف وهدوء قائلًا: «صادق بك! أهولاء الرجال سيدربوننا؟».

بدأنا بتدريب هؤلاء، لم يكن تدريب قيليشباي تدريبًا؟ كان تدريب العرفاء الألمان يفوق تدريب قيليشباي، كان الإنذار يضرب كل ليلة ثلاث أو أربع مرات وأحيانًا خمسًا، كانوا يجعلوننا نسير على أيدينا وأقدامنا في الساحة الغبراء في الظلام، ولو تناهى إلى مسامعهم صوت من فم أحدنا كانوا يحملون أجولة الرمل على ظهورنا ويأمروننا أن نجري لساعات في السهول.

في بعض الأيام كانوا يجعلوننا نسير طريقًا قرابة ثلاثين أو أربعين كيلومترًا، وفي النهاية حين نصير على بعد كيلومترين من لجيونوفا كانوا يجعلوننا تارة نجري وتارة أخرى نسير على أيدينا وأرجلنا، وعلى ظهورنا جميعًا أثقال حديدية أو مواسير من الأقماع الثقيلة، كانوا على دراية بطرق القسوة المتنوعة وأكثر الوسائل شيطانيةً. مما أتذكره جيدًا أنه ذات يوم كنا نعبر جسرًا

فوق ناريف[14] في شمال شرق لجيونوفا، وانطلقت فجأة صرخة: «ضرب نار للعدو من الأمام!»، عندما دُرنا وجرينا للخلف صدرت صرخة أخرى: «ضرب نار العدو من الخلف!».

ألقى أكثرنا بأسلحته في النهر، كان العرفاء الألمان يسبّون أصدقاءنا الخائفين من الماء ويريدوننا أن ندخلهم الماء قسرًا؛ كنا أحيانًا نخرج لرحلات ليومين أو ثلاثة، وكان خوف الناس الغريب ينفذ من وراء الأبواب والنوافذ مع مرورنا من القرى، كنا نقوم بألعاب الحرب ونأخذ وضعيتها داخل البساتين والحقول، خلال هذه الألعاب كان القرويون البولنديون[15] والسيدات والأطفال ذوو السراويل الرَّثَّةِ حفاة الأقدام الذين تشتعل أعينهم بلهيب الثأر يلعبون دائمًا دور أفراد العصابة قطاع الطرق، وكان العرفاء الألمان يقتحمون المنازل في حشودٍ بمسدساتهم كأنما يرقبون خطرًا أو تمردًا من السيدات اللاتي شاب شعرهن، وكانوا يفتحون أبواب الغرف المظلمة راكلين إياها ثلاثين مرة أو ضاربين إياها بمقابض بنادقهم، كنا نقلب كل الزوايا والمخازن والأسرَّة كي نبحث عن السلاح والفارين وأفراد العصابات.

14- نهر ناريف (Nariv): ينبع من غرب بيلاروسيا كأحد روافد نهر فيستولا. ويجري عبر هضبة بودلاسي وبيلاروسيا. ويمر بمحافظتي بودلسكي ومازوفيا في بولندا وجردونة أوبلاست في بيلاروسيا. وهو خامس أطول أنهار بولندا.

15- بولونيا هي بولندا أو الجمهورية البولندية (Polonya): هي دولة تقع في أوربا الوسطى وتحدها ألمانيا من الغرب. وجمهورية التشيك وسلوفاكيا من الجنوب. وأوكرانيا وروسيا البيضاء من الشرق. وبحر البلطيق ومنطقة كاليننغراد وليتوانيا من الشمال وهي من أكبر 9 دول في أوربا.

كما حملنا نحن –جند الاستقلال– مستقبل تركستان الأعز فوق أكتافنا مع بنادقنا، حملنا كذلك داخلنا ألم دموع تلك السيدات والأطفال الناشئة، وسرنا نقتفي آثار العرفاء الوحشيين الذين خلعوا رداء الإنسانية، واعتدنا وحشيتهم بسرعة، وصادفت الحياة الوحشية هوانا كالعرفاء، وتسلينا وتلذذنا بذعر وقلق الآخرين؛ ركلنا بأقدامنا النعم الإلهية الجميلة التي منحتها لنا الحياة والبشرية، وركلنا بروسيا بالأحذية التي في أقدامنا، وسحقناهما بجهالة وحماقة؛ قمنا بأعمال سيئة للغاية في ما كنا نحاول الوصول إلى غايتنا الأبدية: تركستان العزيزة.

أكتب هذه الأسطر مع شعور عظيم بالمسؤولية؛ فأنا أخاف أن تختلط روح ملتنا الحبيبة النقية مع هذه الذنوب التي اقترفناها؛ لكنِّي في النهاية لن أفر من الأعمال السيئة التي فعلناها، ولن أفارق الأمة التي نرقبها عن بُعد بأعين دامعة؛ ففي هذا اليوم ستتحد حرارة أعماقي ورجفة رأسي المريض الذي دائمًا ما يرى الماضي أحمر والمستقبل أسود، ولن تبقى فكرة باستطاعتها إنقاذي من الحمى ولا عزاء يُبردها؛ فقط أتمنى من الله ألا تنطفئ مشاعر إيماني وحبي لأمتي ومشاعر الانتقام والحقد تجاه أعدائي حتى أحضر مجرورًا للمحكمة وتثقب صدري أسفل جدارٍ رصاصات العدو!

هذا هو ذنبنا... إطلاق النار على حيوان القروي ودخول المنازل

وإسقاط أيقونات الجدران؛ ذنبنا هو: اتحاد آثار السوط الألماني على خصورنا مع العرفاء الألمان في الزوايا المعتمة حين كانت الأم ذات الشعر الأبيض تبكي في الفناء، واللهو مع الفتيات؛ أكان هذا -أيضًا- لأجل الاستقلال؟! يا الله!

بعد أربعة أشهر صرت ضابطًا، خرجت ذات ليل شتاءٍ بارد من ملهى عسكري في مكان بقرب سوق لجيونوفا، وقد اختلطت أصوات العساكر الخارجين من الخمارات والمباغي وتناهى إلى مسامعي من داخل الملهى صرخة تشبه العواء، سرت في اتجاهها، وعلى ضوء المصباح المضيء فوق الباب المرتفع ذي الضلفتين كان تركستانيان قد وضعا فلاسوفيًّا[16] أسفل أقدامهما وأخذا يركلان رأسه ووجهه، وكان الروسي يصدر خوارًا مثل الثور، توقف التركستانيان اللذان رأياني، فذهبت إليهما، كان وجه الروسي قد صار أحمر من الدماء، أتى زاحفًا وأمسك بحذائي، وكان التركستانيان ينظران إلى طرف الحذاء محنيين رأسيهما وفي عينيهما بريق الرضى.

- «لِمَ تضربان الرجل؟».

16- جيش فلاسوف أو جيش التحرير الروسي هو مجموعة من العسكريين الروس المنشقين عن الجيش الصدامي الثاني والذين أعلنوا ولاءهم للقيادة العليا للجيوش الألمانية النازية خلال الحرب العالمية الثانية. وقد تكوّن على يد جنرال الجيش الأحمر أندري فلاسوف الذي حاول لم شمل مناهضي الشيوعية من الروس والمعارضين لنظام الحكم الشيوعي في روسيا.

لم يجيبا، كانا يلهثان مثل الحيوانات الوحشية، وينظران إلى الروسي تارة، وإلى وجهي تارة أخرى ببريق في عينيهما.

- «لِمَ تضربان الرجل؟».

قوادة! كنت أريد معرفة سبب هذا، رفع أحدهم رأسه وقال ببعض الخوف كأنما ينتظر إعجابي بما فعله:

- «هذا رجل روسي، سيدي القائد».

في هذا المساء انحزت للروسي ضد التركستانيين؛ غير أنه في صباح اليوم التالي وجد خفير جسد الروسي على حافة السكة الحديد في المدينة، فذهبت ورأيت جثته، أتخيله أمامي الآن في ما أكتب هذه السطور، كم كان وجهه مرعبًا! كان جسده مثل جذعٍ متفحم منذ سنوات طوال، عدَّ الأطباء الألمان سبعة وأربعين جرحَ سكينٍ، ألغى القائد إجازتنا فورًا، ولشهر لم يُسمح للجند بالخروج إلى المدينة، بحث الألمان شهرًا عن قتلة الروسي، ولم يستطيعوا العثور عليهم، سألت المقدم إرنيك بعد اجتماع الضابط قبيل المساء: «بِمَ سيُجازى القتلة إذا قبض عليهم؟».

شحب وجه المقدم الأحمر ذلك اليوم، واختفت الابتسامة التي كانت على طرف شفتيه وأجابني: «سننفذ حكم القتل أمام أعين جند الفيلق كافةً»؛ أغلقت فمي بعد أن أجاب المقدم إرنيك ولم أتحدث بعدها، في ذلك المساء كنت كلما صادفت التركستانييْن اللذين ضربا الروسي داخل الملهى يمران بجانبي مسلمين

ونظرات أعينهم مليئة بالامتنان ويذهبان، حملت السر المؤلم الغريب مع هؤلاء بداخلي حتى ذهبت إلى الجبهة، أكانوا قتلة؟ لا أعرف!.. أكانوا مذنبين؟ ربما! أُمتي لا تعرف غير الذنوب التي فُعلت ضدها فقط، إذا كان هؤلاء الجند قتلة فلأجل الدفاع عن أنفسهم، الرجل كان روسيًّا، فماذا كان بإمكانهم غير تنفيذ كلام القائد؟

استمر التدريب الذي يقوم به العرفاء في دورة الضباط لشهر كامل، وسرعان ما اختفى العرفاء ذات مساءٍ، نهضنا في الصباح الباكر وانتظرنا العرفاء أمام الكوخ بدهشة، ولم يأتوا، أتى ظهرًا ضابطان وقوران مهذبان ذوا ملابس نظيفة، أخبرنا الضابطان بانتهاء التدريبات التي ينفذها العرفاء وفي اليوم نفسه بدأت الدروس التكتيكية التي درسها لنا الضابطان على صندوق رمل في الكوخ، لم نقم بتدريبات ولم نسر في الطريق، كنا نستيقظ في الساعة الثامنة وننظف أزياءنا حتى التاسعة أو التاسعة والنصف، كان الضابطان يأخذاننا إلى السينما مرة في الأسبوع، وكنا نستمع إلى الجرامافون في أمسياتهم، كانت الاجتماعات مستمرة، وفي كل اجتماع كان الضابطان يُحملان اليهود مسؤولية الحرب، كنت كلما تخيلت كل الكوارث التي سببتها الحرب أقول: «كم كانت الأسباب التي أدت إلى الحرب تافهة!»، الأغرب أنه لم يكن تصديق هذا سهلًا علينا، لا أعرف لماذا؟! عجبًا أكانت الكراهية الغريزية تجاه اليهود الموجودة في كل أناس أمتنا داخلنا نحن أيضًا؟!

ربما كانت موجودة.

كان الضابطان يقولان إن تركستان ستصبح دولة قوية وعظيمة في آسيا مستقبلًا، وبعد أن يتفق ويتحالف العالم التركي التتري مع اليابان في الشرق، سيخضعون في الغرب لألمانيا وفي الشرق لنا ولليابان، وسيعترفون بأحقيتنا في حكم العالم شيئًا فشيئًا؛ ينتابني الضحك الآن وأنا أكتب هذا؛ لكنَّ الضابطين الأكثر منا تحضرًا وتفوقًا كانا يُحدثاننا بهذا، ويثقان بكلامهما أكثر منَّا، كانا يؤمنان به، ويضحيان بأرواحهما على الجبهات في هذا السبيل كذلك، كانا يضماننا إليهما رويدًا رويدًا، هل كانت هذه أول خطوة لحكم العالم يا تُرى؟! كانا يشرحان كيف سنعدل في حياة المجتمع، وإمساك الشوكة والسكينة على المنضدة، وأصول السلام على السيدات، والعلاقات الاجتماعية بكل التفاصيل.

أجل، كان الألمان سيحكمون العالم، كانوا يؤمنون بهذا؛ وبعد أن ارتدينا الزيَّ الألماني وأصبحنا ألمانًا من رؤوسنا حتى أظافرنا، أما كانوا سيعدلون في حياتنا شئنا أم أبينا وسيصبح وطننا تركستان خيالًا كذلك شيئًا فشيئًا؟

استمرت هذه الدورة حتى بداية أغسطس، وفي الأسبوع الأخير من دورة الضباط أتى ضباط من القيادة وقدموا لنا اختبارًا تحت نظراتهم الصارمة والمتجهمة، اهتم هؤلاء الضباط بكل أفعالنا، كانوا يعتنون بمشيتنا وبحديثنا وحتى بتناولنا الطعام، كانوا

يريدون أن يجعلونا أناسًا متحضرين مثلهم تمامًا قبل أن نصبح ضباطًا وقبل أن نرتدي أزياءنا اللامعة، ربما كانوا يعتقدون أن أزياءنا ورتبنا هي ما ستسيرنا في الطرق مباشرة لأجلهم فقط.

لا يمكنني أن أعيب على هؤلاء الضباط الألمان، كانوا جيدين ويريدوننا أن نصبح أفضل، يرى كل العالم سلبياتهم فقط، وهل كنا نستطيع رؤية سلبياتهم في الطريق المثالي الذي فتحوه لنا؟ ربما أكتب هذا هنا حفاظًا على شرف الزي الذي ارتديته على بدني، كانوا يحدثوننا عن تركستان، ويزعمون أنَّا مستقلون، وهل كان يمكن أن نعيبهم عندما يتحدثون هكذا؟

الثامن من أغسطس عام 1942 كان آخر أيام دورة الضباط، بدأنا التنظيف من الصباح الباكر، كان التحضير له كأنه تحضير للعيد، وكان القائد المقدم إرنيك يمر على حجراتنا مُترنمًا وكل ميدالياته على صدره ومهاميزه اللامعة على حذائه، يقف ويتحدث مع كل منا بمفرده كان يبدو لطيفًا للغاية وودودًا جدًّا.

قبيل الظهر اجتمع كل ضباط الفيلق بجوار الكوخ، وأتى بعضهم وسلَّم علينا، كانوا يحاولون عقد الصداقات معنا ومصاحبتنا، وامتزج بريق أمل ألمانيا لأنها لن تظل بمفردها تمامًا مع بريق الفخر والأمل -أيضًا- البادي في أعين هؤلاء الضباط الشباب ممن أسرتهم ألمانيا منَّا بالبارحة؛ رأى بعضنا بريق هذا الأمل الغريب الممتزج بنظرات القوة في أعين الضباط المغرورين الذين نشأوا

تحت رعاية الأمة الألمانية، وفهمه البعض الآخر، لا أعلم؛ بيد أن كان من بيننا من يصر أسنانه ناظرًا إليهم، ويرتقب ساعة الانتقام ولا سيما بعد انتهائه من الجندية، بمجرد أن رأوا غابات بولندا الشرقية شجوا رؤوس بضعة ألمانيين كانوا معهم بأعقاب بنادقهم وفروا إلى الغابات، أين هم الآن؟ تحت أي شجرة أو على أي ماء أو حافة طريق قضوا نحبهم؟

قبيل المساء اصطففنا أسفل علمي تركستان وألمانيا، كان ضباط الفيلق والضباط الضيوف القادمون من القيادة في ناحية، ونحن في الناحية الأخرى، أجل نحن الراقدون بالأمس عراة في معسكرات الأسر، أبطال اليوم الذين سيقاتلون لأجل حكم العالم بالأزياء اللامعة، كان هؤلاء الضباط الواقفون أمامنا الذين يُعلِّمون الفرق بين الأمس واليوم جيدًا، ينظرون إلينا بفخر دون توقف، إلا أنني كنت بإخلاصي أوفى أبناء وطني وأُمتي، كانت هناك حياة جديدة أمام عيني تختلف تمامًا عن الحياة التي عشتها حتى الآن.

استغرقتُ في أفكاري، وكان القائد المقدم إرنيك يقرأ أسماءنا ورتبنا وسرايانا وفرقنا، وفي اللحظة التي سمعت فيها اسمي كنت كمن أفاق من سُباتٍ عميق.

- «قائد السرية الثالثة: صادق كمال، قادة الكتيبة: تختاغُل سالم، إرسان باغير، مؤمن بطل، أحمد أقين».

نظر أصدقائي إليَّ فجأة بنظراتٍ مهنئة، وأتى القائد وضباط

قيادة الجيش وشدوا على أيدينا، وبعد أن تفرقت الصفوف هنأني كلٌّ مِن أصدقائي ومَن حولي ثانية رابتين بأيديهم على كتفي بابتسامة في أعينهم، وما لبث أن أصبحتُ كل شيء عند هؤلاء في عدة دقائق، كانوا يقولون: «أي كمال بك! سنقاتل معك، ونموت لأجل وطننا تركستان».

كان أحمد فحسب يضحك بأسنان براقة:

- «لا تذكروا الموت، ألن نشرب في عرس صادق بك في حيفا؟».

أمسك كل منا بخصر الآخر مقهقهًا، وقبلت عيني أقين ذلك اليوم لأبين صداقتي الحميمة للغاية؛ المسكين أقين، المسكين أقين.. ماذا حل بك بعد عام!

(2)

انتقلنا إلى الفيلق صباح اليوم التالي، وكان العرفاء الذين عُينوا في السرية الثالثة ينتظرونني أمام المبنى اللبني الأحمر ذي الطابقين، عندما وقعت عيناي على قيليشباي بين العرفاء اعتقدت أني لن أندهش بعد ذلك لو رأيت أي شيء تحت الشمس، أتى هذا الرجل إليَّ كأنما لم يفارقني منذ يوم مغادرته لمدفعية سليمان، إلا أن أغرب مصادفة جرت بعد شهرين. دام وصول الجند إلى الفيلق قرابة الثلاثة أيام، وأسندت أمر العرفاء كافة إلى أحمد أقين، وضممت موهان والشيخ خشنود إلى السرية الثالثة بموافقة القائد، ذهب خشنود إلى مكتب العريف والكتيبة وعاد برتبة عريف قبل شهر من التحرك إلى روسيا، ووصيت مكتب العريف عليه إلا أنه رفض، كان لون وجهه قد تغير بعد وفاة ذلك القروي، لا يتحدث مع أحد ولا يرافق أحدًا، كان يؤدي التدريبات بصمت وبداخله ألم غريب.

مرض فجأة ذات يوم، ورقد في المشفى شهر، كنت أذهب للمشفى من وقت لآخر وأجلس على حافة فراشه وأحدثه طويلًا، تركته في المشفى قائلًا بأسى: «سنذهب إلى روسيا»؛ توسل لي بمرارة قائلًا: «لا تتركني هنا، صادق بك!».

لم يطل مرضه كثيرًا على أي حال وعاد للسرية، ولم أخرجه أنا -أيضًا- للتدريب بعد ذلك، كان يساعد الطاهي في المطبخ ويقضي أوقات فراغه في ظل شجرة الصنوبر بالتسبيح على يده والدعاء بصمت.

كانت العلاقة بين موهان وقيليشباي مقطوعة حتى أول هجوم في غابات أوكرانيا، وأصبحت العلاقة بينهما فاترة حتى كادت تصل للعداوة، لكن حين بدأنا الهجوم وحَّدَتْهما دماء إخوتنا المصابين من بيننا؛ ويالها من رابطة! فعندما تحدثا بالمثل مع لهيب منبثق من أعينهما السوداء مثل الفحم ماحين بكفيهما شفاهما الحمراء مثل النار ووجنتيهما بعد أن ناولا لبعضهما زجاجة الخمر قبل الدخول إلى المعركة... خفتُ وكذلك قادتهم، ارتجفتْ يدي ورجلي خشية احتمال المزيد من الدماء، والآن أكتب هذا مع أني يُتمتُ من أُمتي في القرم وفي شمال القوقاز ليس برجفة بل بكثير من الفخر والرضا داخلي.

رأيت قيليشباي الحقيقي ذلك الوقت، تعرفت على قيليشباي الحقيقي داخل الحرب؛ فبعد أن غادرنا الجبهة وعدنا إلى بولندا كاد عذاب الضمير أن يقضي على القوي القديم الشقيق الأكبر لمَّا لم يستطع استخدام قوته هذه، وبعد وفاة موهان كان سيقتلني وسيذهب إلى الألمان الموجودين في السرايا ويطعنهم، لم يقتلني ولم يذبح الألمان؛ لكنه عانى كثيرًا!

وصل الجند إلى لجيونوفا بعد ثلاثة أيام؛ ذهبنا إلى محطة المدينة واستقبلناهم، كانت أحوالهم مفجعة ويُرثى لها، كانوا أناسًا طوال القامة نحفاء وبعضهم صار جلدًا على عظم، كانوا ينظرون لنا وهم على هذه الحال بأفواه مفتوحة وبدهشة ورعب؛ ومع هذا لم يكن لدينا شك، فسترفع روح تركستان هؤلاء كما نهضت بنا، كنا سنجعلهم رجالًا بروح تركية وبدم تركي، منعت تدريبهم لأسبوعين؛ المساكين لا زالوا يتجولون ناكسي رؤسهم كما كانوا في معسكرات الأسر، أو ينظرون عن بعد لساعات ناصبين أعينهم على المطبخ.

اعتادوا حياتهم الجديدة رويدًا رويدًا، كانوا يلتفون حول الميرزة(17) سيف الدين طويل القامة ذي الهيئة المدنية واللحية الكثة والعينين السوداويتين والجبهة البيضاء العريضة مثل قطيع الأغنام ويبدؤون الدوران في الساحة، كان أغلبهم يقيم الصلاة في الغرف وتحت ظل أشجار الصنوبر، كان المُلّا سيف الدين يأتي إلى حجرتي كل مساء ويشكرني ضامًا كفيه أمام صدره وقلبه لأجل الرحمة التي أبديها للجند الجدد، المُلّا سيف الدين المسكين! توفي ناظرًا إلى السماء ونور الرحمة في عينيه ويديه البيضاوين على صدره، المسافة بيننا وبين هذه الأسطر عامان، وأريد أن أقدم قلبه الماسي المحفوظ داخل راحتيه وروحه التي

17- ميرزة: لقب الأصالة عند بعض المجتمعات التركية والإيرانية.

ضحى بها في سبيل تركستان إلى شباب تركستان، سيضيء قلبه طريق الاستقلال مثل قلوب جميع أبطالنا الذين استشهدوا كمشعل يستحيل إخماده.

حين أتذكر الآن هؤلاء الأبطال أود لو أترك ذكرياتي وأهرب، أود الفرار؛ رغم أنهم لم يعيشوا معي حين كنت أعيش حياتي، فلو أعلم أني سأفارق الحياة غدًا كنت سأكتب ذكرياتي وأنهيها بعدة أسطر شبه مرقعة.

بدأ التدريب بعد أسبوعين، في البداية ذهبت الليونة وأصبحوا أناسًا أقوياء شيئًا فشيئًا ثم اشتد عودهم الواحد تلو الآخر وأصبحوا جندًا بالكامل، تغيرت الحياة في نظرات بعضهم لبعض، طُوِيت الحياة القديمة وبدؤوا الحياة جديدة، وليس هناك محل في الحياة الجديدة للأعمى ولا للخائف ولا للمسكين، جرى الدم في وجه كلٍّ منهم ولمعت عيناه، وبعدها لم يعودوا يقضون أوقات فراغهم في الدعاء والصلاة فقط، كانوا يغنون وهم عائدون من المدينة في أمسيات الأحد واضعين أذرعهم بعضهم على أكتاف بعض وقد أثملهم الشراب، أكان قلب المُلّا سيف الدين يريد أن يمتزج بهولاء ويكون معهم؟ كان هو -أيضًا- مُلّا أصولي جديد!.. كان يمر من جانبهم سريعًا بابتسامة خافتة على طرف شفتيه كأنما لا يرى ذنوب إخوته الصغرى هذه، هو -أيضًا- كان أحد الملالي الجدد! فما المستقبل بالنسبة للمُلّا سيف الدين من الذنوب البسيطة

لهؤلاء الفتية الذين سيذهبون للموت لأجل وطنه؟ حتى لو كان ذنبًا... فستتحد أرواح أولادنا المذنبين هؤلاء الذين ثاروا ضد ظلم واستغلال أعدائنا مع أرواح أجدادهم الأعزاء لأجل دماء أمتنا التي سالت بلا ذنب.

بعد مناورات وتدريبات كثيفة لمدة شهرين كان الجند شبه جاهزين للتحرك إلى الجبهة، كان هؤلاء الفتية يترقبون أمر المقدم إرنيك الذي سننتقل على إثره إلى روسيا على أحر من الجمر لا أعلم ألأنهم ليسوا على دراية بعد بإعصار النار والدماء على الجبهات أم كي يضحوا بأرواحهم فداء الأمة، يطلبون أن يكونوا في صفوف الجيش الألماني الأمامية المقتربة من حدود تركستان، ويتحدثون كل مساء عن تركستان في غرفهم، أضحيت أحب موهان كثيرًا في هذه الأيام الأخيرة، وأحيانًا كنت أسمح له بامتطاء فرسي في التدريب وأتابعه مع الألمان من الطرف، كان موهان يثِبُ قافزًا من على ظهر الفرس بينما يعدو الحيوان بسرعة، وأحيانًا كان يستلقي على ظهر الحيوان الجاري بسرعة ويصوب بندقية آلية في يده إلى علبة سجائر على بعد ثلاثين خطوة، كان يقول وعيناه الضيقتان تضحكان بينا يكافئ نفسه بسيجاره بعد جريه: «آغاي[18]، أنا لا أطلق رصاصتي في الهواء، ليتصدى لي أحد الكفار الذين أسروا الشعب القازاقي... وسترى

18- آغا: هو لقب مدني وعسكري يعني سيد أو رئيس وكان مستخدمًا في الدولة العثمانية.

سأفعل الأفاعيل حين ندخل أستراخان!».

المسكين موهان! جرى لك الكثير دون دخول أستراخان! مساء ذلك اليوم الأسود تعلقت بكياني بعينيك السوداويتين الصامتة مثل مسمار، واليوم سبرت بالحياة السوداء والرهيبة ليس شجاعتي فحسب بل قلبي وأفكاري أيضًا، واليوم أنت -أيضًا- الذكرى المؤلمة التي لا يستطيع عقلي المنهك نسيانها.

ما إن توقفتُ مع السرية العائدة من التدريب أمام البناية قبيل المساء حتى أخبرني رئيس العرفاء نصر الله بأن المقدم إرنيك استدعاني، ناداني من ورائي حين دخلت غرفتي وأردت أن أنفض الغبار عن حذائي، فقال وهو ينظر إلى ساعته: «لتأتِ على الفور، إنه أمر هام، سيدي القائد!».

توقفتُ، كان جميع الجند ينظر إليَّ، وهمس الرقيب نصر الله بصوت خافت مكملًا حديثه وقال: «إنها مسألة هامة»؛ لكن أهناك مسألة غير هامة عند الألمان؟

ذهبت إلى مقر القيادة سريعًا، في الطريق كنت أفكر في أمر الجبهة، أحسست داخلي بكل رعب الحرب القاصية بينما كنت أصعد درج مقر القيادة الحجري، وتخيلت للحظة القنابل المنفجرة في جبال القوقاز الشمالية والجنود الممزقين، كنت أرتجف نوعًا ما حين اقتربت من حجرة المقدم إرنيك في الرواق ثم تمسكت بالحائط كما لو كنت سأهوي على الأرض، لكن هذه

الرهبة لم تكن رهبة الجبهة أو الموت وإنما كانت تمردًا داخليًّا لم أعلم ضد ما أو من، وقفت أمام باب المقدم كأنما انتظر استجماع نفسي، بعد قليل دفعت الباب ودلفت للداخل.

كان المقدم إرنيك ذو الرأس الضخمة المسترخي بوجهٍ عبوسٍ على مقعد وراء تمثال الحيثيين القابع على الطاولة الطويلة ذاتها ينظر إلى أطراف أظافر يديه على الطاولة، ألقيت السلام بقوة وقلت:

- «قائد السرية الثالثة صادق طور... كمال تحت أمرك سيدي القائد».

شعرت بتجمع قطرات العرق الباردة على جبهتي مع هذه الكلمة الأخيرة، أشار المقدم لي على مقعد بجوار الطاولة دون أن ينبس ببت شفةٍ أو ينظر إلى وجهي فجلست، كاد قلبي أن يغوص في صدري من الصمت المخيم على الحجرة وكأنه أحس برعب من شيءٍ خفيّ، نظر المقدم إرنيك إلى الصحف على الطاولة وسألني قائلًا: «أقرأتَ الصحيفة؟»، ثم أردف دون أن ينتظر جوابي: «تصل الأخبار من روسيا جيدة دائمًا... كيف ستشتغل بعمل بعد الحرب؟».

لم أكن قد فكرت بهذا مطلقًا، وكأن الوضع الطبيعي بالنسبة لي ألا تنتهي الحرب أبدًا، فقد ولدت في النار والدماء وعشت فيهما، كم من أبناء أُمتي رأى بلدي قريرة العين بلا حرب، وكم سيراها

منهم!

سألت نفسي السؤال عينه: «كيف سأشتغل بعمل بعد الحرب؟»، كان المقدم يحدق في عيني كأنما يترقب جوابي بعناية، فألقيت نظرة خاطفة على الصحف.

- «لتنتهي الحرب أولًا، سيدي القائد..».

- «نحن الألمان نفكر في حياتنا الخاصة القادمة حتى في الحرب، نخطط سلفًا؛ أي أنه لم تضع خطتك بعد؟».

كان ينظر إليَّ مثل صديق، وشعرتُ أن بإمكاني التحدث مع المقدم كصديق.

- «بقدر ما تحضر هذه الحرب للأمم المنتصرة فيها من حرية واستقلال وربما ثراء -أيضًا- بقدر ما تحضر من دمار وخراب... جروح الحرب للأمم المنتصرة مؤلمة للغاية أيضًا».

أحسستُ أني مسستُ نقطة الضعف عند المقدم بجوابي هذا، فأدار عينيه في الحال من وجهي إلى الصحف؛ ما كان المقدم إرنيك قد دعاني ليعلم الأعمال التي أهواها بلا شك! ما هدفه؟ قلتُ كأني أرغب في إنهاء حديثنا:

- «سيأخذ إصلاح آثارنا الباقية أمدًا طويلًا... يتطلب الكد كثيرًا لأجل هذا، ثمة عمل لي في بلدي، سيدي القائد».

نهض فور إتمامي كلمتي وسأل وعيناه لا تزال في الجريدة:

- «هل أنت قرمي، يا كمال؟».

- «أنا قرمي، سيدي القائد».

- «متى فارقت بلدك؟».

- «انقضت خمس سنوات..».

- «من لكَ في القرم؟».

- «أمي، وأبي، وإخوتي..».

- «أتريد رؤيتهم؟».

لم أجب، وكأن صوتي قد بُحَّ من الانفعال، نظر المقدم إرنيك إلى وجهي بعينيه اللامعتين.

- «أنتَ يا كمال، أسمح لك يا كمال بالذهاب أسبوعين إلى القرم، القرم تحت أيدينا... اذهب قبل أن نتحرك للجبهة، والتقِ عائلتك..».

كان كل بدني يرتجف، لم أستطع أن أعرف ماذا سأقول أو سأفعل، وعانقت المقدم إرنيك مثل صبي؛ وضع المقدم إرنيك يده على كتفي كأنما أحس بانفعالي وانحنى على أذني:

- «كن قويًّا يا صادق... أعلم أنك عانيت الكثير... اذهب الآن وعُدْ يوم الثلاثاء وخذ منشور الإذن..».

وقبل أن أصل إلى الباب:

- «لكن قُمْ لي بعمل قبل أن أسمح لكَ بالذهاب، سيأتي يوم الاثنين أربعمائة أسير إلى وارسو[19]، يلزم لمقابلتهم شخص يعرف الألمانية جيدًا..».

- «تحت أمرك سيدي القائد».

- «ارحل يوم الثلاثاء إذا شئتَ».

خرجتُ من حجرة المقدم إرنيك؛ علَّ دنياي أضحتْ حلمًا بعد هذه اللحظة، كان يجب عليَّ أن أبدأ حكايتي الأصلية من هنا حقيقةً، شعور الحلم هذا استمر حتى هربت من جوار مارية في تيرول شهر مارس عام 1945، بعد أن فارقت مارية لم يعد هناك محل أتعلق به أو أطيقه، حاليًا لم تعد حياتي حياة ولا حلمي حلمًا! أشعر حينًا كما لو كنت قابعًا في أعماق البحر، يا ترى هل يوجد في الدنيا من يشعر بهذا الشعور غيري؟ لعل من يكتب الذكريات هو ألم هذا الشعور؛ بيد أن هذا الشعور ربما هو من جعلني أعيش مجددًا مع ذكرياتي.

أيا السابقون! حيوات السابقين وأرواحهم -أيضًا- أكبر قيمة من حياتي بكثير، لو كان بإمكاني بعث الأسلاف إلى الأرض فلا ضير ولأظل بكامل كياني في عمق المحيط ثانية، ليخرج السابقون فقط إلى الدنيا وليعيشوا، لو يحيون سيطمئن فؤادي

---

19 - وارسو أو فارسوفيا هي عاصمة بولندا وأكبر مدنها وتقع على نهر فيستولا وقد تعرضت للتدمير الشديد خلال الحرب العالمية الثانية.

ولو في عمق البحر حتى.

بعد أن خرجت من غرفة المقدم إرنيك أصبحت حياتي مضاهاة لرواية مليئة بالحوادث والصدف والوقائع التي لا يتخيلها عقل حتى استحالت أشبه بحلم، حين أفكر في أن فصول حياتي هذه بكل دقائقها أشبه بحكاية مختلقة أخجل من نفسي، لكن كُتّاب الوقائع المختلقة لا يفرون من الحياة ويعاصرونها ويبدعون الجمال بأفكارهم السليمة، أما أنا فأفر من الحياة، وأرى مع فراري من الحياة حتى جوانبها المضيئة معتمة، أحمل في رأسي كل تعب كوارث الحياة القديمة المرعبة والدامية الباقية بداخلي في حين تظلم الحياة القادمة في عينيَّ، سوف يستطيع رأسي الواهي المنهك الوصول إلى الحقيقة المجردة فقط وليس إلى الجميل في الذكريات لو أبقى هذا الحمل.

عشية اليوم ذاته كان كل الجند قد علموا بالسماح لي بالذهاب إلى بلدي، لم يفارقني المُلّا سيف الدين ولا أحمد أقين كانوا يرسلون بسلام طائلة لعائلتي، كان أقين يقول شبه مازحًا:

- «هل سترجع ثانية، صادق بك؟».

عاهدتهم أنني سأعود ولن أفارقهم، التزمتُ بوعدي هذا حتى أخذتني مارية من أمام دبابات الروس وذهبت بي إلى الإسطبل مجرورًا وضمدت جروحي.

كان العريف موهان ينتظرني خلف الباب، وظل يدعوني للضيافة

في غرفة العرفاء ويداه على صدره وفي عينيه نظرات الحنان الأكثر دفئًا في الدنيا، العرفاء المساكين! حييتموني وأيديكم على صدوركم، حتى وأنا أكتب هذه الأسطر أتخيل أيديهم تلك التي كسرت أعداءنا وقضت عليهم بعد شهرين وهكذا دامت.

قال موهان بنبرة حزينة ومرفقيه على ركبتيه ورأسه بين كفيه: «ليتني ألقى وطني أنا الآخر!» تحدث بها كأنه يريد التخلص من ألم قلقه، وكأنما مس صوته هذا جرح الآخرين فصدر أنينهم كأنه صدى لقوله: «آه ليتني ألقاه، آه ليتني ألقاه!».

الآن كلما أفكر في تلك الأيام الماضية أدرك أنه لو عبر هؤلاء الفتية حدود الدولة لقضوا من أجل الانتقام وفَنوا.

قُضي عليهم وأضحوا ترابًا بلا شاهد ولا كتابة ولا قبر بعيدًا عن الدولة.

كم قضيت أيامًا مثيرة! لم ترَ عيناي النوم، أمام عينيَّ على الدوام القرم وعائلتي، أشعل السيجارة تلو الأخرى، وأفكر باستمرار في دقائق اللقاء، كيف ستصبح؟ كيف سنلقى بعضنا؟ أشهد أمي حتى الصباح وأرى بكرًا وأبي... أقبل وجناتهم وأيديهم وأعيش لمدة معهم.

استيقظتُ هذا اليوم باكرًا، غدًا الإثنين، يليه الثلاثاء... أود لو يكون اليوم الثلاثاء!.. مرَّ عليَّ هذان اليومان الآخران طوالًا كأنهما أعوامًا؛ خرجتُ، المحيط ساكن للغاية، وبعد مطر البارحة كانت

تنبعث رائحة العشب الطازج والتراب النديّ، من بعيد كان ثمة أربعة جند يعودون من النوبة مع العريف موهان، عندما مروا من جانبي وحيوني حدثت موهان:

- «كم شخصًا يوجد في الخارج منَّا؟».

- «نحن الأخيرون، سيدي القائد، لا يوجد أحد آخر غيرنا».

توقف أمامي كأنما يريد أن يُحدثني أكثر:

- «أين وقفتَ؟».

- «على الأربعة أبواب، طفتُ المدينة مع الألمان».

- «إذن... كم ثملًا جلبتم؟».

ضحك:

- «اليوم الاثنين سيدي القائد، السكارى سيحضرهم المكلفون بالنوبة هذه الليلة».

- «هل أنت متعب؟».

- «قليلًا».

- «هيا اذهب ونَمْ... لا تُسَهِّر الجند للصباح أكثر... ها!».

ضحك بأسنانه اللامعة ثانية:

- «سننام ساعتين ثم سنذهب بعدها إذا سمحتَ للمدينة».

في هذه الأثناء خرج من الباب رئيس العرفاء نصر الله مع أحمد أقين، واقترب أقين مني ونظر في ساعته:

- «متى استيقظتَ، صادق بك؟».

- «لم استطع النوم... وكأن هناك أعوامًا عديدة تسبق الثلاثاء، ماذا ستفعل اليوم؟».

- «لم أفكر، بر– ر– ر... ألا تشعر بالبرد؟ لنخرج للتنزه لو أردت؛ لو لم تكن مشغولًا بعملٍ آخر؟»..

- «لست مشغولًا.. فليكن، ربما يأتي الثلاثاء بسرعة»؛ قلتها ثم تحدثت إلى موهان الواقف بجانب الرقيب:

- «موهان اذهب واحضر فرسي ومعه فرس أحمد بك أيضًا..».

- «تحت أمرك سيدي القائد»؛ قالها وجرى للإسطبل ثم أدار رأسه وهو يجري وأردف قائلًا:

- «يشعر فرسك «قاراجوز» بخروجه غالبًا، صهل خلفي منذ قليل حين مررت بجوار الإسطبل».

عندما دخلت مع أقين حجرتنا وخرجنا متوشحين حزامي الأسلحة كان موهان يركض تجاهنا بين فرسين أمسكهما من عنانيهما.

استفسر الرقيب نصر الله قادمًا إلى جواري:

- «أأسمح للجند بالخروج سيدي القائد؟».
- «لينظفوا أسلحتهم أولًا ثم يُؤذن لهم بالخروج بعد الظهر».
- «أمرك سيدي!»,
- «لكن ليعُد الجميع في التاسعة مساءً، تعالَ إليَّ في التاسعة تمامًا واعطني التمام».
- «تحت أمرك!».

أخذت «قاراجوز» من يد موهان، وربتُّ على عُرفه، كان الحيوان فرحًا فصهل وهز رأسه؛ أرشد موهان أقين حين مد إليه عنان الفرس الآخر ناظرًا إلى الفرس أولًا ثم إلى وجه أقين بغرور كأنما هو فقط من يفهم الفرس:

- «هذا الحيوان عنيد بعض الشيء، سيدي القائد... غير أن هذا ليس عيبًا في الحيوان وإنما في الألمان الذين يمطتونه، يجلسون على ظهر الحيوان كأنما يجلسون على دراجة، هو مهذب على الطريق، عنيد عند صعود التل؛ لا تهمزه كثيرًا لكن..».

مررت مع أحمد أقين جنبًا إلى جنب على فرسينا من بين أكواخ الجند وخرجنا إلى طريق وارسو، كان الوقت ما زال باكرًا والمحيط ساكنًا، ارتفعت الشمس القرمزية بكامل روعتها من وراء غابات الصنوبر على اليسار ونثرت أشعتها الضعيفة الواهنة بعض

الشيء على أسطح المنازل الخضلة التي على جانبي الطريق، تقدمنا تجاه وارسو مستمعين وسط السكون المحيط إلى طقطقة نعال حصانينا فحسب على الطريق الحجري، وعندما دنونا من مولدافيا[20] كانت الشمس قد علت السحب البيضاء وأخضعت كل الدنيا من الآفاق.

كنا على حافة قرية، وكان أقين خلفي بكثير، اقترب مني قبل أن نعبر القرية، ثم سأل وهو يشير إلى طريق ضيق عشبي يمكن لحصان واحد فقط التقدم فيه ويحتوي على منازل على هيئة قوس تفرق بين القرية التي أغلقت أبواب منازلها البعيدة بعضها عن بعض والأدغال قائلًا:

- «ألا توجد لديك خطة أخرى؟».

- «لا».

- «لنَسِرْ مع هذا الطريق إلى آخره، أظن أن هذا الطريق سيوصلنا إلى النهر».

اومأتُ برأسي ثم تقدمنا في الطريق الضيق أقين في الأمام وأنا في الخلف، كنت أتأمل المنازل، يالها من قرية ساكنة ونظيفة! فحتى الكلاب لم تكن تنبح، المنازل البيضاء ذات الأسطح القشية البعيدة عن بعضها كأنما تخاصم بعضها بعضًا وكل منها يدير

20 - مولدافيا (Yablona Veke) دولة أوربية ذات نظام جمهوري, تقع شرقي أوربا بين أوكرانيا ورومانيا.

ظهره للآخر كأنما تعاند الحياة بالسكون الأبدي، لمحتُ وتدًا في الطرف الأيسر للطريق الذي نسلكه، مررنا من جواره بصمتٍ كذلك وكان مثبتًا على طرفه بمسمار تمثال صغير لسيدنا عيسى أسفل طنف صفيح صدأ ثم ذهبنا، على بعد ثلاثمائة متر من الوتد كانت تقع كنيسة خشبية مديرة هي الأخرى ظهرها الذي اكفهَرَّ لأعوام من شمس الصيف الحارقة ومن برد الشتاء الحاد ورياحه وعواصفه أما أبوابها فمفتوحة على الغابة، نظرت إلى المنازل وإلى الكنيسة وفكرت في منازلنا، ربما أكون مخطئًا أو مصيبًا في مقارنتي هذه، لا أعلم، رأيتُ أن الفرق الوحيد بينهما هو الدين المسيحي والإسلامي، كنت حينها بكل كياني على أراضٍ أنجبتني وأطعمتني، ولوهلة اشتهى قلبي بشدة الحياة بين المنازل حول الجامع ذي المئذنة البيضاء في القرى الواقعة على طنوف الجبال، والحدائق الملتصقة ببعضها، والحيوانات التي تنبح وتصهل وتموء، وحشود البشر الصارخة والضاحكة.

تخطينا الكنيسة بينما أنا غارق في خيالي هذا، وأحسب أننا لم نكن لنتحدث سويًّا لوقت أطول لو لم نرَ طفلين حفاة الأقدام على حافة الجبل في طرف الطريق بعيدًا كثيرًا عن الكنيسة والمنازل، بمجرد أن رآنا الطفلان لاذا بالفرار وجريا إلى القرية هاتفين:

- «المغول! المغول!».

اتسع الطريق هَهُنا وفرغ لعربة سائرة إلى القرية، نظرت

للأطفال دون أن أنطق، فاقترب مني أقين بحصانه وقال:

- «أسمعتَ يا صادق بك؟ يطلقون علينا مغولًا!»؛ تَحدثُ بليةٌ مؤلمة بدت على طرف شفتيه.

- «نحن لا نعتبر المغول غرباء كثيرًا»، لم يرد أقين على هذا وسأل كي يطيل الحديث:

- «أأن تكون مغوليًّا عيبًا؟».

- «لا... غير أنهم لم يقولوا مغولًا حبًّا فيكم، ألم ترَ كيف فروا؟ الآن ستصيب كلمة المغول قلوب أولئك الأطفال بالهلع ككلمة الألمان»، لم أواصل حديثنا لأنه لم يتطرق لما أردت، بعد برهة سأل أقين مخففًا صوته الحاد نوعًا ما:

- «ليس عيبًا أن تكون مغوليًّا، لكن البولنديين رغم علمهم بأننا تركستانيان يطلقون علينا مغولًا، يقولون هذا لكي يظهروا عداوتهم لنا، لِمَ يقولون هذا؟».

- «ألا تعلم لِمَ؟.. أظن أنهم لم يكونوا لينظروا لنا كأعداء لهم في هذه الأزياء التي على أجسادنا لو كنا إيطاليين أو فرنسيين».

- «لِمَ؟ هل نحن جيش سيء السلوك؟».

- «لا، كيفما كنا مهذبين بأي قدر سينظرون إلينا بنظرة العدو ذاتها».

- «حقًّا؟».

تطرق حديثنا بعدها للنقطة التي أردتها؛ طالما تطلع الغرب إلى الشرق بنظرة العدو وهذه النظرة لن يغيرها قط، واليوم يتطلع بنظرة العدو، ولا سيَّما هذه الدولة!.. فلا زالوا هنا يذكرون حملات المغول التتاريين القدامى، في البداية سيطر مغول جنكيز خان ثم نحن تتار القرم على هذه الأراضي، واستولوا على قرى ومدن هذه الأرض لأعوام طوال، لو أعلم كم أسروا، ذهبوا بالأطفال والفتيات إلى الدول البعيدة وباعوهم.

بينما كنت أروي هذا لأقين وأتخيل القرية قبل عدة أشهر كانت تحضرني نظرات ذلك الطفل بين ذراعي والدته في الحجرة المظلمة والقروي الذي شجت رأسه، كان أقين يستمع لي بدقة وعيناه عليَّ، ثم قال ضاحكًا كأنما أدرك ضيقي:

- «هذا تاريخ قديم للغاية، صادق بك؛ تاريخ شديد القدم... نحن لم ندهس قراهم، ولم نأسر أبناءهم؛ أنت مخطئ في رأيي، أقليلٌ ما جنته أيدي جنودنا؟ أكثر قاطني أرض الفيلق يستلقون تحت بطاطين مسروقة من عنابر الألمان، انظر أسفل ثيابهم كلها خرق ألمانية، يبيعون ما لنا أو يخرجوه مجانًا، جندنا يأكل في مطاعم بلونيا بالخمسة أو العشرة قروش التي يحصلون عليها، انظر إلى العاهرات! كم يكسبن مالًا! يقلن إنها أعوام مباركة... لم يكُنَّ قد اكتسبن مالًا بهذا

القدر من قبل!».

- «أي أن جندنا كلهم لصوص، أليس كذلك؟».

- «الألمان -أيضًا- لصوص... ألا يقال على اللص الذي يسرق مال لص ويعطيه للفقراء لص أيضًا؟».

- «نظرت شبرًا من أعلى لوجه أقين».

- «انتبه لهذا يا أقين! واحتفظ بفلسفتك هذه لنفسك، أنا لا أريد كلام كهذا في السرية».

- «نعم سيدي».

لم يكن أقين ينظر لوجهي كأنه استاء مني أو ربما ظانًّا أنني استأتُ منه، كانت الكنيسة والمنازل تقع على أرض التلال الصفراء، وحدها بعض الأسطح الصفيحية البراقة تحت أشعة الشمس كانت تدل على معالم نادرة لحياة، وقبل أن نصل إلى أجمة(21) في الأمام على بعد مئتي متر في الطريق الذي نسلكه انتصب أقين فوق الحيوان ثم استلقى على عنق الفرس وضغط مهمازيه فجأة، فانطلق الحيوان سريعًا، وظل فرسي منتصبًا على قدميه الخلفيتين جراء جزيئات التراب التي ثارت من حُدوتي فرس أقين وطارت في وجهي، وعاد أقين ركضًا ثانية فور أن عثر على الأجمة.

21- أجمة: مكان كثير القصب.

- «وراء الأجمة نهر، صادق بك».

ولِجنا إلى الأجمة ورأسا فرسينا متجاورين بمرح حينًا وبتوتر حينًا آخر كأنهما على وشك خوض سباق، نظر أقين إلى وجهي، وضحك بفمه الواسع.

ضحكتُ أنا الآخر دون أن أفهم سبب فرحه هذا وسألته قائلًا: «تحدث لأرى، لِمَ تضحك؟» كنت أود أن أعرف ما سيقوله غير ذلك عن البولنديين، فقال: «هل تعرف يا صادق بك؟! لا ينظر جميع البولنديين إلينا نظرة العدو».

- «أجل، وماذا يعني هذا لي؟ ألم يبقَ لك هَمٌّ غير البولنديين؟».

- «لا، لا سيدي، كنت سأتحدث عن أمر آخر».

- «هيا تحدث لنرى».

اكتسى وجه أقين فجأة بالجدية، واستأنف حديثه مثل إنسان فكر بكل دقة قبل حديثه وحسم قراره:

- «تحدثتُ الأحد الماضي مع عجوز على المقهى، حدثني الرجل عن كتابٍ قديمٍ لا علم لي به خُطَّ قبل عدة قرون، أسمعتَ به؟».

قلت:

- «تحدث، هيا!».

- «كان نسر أسود في وسط أوربا فاتحًا جناحيه ورافعًا رأسه

ينظر إلى الغرب وإلى الشرق وإلى الشمال وإلى الجنوب بعد أن بعثر أعشاش كافة النسور دون أن يقطع بطيرانه إلى أي جهة، وفي النهاية كان سيطير إلى الشرق، وسيحكم أرض الشرق وسماءه حتى يصل إلى نهر واسع، لكنه بمجرد أن يجد النهر سيتحطم جناحاه ويعود بجانحين منكسرين إلى الغرب».

صمتَ أقين كأنما ينتظر تعليقي ونظر إلى وجهي:

- «إيهًا؟ وبعد؟».

- «تحدث العجوز عن النسر الأسود كثيرًا، فالنسر الأسود هو ألمانيا، والنهر الموجود في الشرق هو نهر إيدل[22]، يقول العجوز أن جناحي النسر الألماني ستتحطمان هناك».

- «وهل صدقتَ أنت -أيضًا- هذا، ها؟».

- «في هذه الدنيا... لا يمكن... مستحيل..».

- «يعني هذا أنه إذا تحطمتْ جناحي النسر في ذلك النهر وتقهقر للخلف لن يمكننا نحن أن ندخل تركستان؟».

أحنى أقين رأسه ولم ينبس بشفة للحظة ثم استدرك مرة أخرى ببطء:

22- نهر فولغا (İdil): أطول أنهار قارة آسيا وأوربا ويقع في الجزء الغربي الأوربي من روسيا واسمه قديمًا في اللغة التتارية إيدل.

- «لم يتحدث العجوز عن هذا، فسيعود النسر إلى الغرب وينهار وسط أوربا وتفيض روحه، وبعد وفاة النسر ستنقلب الدنيا رأسًا على عقب[23]، وفي نهاية هذا الأمر ستمحى أمم عدة من على سطح الأرض، لكن الشمس في الشرق لن تغيب أبدًا بسبب الهلال والنجمة، قرأ جمل الكتاب الختامية وأنهاه بعد أن أوضح معنى كل هذا».

- «ماذا قال؟».

- «قال سيظل التتار أوفياء لدينهم ووطنهم وسيسقي التتار الذين سيأتون ذات يوم أحصنتهم من نهر فيستولا مجددًا».

- «أنت تحكي هذا كأنما آمنتَ به، أقين!».

لم يرد أقين فأضفتُ:

- «بيد أن عجوزك لم يكن سيئًا، بل مجاملًا؛ تفاءل خيرًا لنهايتنا؛ لأنه لم يرد أن ينكأ جروحك».

لم نتحدث لا أنا ولا أحمد بينما كنا نخرج من الأجمة ونسير في مرج، المسكين أقين! في هذه الأيام لم يكن يشبه أقين القديم أبدًا أقين الذي تعرفت عليه في دورة الضباط، لم يدعنا نتفوه بكلمة عن البولنديين، كراهيته للزي على بدنه ولألمانيا التي احتلت بولندا بلغت حدًّا هائلًا حتى أن أفكاره الحماسية للاستقلال كادت

23- Dünyada bir büyük kıyamet daha kopacak: (سيحدث أمر جلل).

أن تخمد بجانب هذه الكراهية، لم أكن أعي هذا في تلك الأيام، بعد شهرين وقبل أن نتحرك لروسيا فتح قلبه لي، كان عاشقًا لفتاة بولندية، وكانت الفتاة كذلك تحبه بشدة، حتى أنها قبلت باعتناق الإسلام إن هو فرَّ من الجندية وتزوجها، أخذني قبل ركوب القطار وأتى بها، ظهرت فتاته تلك، كانت تنتظر متكأة على جدار أسفل طنف منزل على حافة السكة الحديد، كانت فتاة شقراء نحيفة في رداءٍ بالٍ متسخ ذات عينين زرقاوين وبيدها محرمة بيضاء لكنها كانت ساحرة.

كم من الدمع انهمر على وجنتيهما الشاحبتين الذابلتين وانسكب على الأرض ذلك المساء حين أمسك كل منهما بيدي الآخر وتطلع في وجهه! تحدث قلباهما بعبرات أعينهما الصامتة تلك بأمور ليست شجية ولا مؤلمة! افترقا، بعد ذلك قام أقين بدوره القديم الشهم بيننا لم يذكر الفتاة مرة أخرى، وكان يطلق النيران مع الجنود كالأسد.

ظننّا أن الفتاة البعيدة مُحيت من قلبه لكن من يستطيع أن يفهم قلب شاب شرقي؟ بعد عام كان أقين سيرجع أسيرًا للفتاة النحيفة ذات الرداء المتسخ مجددًا.

كان النهر أمامنا بكامل حُسنه يتدفق ماسًّا الشواطئ الخضراء، نظرتُ إلى النهر أولًا ثم إلى أقين:

- «اذهب ولنروي فرسينا قبل أن تنقلب الدنيا كما قال شيخك

هذا».

رفع رأسه وتطلع لوجهي بابتسامة على طرف شفتيه غير أنه تصرف بفتور مجددًا، سرنا كثيرًا في محاذاة النهر بعد أن سقينا فرسينا ثم وجهناهما إلى اليسار، توقفنا وراء الأدغال الكثيفة جدًّا والشائكة التي طوقت غابة الصنوبر كأنما تحميها وفتشنا عن طريق يدخل غابة الصنوبر، نظر أقين مرة إلى الأدغال ومرة أخرى إلى النهر.

قال: «إما أن نخترق الأدغال أو نغوص في الماء بعمق ثلاثمائة متر وسندخل غابة الصنوبر».

عدنا إلى النهر وولجنا الماء، كانت المياه ترتفع تدريجيًّا حتى مهاميزنا، وكان فرسانا يتقدمان ببطء وبأنين غريب ورأساهما فوق الماء بشِبر، ولِجنا غابة بارتفاع ثلاثة أمتار دون أي صعوبة تذكر وخرجنا بعد نصف ساعة من الغابة التي كانت تُضاء حينًا وتظلم حينًا آخر جراء أشعة الشمس التي تتوهج وتخفت فوق تلال غابة الصنوبر العالية، كان أمامنا بعد ذلك سهل رملي.

كنا نسير وفرسانا متجاورين أحمد في عالمه وأنا في عالمي.

آهٍ يا وطني الأخضر! ستطأ قدماي ترابك بعد يومين، وسأدفأ كياني بشمسك، وأقبل عيون النسوة والفتيات والأطفال الباكين

المنطلقين من منازلك وحقولك العاملين في مزارع الكولخوز[24] صباحًا مساء.

تذكرتُ بحس متمرد إيداع أبي السجن مساء ذلك الصيف حين أخذوا أبي ورحلوا به، بكينا جميعًا بصمت حول الموقد وبكر بين ذراعي أمي، في ذلك الوقت كنت طفلًا لا يعي ولم يرَ بعد الجانب السيء من الحياة، لكنَّ أبي العزيز الذابل النحيف في قميصه المؤلف من رقعٍ عديدة، ذا القفا المتغضن الذي تشققت كفاه من المِعول والذي يعيش لأجل أبنائه؛ هل أبي رجل سيء؟!.. لا تزال تلك الصورة الحزينة أمام عيناي:

الموقد الخامد والغلاية الباردة والخواب[25] الندية الباردة التي ملأتُها وأحضرتُها من عين محرم قبل قليل في الشرفة ونحن بين ذراعي أمي... نحن المتباكين في صمت عميق... أأبي الحبيب إنسان سيء؟ إلى أين رحلوا به؟ ولماذا؟ لِمَ؟.. جلسنا هكذا وبينما كنا ننظر إلى دموع عين أمنا دخل من الباب المفتوح أربعة جنود طوال سنجهم الحادة معلقة ببنادقهم، كان سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء -أيضًا- بين هؤلاء الجنود وفي يده موقد وحذاؤه حتى ركبتيه وشعراته السوداء الطويلة على جبهته وعيناه مشتعلة غضبًا، كانت كل القرية تخاف منه، مروا من جوار الجامع وبصقوا

24 - نظام الكولخوز: هو نظام يجعل كل الأراضي ملكًا للدولة ولا يحق لصاحبها بيعها أو تأجيرها.

25 - جمع خابية وهو إناء كبير من النحاس.

على جدرانه، في تلك الأثناء وجب بناء جسر للحي المقابل، صرخ أحدهم في العجائز ذوي الثمانين عامًا واللحى البيضاء في الساحة أمام الجمعية قائلًا كأنما لا يوجد حجر في القرية: «طالما لم يهدم هذا الجامع ولم يُبْنَ جسر من أحجاره محله لن يبقى تتري واحد».

فتح سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء أبواب الغرفة وأظهر للجنود عدة أشياء، كان يصرخ بالروسية، ولم نكن نفهمه أو نفهم الجنود، ثقب الجنود وسائدنا وألحفتنا وفرُشنا ببنادقهم ذات السنج وقذفوا صحوننا من الأرفف على الأرض وحطموا أكوابنا وفناجيننا بالركلات، كان الأطفال يتباكون مُنتحبين، غير أن أمي خلال تلك الدقائق حتى كانت صامتة تربت بيدها على رأسينا، أمسك سيد أحمد ابن أسماء بالخواب في الشرفة وقذفها لأسفل قبل أن يخرج الجنود، لم تفقد أمي رباطة جأشها مع ذلك ولم تتحرك حتى، لكن حال أمي هذه أثارت حنق سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء كثيرًا، فصرخ بلهجة ساحلية وهو يخرج من الباب:

- «أيتها المرأة البلهاء الصامتة!.. ماذا ستفعلين في كم الماء هذا! سترين غدًا أغلق أبواب الكولخوز! وتطعمين أولئك الجراء السَوسن!.. وآتي بابنك الكبير هذا إلى السجن!».

خرج فردَّدَتْ أمي بهدوء وبصوت مخنوق وهي تعتصر شفتيها المرتعشتان دون توقف:

- «الله موجود، سيد أحمد، الله موجود..»، وانساب دمع عينيها بغتة على وجنتيها الذابلتين.

أمي الحبيبة! أما زلتِ تعيشين مع تلك الذكريات المروعة؟ لكني حينما سأرجع إلى بولندا بعد أسبوعين ليتها تبكي وهي تعانقني وتقبل عينيَّ قائلة:

- «لا تذهب ولدي، لا تذهب... سيأتي الحُمر[26] ثانيةً ويعتقلون أباك»، ليتها طلبت مني المساعدة، وتوسلت قائلة لا تذهب لا تترك أمك التي شاب شعرها وتذهب؟

بينما كنت أسير مفكرًا في هذا وأقين إلى جواري أشار إلى مكان قائلًا بينما نبتعد عن القصب:

- «أرأيتَ تلك المنازل المقابلة، صادق بك؟».

أدرتُ رأس فرسي إلى أقين على حين غرة ودون أن أنظر إلى المنازل التي أشار إليها:

- «أقين، أقتلتَ أي إنسان طوال حياتك؟».

لم يُجب لكنه حدق في عينيَّ مستغربًا:

- «أنا أسألك هل قتلت أي إنسان؟ تحدث!».

أحنى رأسه أمامه وقال بروية:

---

26 - الشيوعيون (الجيش الأحمر).

- «قتلتُ، صادق بك، قتلتُ».

- «كيف يكون قتل الرجل؟».

- «لا أعلم كيف؟ هب أن هنا دغلًا وأنا داخل الأدغال ويعدو أمامي في اتجاهي مباشرة ثمانية أو عشرة أو عشرون جنديًّا... أطلقت عليهم النار برشاشي، اخترقت الرصاصات التي أطلقتها بطون بعضهم وسيقان وصدور بعضهم أو انحرفت إلى رؤوسهم، مات من أصيب في رأسه، وتأوه من أصيب في بطنه ممسكًا بجرحه وكذا من أصيب في ساقه..».

- «أنا أعلم هذا كله، لكن هل قبضتَ على إنسان من ياقته وسددت رصاصة بين حاجبيه قط؟ أنا أسأل عن هذا، إذا كنت قتلت إنسانًا كما ذكرت..».

- «ألا تخاف من عذابه؟».

فكرت وقلت:

- «بِمَ يشعر الإنسان؟».

- «لا أعلم، لم أقتل إنسانًا بهذا الشكل... لا أعلم... أو أنك؟».

- «سأقتل، كما حكيت..».

قاد أقين فرسه دون أن يتحدث أكثر، وتقدمنا في اتجاه ثلاثة منازل بيضاء مربعة كالأعشاش متباعدة كثيرًا بعضها عن بعض

في طرف الغابة المُكفهر، وقال أقين شاردًا كأنما يحدث نفسه:

- «علمني الناس الذين ينظرون للموت بلا خوف وبلا قلق الخوف».

شحب وجهه وهو ينطق بهذا وقال ناظرًا أمامه:

- «لم أقتل إنسان بيدي صادق بك، لكنني رأيت من قتل».

دار من المكان الذي كان يوجد فيه إلى طرف بعيدٍ عني وأكمل كلامه قائلًا:

- «رأيت في معسكر الأسر رقم خمسة... رأيت أسفل جدار البناية الحجرية القديمة وراء المعسكر، ذات صباح أخذ الألمان من كوخنا عشرة أسرى وجاؤوا بهم أسفل البناية... كنت أنا -أيضًا- ضمن العشرة أسرى، وعندما كنا نسأل إلى أين تذهبون بنا كانوا يقولون ضاحكين جئنا بكم إلى الخدمة، فكنا نفرح نحن أيضًا».

قطع أحمد كلامه هنا بغتة واستوى على سرجه، فسألته قائلًا:

- «إيهًا؟ وهل أتوا بكم إلى الخدمة؟».

- «إلى الخدمة... جاؤوا بنا أسفل البناية، كان هناك أربعون أسيرًا يستلقون أسفل الجدار، والأرض والجدران ملطخة بدمائهم، أمرونا بحفر حفرة واسعة وإلقاء الموتى في تلك الحفرة، ومنذ هذا اليوم بات الألمان يحضرون كل يوم إلى

خُصِّنا ويأخذوننا ثم يأتون بنا أسفل البناية ويجعلونا نحفر حفرة».

سألت أقين مستغربًا أتُراه رأى موتى أكثر مني فقلت:

- «كم ميت ألقيتم في الحفرة؟».

هز رأسه:

- «أهم موتى كُثر؟ من أين لي أن أعلم... من يعلم كم عدد الموتى؟ حتى الألمان لم يكونوا يعلموا، ثمانون.. مائة.. ما الفارق، لا أريد أن أحصي لك الموتى، الخونة الذين قتلوهم دون أن تطرف عيونهم..».

- «إيي؟».

كانت الشمس فوقنا تمامًا، وكان فرسانا المتعبان المرهقان يسيران في الرمال هازين رأسيهما، وأقين يحكي بروية حكايته كأنما ينكأ جرحه الذي يعتصر كيانه ويجتر آلامه في كل كلمة ينطق بها:

- «كان الألمان أحيانًا يقتربون من البناية قبل أن ينهوا أعمالهم، وأحيانًا أخرى كانوا يرقبون الموتى والذاهبين إلى الموت من بعيد، لم يكن الذاهبون إلى الموت يحدثون صوتًا، ربما كان أكثر ما يُخيف صمتهم هذا، قد تخافون أنتم أو لا تخافون... أنا كنت أخاف، كانت هناك قوة لا تهتز في صمت هؤلاء الرجال،

قوة ترتجف لها قلوب الخونة حتى... كنت أريد أن أطَّلع على أفئدة أولئك الظالمين، أتراهم كانوا يرتجفون وهم يقتلون؟».

أردت أنا الآخر معرفة هذا فسألته قائلًا:

- «ألم يرتجفوا؟».

- «كان ضمن الألمان قاتل مخيف اسمه هانس، وكنا نطلق عليه في المعسكر «هانس الدموي»، ولو أخطأ أحدنا حينًا وقال «هانس» يصرخ بغتة ويصحح له قائلًا: «هانس الدموي!»، كان يفخر بهذا الاسم، كان شخصًا قصير القامة ذا نظارة يسيل الدمع دون توقف من عينيه المريضة في البرد، وطالما أني لم أرَ هانس بأم عيناي يقتل نفسًا أو يعدمها لم أكن لأصدق هذا بتاتًا، كان أشبه بإنسان بريء ورحيم حتى، هل قلتُ أشبه؟ هذا غريب ولكنها الحقيقة: كان رحيمًا!.. كان يأتي دائمًا إلى المعسكر بزوج حذاء وقطعة ثياب، ويقف بعيدًا ويفحص كل الأسرى ثم يختار من بين الأسرى الضعفاء العراة أضعفهم ويعطيه الثوب؛ غير أنه ذات يوم رأيتُ هانس آخر، هانس مختلف تمامًا، لم أستطع رؤيته خارجًا من تلك الحفر بعد أن حل الظلام ولا سيَّما منذ ذلك اليوم، أرى هانس وكل الألمان أيديهم ملطخة بالدماء، آه، صادق بك! كان تصديق هذا صعبًا عليَّ حتى رأيتهم، أتصور كل هذا الآن كأنه حلم».

صمت أقين، وسرنا لمدة في سكون، لكني ما إن نظرت إلى

وجهه بعد برهة حتى أكمل كأنما ينتزع كستناءً[27] من نارٍ حامية بيده العارية:

- «كنا نُلقي الموتى في الحفرة... وكان الألمان في الخلف يشربون سيجارًا -يودي بهم- وجيء بشخصٍ مجرور إلى داخل البناية، شخص هزيل وضئيل للغاية، هو الآخر كان ضمن من سيُقتلون، هو -أيضًا- وجب قتله... أتخيل الرجل أمام ناظري الآن، كان يبكي بشكل هستيري كطفل فَقَدَ أمه، كم كان مخلوقًا يُرثى له!.. أي يد ترفع عليه وكيف تقتله يد إنسان! لكنهم قتلوه... قتله هانس أمام عينَي... لكن الرجل المسكين لم يبكِ في دقائقه الأخيرة، مسح دمع عينيه وبلَّلَ وجنتيه بكفيه المتسختين، ثم سار ببطء وجثا على حافة الحفرة، لكن هانس أمره قائلًا: «قف على قدمك!» كنتُ لا زلتُ لا أصدق أن هانس سيقتله، أخذ الثوب من على بدنه، وأمسك بيده اليسرى الأسير العار تمامًا من شعره حين كان يتهاوى مجددًا على حافة الحفرة وأدخل ماسورة مسدسه في فمه ثم أطلق النار، أتعلم كم استمر ألمه؟ لم يدم ألم هانس طويلًا، كان يقتل الرجل وهو عابس صامت، ضحك حتى عندما تفجرت الدماء القانية من فم الأسير على ساعديه الأملطين الأبيضين المشمرين حتى مرفقيه، ومسح يديه بالثوب الملقى جانب

---

27 - أبو فروة.

قدميه ثم أخرج علبة سجائر من جيبه وأشعل سيجارة وزجَّ بالثوب أسفل مقعد ضاحكًا ثانية ثم تحرك إلى المعسكر».

كان أقين سيروي حكايته ثم صمت، أما أنا فخلال الصمت لم أكن أفكر في سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء ولا في الأسير الذي مات ولا حتى في هانس، أردتُ لوهلة أن أرى أقين الحقيقي من خلف نظرات عينيه الفاترة، لكنني أتخيل أقين في تلك الدقائق كأنه شبح، أردت الغوص في فراغ يتجاهل الدنيا بأسرها ولا يستطيع أحد رؤيتي فيه... أردت الفناء.

لم يفطن أقين إلى مشاعري في تلك اللحظات، كان يعرفني باعتباري القائد فحسب، ربما كذلك رآني كقائد قاسٍ بقدر إمساك إنسان من ياقته وإطلاق رصاصة في فمه، من كنت حقيقةً؟ ما زلتُ أسأل نفسي هذا.

نظرت إلى الساعة حين أدار أقين رأسه عني وقلت ببطء:

- «الساعة الرابعة، لن نستطيع أن نوجد بهذا السير في الفيلق قبل المساء».

تبادلنا النظرات بصمت كأنما نريد الفرار من ذكرى الأسر المرعبة وضحكنا ثم قال أقين:

- «لننَزِّقَ الفرسين صادق بك؟».

- «لننَزِّقَهما»؛ قلتها وقدنا فرسينا جهة المنازل، وجدنا منازلها

في سكون عميق وأبوابها موصدة، الأعشاب النضرة النديّة في الأطراف وإطار العربة الصدئ والأسوار المحطمة والجدران المنهارة وسط الفناء كانت تَنُمُّ على أن المنازل خاوية منذ أمد، وقبل أن نتحرك إلى الطريق الذي يلِجُ إلى الغابة ذات الأشجار الشاهقة قال أقين لأجل أن يفتح الحديث مجددًا:

- «المنازل فارغة صادق بك!».
- «كل البلد فارغة... أين الناس؟».

أجاب على سؤالي ونحن ندخل الغابة:

- «فروا إلى الغابات، فقد أصبحت المنازل الآن أكثر خطرًا من الغابات..».
- «في الحقيقة، لم يتبقَ لنا وقتٌ للحديث بعد ذلك»، كانت الشمس تهبط رويدًا رويدًا وراء السحب ناصعة البياض الساكنة في الأفق الغربي وقد قامت بأكثر من نصف عملها وأوشكت على إنهائه.

كانت الحواف الصفراء والتلال القاحلة تصطلي بأشعة الشمس الأخيرة، والمزارع المكسوة بالعشب والغابة الكثيفة ذات الأشجار العالية والسماء التي بهت لونها فوقنا شيئًا فشيئًا تنتظر المساء بخمول، قُدنا فرسينا بقصد أن يوصلنا هذا الطريق الذي يدخل الغابة إلى أرض الفيلق، وكانت أصوات أقدام فرسينا فحسب

في هذا الطريق الممهد المستقيم الأشبه برواق ساكن في الغابة تتحدث مع صمت الأجواء بلا لغة وتناجيها بمشاعرها الخفية وأسرارها.

بعد ساعة تمامًا وجدنا خط سكة حديد وارسو- لجيونوفا فوجهنا فرسينا إلى اليسار وسرنا إلى حافة الطريق، كانت السماء فوقنا شبه مضيئة، وجذوع الأشجار المقطعة والنظيفة وحوافها الخضراء تغطي القطارات مثل بثور سمراء لأجل حمايتها من هجوم رجال العصابات، بعد قليل اشتبهنا في رؤية بيت من بين أشجار الغابة التي خفت، نظر أقين بدقة متمددًا على عنق حيوانه وقال:

- «لنخرج إلى الهواء الطلق صادق بك، فنحن قريبون من أرض الفيلق على الأغلب».

هز فرسانا ذوا الفاهين المزبدين رأسيهما كأنما يحسان بهذا، وأشعل كلٌّ منا سيجارة وقُدنا حيوانينا وسرنا تجاه المبنى الأبيض متجاوزين خط السكة الحديد، لا زال ذلك المبنى الأبيض ذو الطابقين في مقابلنا! وقد أحاط به الجدار الحجري، كانت القوارير الملونة وكِسرات الزجاج على الجدار تلمع تحت أشعة الشمس القابعة في الأفق الغربي كأنها مجوهرات نفيسة، كان البناء جميلًا ذا جدرانٍ مستوية رحبًا مثل قصور روما العتيقة، وأشجار السرو المدببة تقف أمام نوافذه كأنها حارسه الصامت،

وتتحدث باسم خُطَّ على البوابة الحديدية بحروف نحاسية كبيرة «كوربينسكي»، كنت أفكر في أنه اسم صاحب المنزل وتخيلته رجلًا أحمر في بُرنس حريري، متينًا مثل شجرة بلوط، بدينًا، قفاه عريض، ذا وجه قاس ونظرة عابسة جامدًا مثل الباب الحديدي، صامتًا مثل أشجار السرو تلك، ينسدل حاجباه الكثيفان على عينيه، وسلسلة ذهبية على صدريته وخواتم ذهبية وزمردية في أنامله البيضاء، البناية البيضاء جميلة لكني ابن فقير، أستأنس وأفضل أكثر المنازل الترابية ذات الحوائط المنخفضة.

نَمُرُّ الآن من أمام المنزل تمامًا، لم يفتح أقين فمه، كأن عينيه لا ترى شيئًا آخر غير قفا الفرس الذي يمتطيه، وظلام الليل ينسدل رويدًا رويدًا على الأراضي الصفراء الجدباء أمامنا، توقف أقين فجأة كأنما أحس بشيء فتفحص الأربعة جوانب وأنصت بدقة لِما حوله ككلب ذئب[28] ثم قفز بغتة من الفرس على الأرض، نزلت من فوق حصاني دون أن أفهم السبب وذهبت إلى جانب أقين.

- «ماذا هناك أقين؟ لم توقفت؟».

أنصت لما حوله ثانية مشيرًا إليَّ بالصمت وواضعًا أصبعه على شفتيه:

- «صوت ما... سمعت صوتًا، صوت امرأة..»، قالها بصوت هادئٍ

28 - هو حيوان هجين من كلب وذئب ويستخدم غالبًا ككلب حراسة.

للغاية ثم تطلع إلى الطابق العلوي في المبنى الذي تخطيناه منذ قليل، أنا لم أسمع أي صوت ولم أرَ أي شيء؛ لكن حين مررت من جوار أقين وامتطيت فرسي رنَّ صوت رقيق من بعيد في أذنيَّ.

يصدر الصوت من الطابق العلوي في البناية حقًّا، يتطلع الآن كلانا إليها، تركت فرسي لأقين وانطلقت مباشرة إلى البناية حين اشتبهت في رؤية ظل في النافذة وسمعت نفس الصوت ثانية، نظرت بعد أن عبرت البوابة الحديدية وممر الحديقة المصبوب بالحصى الذي يصل بين البوابة وباب المنزل ذي الأربع أو الخمس درجات الرخامية فإذا بالباب مفتوحًا كذلك.

كانت هناك غرفة واسعة في الطابق السفلي، وقد غُطي أثاثها بأغطية بيضاء، وفي اليسار درج مرمري آخر يصعد للطابق العلوي، وفي منعطف الدرج على الجدار صورة لأحد أجداد صاحب المنزل محارب من العصور الوسطى ربما هو ملك يحدجني بنظرات باردة وقاسية.

صعدت الدرج وعيناي على الصورة، وكلما صعدت أضحى تعبير الوجه في الصورة أشد قسوة ورعبًا، توقفت لوهلة أستمع ثانية لصوت المرأة التي صرخت توًّا وأرهفت أذنيَّ، صمت تام، لكن تناهى إليَّ من بعيد بكاءٌ من أحد الغرف في الأعلى، هناك شيء في هذا المنزل... اقتربتُ من باب الغرفة رويدًا رويدًا وأنصتُ،

سيدة باكية... فتحت باب الغرفة ودلفت للداخل، كانت سيدة أو فتاة بجانب النافذة شعرها أصفر كالحرير متناثر ومنسدل على ذراعيها حتى مرفقيها مستندة على الحائط ووجهها بين راحتيها تبكي بحرقة، سكتتْ فور دخولي الغرفة ورفعتْ رأسها ثم أرجعتْ بيديها شعرها إلى الوراء دون أن تنظر إليَّ فبان وجهها الرقيق الخائف، طالعتني بعينيها المتوهجة كجمرة وبوجهها الجميل وسط الخطر والأحجار، التفتتْ إلى النافذة دون أن تنظر لي، كنت في موقف حرج بعض الشيء كضيف بلا دعوة، لم تعرني السيدة أي انتباه، إلا أني لم أستطع الخروج من الحجرة لئلا تظنني شخصًا ذا مقصد سيء أو لص، سلمت وسرت قليلًا، عقدت السيدة عينيها على وجهي ببريق يشبه الوميض اللامع في عيني قطة فزعة في الظلام، فبدأتُ أرتجف تحت وطأة تلك النظرات مثل طفل، لم يكن ما يرجفني هو جمال ذلك الوجه، بل كان صغري الذي يرجفني وضآلتي رغم ضخامتي ومتانتي وخوفي من نفسي، تبدو ملامح الكراهية في وجه الفتاة، كنتُ أرى خوف ورعب عيني تلك الجميلة المنتصبتين عليَّ، وأشعر بالخطر على نفسي كإنسان مجهز ليُلقى إلى كلب ذئب، ألقيتُ تحيتي العسكرية مجددًا وسألتها بعد قليل بذوق الضباط الأبطال

في روايات تولستوي[29] قائلًا:

- «هل يمكنني تقديم المساعدة لكم؟».

لم يتبدل تعبير وجهها، ظلت تحدق في عينيَّ باستمرار كأنما تريد أن تخترق قلبي بلهيب عينيها، أوضحتُ أني قلقتُ عليها وسرتُ إلى الباب متحركًا ببطء كأنني أُحادث نفسي:

- «اعذريني، سمعت صوتكم وأتيتُ لهذا».

صرخت بالألمانية بصوت خافت كأنما تريد إفراغ كل الحقد بداخلها دفعة واحدة:

- «أنا لا أريد مساعدة منكم! وهل تُطلب المساعدة من اللصوص والقتلة؟ أنتم بهذا الزي لا لتسعون للمساعدة وإنما لتغدقوا الموت، سيُذكر ذلك الزي على ظهوركم بالكراهية التي لن تمحى من ذهن الإنسانية جمعاء ما دامت الدنيا، لا أرجو منك مساعدة فالمساعدة تُرجى من البشر، وهل لكم وجه تستطيعون أن تقولوا به إننا بشر؟ اخرج من منزلي؟ انصرف!.. أنتم... أنتم... سكارى بدم الناس! اغرب عن وجهي!».

29- تولوستوي (Tolstoy): هو الكونت ليف نيكولا يافيتش تولستوي (1828 - 1910) من عمالقة الروائيين الروس وأحد دعاة السلام والمفكرين الأخلاقيين والمصلحين الاجتماعيين، ترك دراسته الجامعية في قسم اللغات الشرقية وشرع في الكتابة ثم التحق بالجيش في حرب القفقاس. ومن أشهر أعماله رواية (الحرب والسلام) و(مملكة الرب داخلك) ويعتنق فيها أفكار المقاومة السلمية ومن أقواله: "الجميع يفكر في تغيير العالم ولكن لا يفكر في تغيير نفسه".

كانت عيناها لهيبًا مستعرًا، صرختْ حتى بُح صوتها، لم أنبس بشفة وتراجعتُ كأنما أصابني حجر حتى أنني لم أستطع أن أتزحزح من أمام الباب، كنت كسيحًا وجبانًا وأبكمَ.

لن أنسى أبدًا أن الفتاة حين كانت توبخني ظلت عيناها الاثنتان على زيي، ما لبث أن صرت بغتة في نظر تلك الفتاة بهذا الزي أنا الذي كابد مشاقًّا هينة حتى ذلك اليوم السفاح المخادع وسافك الدماء الأكثر وحشية وخسة في العالم.

لم أنبس بشفة، كانت المرة الأولى في حياتي التي أصمت تجاه صارخ فيَّ، كنت خائفًا، كانت الفتاة على وشك أن تبصق في وجهي ولم أجد بداخلي الجرأة لقول أني برئ حتى، خرجت من الحجرة، وهبطتُ الدرج قافزًا درجتين درجتين، كان ينجم داخلي سكون جراء تبلد إحساسي، أدركت هذا لاحقًا، ظللت أفكر في الفتاة التي عنفتني، ولم أكن أسمع شيئًا غير صوتها، وكأن حياتينا ارتبطتا معًا وترسخت داخلي، ولم أكن قد استعدت رباطة جأشي حتى عندما قرب إليَّ أقين فرسه من فرسي.

- «ماذا يوجد هناك، صادق بك؟».

- «فتاة... لا أعلم ماذا تريد؟».

- «أهو شيء حسن؟».

- «فتاة حمقاء... كانت تصرخ مثل المجنونة».

عجبًا فر مني الكلام ذلك الوقت فلم أنطق إلا بهذه الكلمات؟ قدنا فرسينا داخل السكون والظلام المتراخي على الأطراف، لكن الأمر لم ينته بهذا بل بدأ بعد ذلك حقيقةً.

رجعنا إلى أرض الفيلق، وسلمنا فرسينا للعريف موهان الذي كان ينتظرنا على البوابة ثم دخلت حجرتي مباشرة دون التحدث مع أحد.

كان بأعماقي ألم، أشعر الآن بوخز الكلمات التي خرجت من فم الفتاة، استلقيت على الفراش بزيي المترب على ظهري، وعندما ولج رئيس العرفاء نصر الله غرفتي في التاسعة تمامًا كنت لا أزال في السرير.

- «عاد كافة الجند إلا قيليشباي سيدي القائد، نحن ننتظر قيليشباي».

خرج رئيس العرفاء وبعد نصف ساعة أعلن ثانيةً عن عدم عودة قيليشباي حتى الآن، انتظرناه حتى منتصف الليل، وعندما أردت الإبلاغ عن أنه مفقود دخل رئيس العرفاء نصر الله إلى غرفتي بانفعال:

- «قيليشباي في الداخل، سيدي القائد، يقول كنتُ ثملًا... وضللتُ طريقي... لكنه لا يبدو ثملًا إلى هذه الدرجة، توسل إليَّ ألا أتحدث إلى القائد، سأفعل ما تأمرني به».

- «ائتني به فورًا».

بعد خمس دقائق كان ڤيليشباي يقف أمامي بصلفه أترب أغبر مغلقًا أزرار زيه عاري الرأس، مظهره كان مؤلمًا ومضحكًا أيضًا، كان يمسك بنطاله بيده اليسرى ويبتسم بين الفينة والأخرى مخفيًا عني وجهه، فقلت دون أن أرفع صوتي كثيرًا:

- «تحدث لأرى، ماذا فعلت؟ وأين كنت؟».. رفع رأسه وشجعه ليني فابتسم ابتسامة عريضة:

- «في المدينة سيدي القائد... تعرضت لاعتداء من الكفار، كانوا يريدون الثأر للروسي الميت، لكن أوَأنا ممن يخافون التهديد الفارغ؟».

كنت أتفرس في عيني ڤيليشباي بدقة وهو ينطق بهذه الكلمات، كان يكذب بلا ضجر.

- «لن تستطيع الخلاص بعقوبة تافهة هذه المرة يا عريف، حبس أسبوعين..»، ثم قلت ملتفتًا إلى رئيس العرفاء الواقف بجواري:

- «حظرتَ الذهاب إلى المدينة لشهر لأنك لم تخبر القائد على الفور»؛ تغير وجه ڤيليشباي بغتة أترى لأني أدركت كذبه؟!.. قال بصوت خافت محنيًا رأسه:

- «سأقول الصدق سيدي».

- «قل لنرى».
- «وهل سيظل العقاب نفسه لو حكيت كل شيء كما كان؟».

انفرج ثغري عن ابتسامة إلا أنني قلت قبل أن تظهر:

- «قل حقيقة الأمر أولًا لنرى».

شرع ڤيليشباي في التوضيح كالبلبل بتعبير سرور على وجهه:

- «بدأت الحكاية في المطعم المقابل للمحطة... لا يدخل من معنا إلى المطعم المغطاة نوافذه دائمًا بستائر صغيرة ونظيفة، لا يدخلون لأن هذا المطعم لا يقدم خمرًا، هو مكان مغلق صغير ونظيف كما ذكرت، يداوم فيه سادة ذوو أحذية نظيفة وخواتم ذهبية، كلما ذهبت بإذن إلى المدينة كنت استغرب هذا المطعم، فأنا إنسان فضولي دائمًا سيدي... إلا أن أفتح باب المطعم وأنظر للداخل، ما إن فتحت الباب حتى دق فوقي جرس معدني، رن ترრن ترრن ومع رنينه ظهرت من وراء ستار مشغول برسمة زهرة سيدة سمينة بوجه مستدير وشعر أسود لامع ممشط جيدًا نظيفة ذات رائحة الورد وقالت لي برقة: «لا يوجد خمر في المطعم»، وأنا يا سيدي حتى خلال الثمالة أكون لطيفًا مع اللطيف وفظًّا مع الفظ، ليكفر إن أراد فأنا سيد أيضًا، لم أنبس بشفة، حييت السيدة الرقيقة كأميرة ثم خرجت من المطعم ورحلت، لم أمر من هناك عندما ذهبت إلى المدينة اليوم، وذهبت مباشرة إلى الملهى،

احتسيت القليل من الخمر ثم خرجت، تجولت هنا وهناك ثم ذهبت إلى منزل البغايا خاصتنا، كان مزدحمًا ولزم الانتظار فترة، لم أرد الانتظار وخرجت، فإذا الظلام يوشك أن يحل، غير أنه ما زال الكثير من الوقت حتى التاسعة، سيدي أَمَرَ الرقيب بحتمية وجودنا في الفيلق في التاسعة بذهني؛ لكن لا زال الكثير على التاسعة، قلت لنفسي هيا لنمر على المطعم الصغير... لا تسأل بأي غرض!.. بلا غرض... ذهبت وفتحت الباب، دق الجرس فوقي وظهرت السيدة السمينة من خلف الستار، بيد أن وجهها هذا المساء لم يضحك أبدًا، كانت تخفي رأسها أحيانًا وراء الستار وتتحدث باللغة البولندية مع بضعة أشخاص خلف الستار ثم تعود وتنظر لي، بت هذا المساء في دهشة لِمَ أضحت المرأة بهذه الصورة ومع من تتحدث خلف الستار، فأنا إنسان فضولي هكذا على الدوام سيدي القائد، اقتربتُ من السيدة ففرَّتْ مني واختفت بغتة وراء الستار، غير أنها لم تكن قاسية كمظهرها، ظهرت بزجاجة خمر في يدها قبل أن أصل إلى الستار، ولان وجهها علاوة على هذا وقالت مادَّة زجاجة الخمر التي في يدها لي: «خذ!»».

«لم أرد أن آخذها، فباشرت جبري على أخذ ذلك الخمر، حاولت أن أعرض عليها المال، إلا أن السيدة أصرت على الرفض؛ قالت: «خذه، فنحن لا نبيعه»؛ وتابعت: «نحن نستخدمه كعلاج»؛ ثم استدركت: «ونقدمه أحيانًا لأصدقائنا وأنت -أيضًا- صديق،

خذه!»، ظلت هكذا تخاطبني بحلو الكلام تارة وتتحدث بلسان عذب تارة أخرى... في النهاية لم أستطع رده، شكرتها وأخذته، لم تكن الساعة قد تجاوزت بعد الثامنة والنصف، ماذا كنت سأفعل بزجاجة الخمر التي في يدي؟ لم يكن بإمكاني شربها بمفردي، لا بدَّ لي من رفيق بالتأكيد، قلت هلم ڤيليشباي بزجاجة الخمر هذه سر إلى بيت البغايا خاصتنا، كانت طوابير المنتظرين دورهم تأتي وتمر منذ زمن إلى هذا الوقت، والجيفة خاصتنا تستلقي الآن في الفراش منهكة مرهقة لتجلس أنت -أيضًا- إلى جوارها وتتجرع الخمر، ثم اتخذت قرارًا بأن أذهب إلى منزل المرأة الشقراء خاصتنا لئلا أتأخر».

«لم أكد أقرر هذا حتى فتح باب المطعم، وخرجت فتاة إلى الشارع، فتاة... لكن أيما فتاة!.. نظرتُ إلى الفتاة ونظرتْ لي، ضحِكتُ وضحِكَتْ، لست طفلًا تفوح من فمة رائحة الحليب كذلك... أنجزت العمل بسرعة، خلاصة الموضوع أن الفتاة كانت تريدني، والآن نسير الفتاة في الأمام وأنا في الخلف، لم تنظر الفتاة لي ولم تحدثني، لكن ألا أعرف فتيات بولندا البيضاوات؟ يوارون عفتهن تحت سكونهن حتى يصلن لمكان قفر... ثم... كيفما كان... سرنا..».

«مررنا بالمحطة وبالمبغى ثم خرجنا من المدينة... كانت الفتاة تدير رأسها بين الفينة والأخرى وتنظر لي، أدركت أن الفتاة

ترغب... أتينا إلى حافة القطار في الطرف الأيسر من الغابة، لا تزال الفتاة في المقدمة وأنا في الخلف ربما بعشر أو بخمس عشرة خطوة، سرنا هكذا لنصف ساعة، قلت هه، لن أتجول معكِ في الغابة حتى منتصف الليل بالتأكيد! لم يغب عن ذهني مطلقًا أمر الرقيب... شرعت الفتاة في العدو كأنما تفر مني، لم يكن في نيتي أن ألحق بالفتاة ضررًا، كنت أريد أن أفهم فقط، كنت سأرجع إن لم ترغب فيَّ، وفي النهاية اقتربنا من بيتٍ أبيض، كنت أتبع الفتاة بأمل أن تدعوني إلى بيتها، والعجيب أنها أرادت تحويلي عن باب البيت محدثةً ضجة عليه، قلت أيتها الفتاة تتوقعين حقًّا بعد أن أحضرتني إلى هنا أني سأعود الآن! ولجت إلى الداخل، كانت الفتاة تخاف مني... رغم أنه لم يكن في نيتي السوء مطلقًا!.. قفزتْ الفتاة السلالم وأنا في إثرها، قلتُ توقفي ولم تتوقف، دخلت الفتاة غرفة وأنا وراءها، شرعت في البكاء والتوسل كطفلة، وأنا لم أذهب بغرض سيء سيدي، هل تُدخلني الحجرة وأعود أدراجي بعدها؟ كانت تقول كلامًا بالبولندية ولم أستطع فهمها جيدًا لكنها كانت على الأغلب تعرض عليَّ مالًا، ما أفعل بمالها؟ كنت أرضى بمنحها مالًا لئلا تدعني، هي فتاة، فتاة جيدة، في النهاية أخرجت من جعبتها رزمة أموال وألقتها تحت قدماي، لكن الكثير من المال..».

«كانت تكرر: خذ خذ، واخرج من المنزل رجاءً! وأنا بشر يعرف ما هو الذوق، لم آخذ المال ولم أمس الفتاة، لم يكن أحد في

البيت، استعادت الفتاة أنفاسها شيئًا فشيئًا، وأدركت أني لم آتِ إلى هناك بغرض سيء، وتمنت عليَّ أن آخذ ما في جعبتها كله، بيد أنها لم تتوقف بأي حال ولم تكن تنظر لوجهي فقط كانت تصرخ كالمجانين، لوهلة لم أعرف ما حدث وكيف حدث فتحت فجأة النافذة وقالت:

- «انظر، يوجد هناك جنديان، وإن لم تخرج سأناديهما».

لم أصدق في البداية، ذهبتُ إلى النافذة ونظرتُ للخارج، فرأيتكم مع السيد أقين قائد السرية في الخارج..».

كان قيليشباي يحكي كل ما جرى بانفعال، وأنا كذلك كنت أنصت بفضول مبديًا عدم تمييزي لوقاحة هذا الوغد الجاهل.

- «وبعدها ماذا حدث؟».

انفرجت شفتا قيليشباي الباردتين القاسيتين ضاحكًا ببشاعة:

- «رأيتكم في الخارج».

- «ثم؟».

- «قلت أغوتني اللعوب، جرَّتني وأتت بي إلى هنا... قلت للفتاة الكافرة ليكتوي قلبك وأخذت المال ثم فررت، وبينما كنت أخرج من المنزل كنتم تدخلون من الباب الحديدي إلى الحديقة، اختبأتُ بين الأشجار، دخلتم إلى المنزل ثم خرجتم، وعدت أنا إلى لجيونوفا بعد أن امتطيتم مع أقين بك خيلكما».

تصاعدت بأعماقي لعنات مسائية على الفتاة مع صمت قيليشباي وندمت ألف مرة على دخولي غرفتها وعرضي المساعدة.

كان قيليشباي ينظر إلى وجهي راجيًا الرحمة، وكنت أفكر في الجزاء الذي أوقعه به، وعندما حكيت لأقين الذي دخل غرفتي بعد قليل ما جرى قال منحنيًا على أذني:

- «لنرسل هؤلاء الأوغاد إلى روسيا بعد عودتك من القرم، إذا ظلوا في هذه الدولة عدة أشهر زيادة سيجعلوا الدولة بأسرها أضحوكة يا صادق بك».

لم أستطع أن أعارض أفكار أحمد أقين كثيرًا، يُقال كلام سيء للغاية في القرى المحيطة بلجيونوفا، يغالي القرويون بشدة في أفعالنا السيئة، لكن هذه المغالاة لا تهون ذنوبنا.

تطلعتُ بصمت مع أحمد أقين إلى قيليشباي، وتمالك أقين نفسه بصعوبة في مواجهة أعمال العريف هذه وتحدث مجددًا بصوت طبيعي للغاية:

- «أي يا حَمَلي، ماذا فعلت بذلك المال، وضح لنا هذا أيضًا»؛ واستدرك مديرًا إليَّ عينيه اللامعتين:

- «لنعرف نهاية القصة».

صمت قيليشباي محنيًا رأسه على صدره ومعلقًا عينيه على طرف حذائه المتسخ، فتدخل في الكلام في هذه الأثناء رئيس

العرفاء نصر الله الواقف بجانبه:

- «يسأل قائدك... تحدث! ماذا فعلت بذلك المال؟».

- «تركته في منزل المرأة الشقراء خاصتنا».

- «ومن كانت تلك أيضًا؟».

- «المرأة الشقراء التي في غابة الصنوبر... تسأل كأنما لا تعرف سيدي الرقيب، كل الجنود يعرفون... وكذا الرقباء».

احمرَّ وجه الرقيب بشدة من الخجل ومن الغضب أيضًا، ولم ينبس بشفة.

نهض أقين بغتة على قدميه وجمد نظرته على عيني قيليشباي ثم قال:

- «عريفنا هذا سيلقن الجند الأدب، صادق بك».

قلت مبتسمًا لئلا أجرح أقين زيادة:

- «عريفك يا أقين».

أمر أقين قيليشباي ونظره لا زال على عينيه:

- «اذهب واحضر ذلك المال إلى هنا، سأريك إن لم تحضره..».

لم أكن أعلم بم سيجازي أقين قيليشباي لو لم يوجد المال لكني أدركت فورًا الألم الذي ألمَّ به، كنت أفكر في أن أقين قائد قيليشباي وليس هذا وقت مناصبة العداء بيننا، نهضت -أيضًا-

على قدمي:

- «سنذهب معًا جميعًا وسنجد هذه الأموال..».

كان أقين قد استأنف كلامه:

- «الأموال..».

إلا أن قيليشباي نطق بتردد ورأسه لا تزال على صدره:

- «لم أشرب سيدي القائد، أخذتها من بغية وأعطيتها للآخرين».

كنتُ وأقين ورئيس العرفاء وقيليشباي بعد ساعة أمام بيت السيدة الشقراء القابع في غابة الصنوبر، كان بيتًا خشبيًّا في طرف غابة الصنوبر يشبه القن أمامه متسخ كثيرًا.

كانت المرأة ذات الوجه المتجعد والساقين الهزيلتين المتقوستين قليلًا والقدمين العاريتين ذات القبقاب تعلق بطانية خيطية مشدودة بوتدين.

تركتْ عملها فور أن رأتنا، وصرخت مادَّة ذراعيها ومحركة يديها كأنها دِلاء حيوان:

- «أيا المغول السود، هلموا! أتظنون أنه ليس لنا عمل غير التَحَاب؟ السيدة نائمة... اذهبوا وتجولوا ثم عودوا بعد قليل».

وقفنا بعيدًا، واندفع قيليشباي إلى الأمام ثم دفع المرأة ودخل المنزل، سارت المرأة وراءه إلى البيت مطقطقة بالقبقاب الذي

في قدميها، أشعلنا سجائرنا خلال الصمت المطبق وانتظرنا، بعد خمسة دقائق صدرت صرخة حادة وطويلة، وكان أقين يريد دخول البيت فأمسكته من كتفه:

- «اصبر قليلًا يا أقين، فقيليشباي ليس إنسانًا سيئًا بقدر ما تظن».

اعتصر أقين شفتيه كأنما يريد أن يتمالك نفسه ثم ظهر قيليشباي في الردهة بعد قليل وبدت المرأة الشعثاء من ورائه، كان قيليشباي يجري إلينا والمرأة تصرخ بحدة من ورائه:

- «... رُباح[30] أسود! يرقص الحورا[31]فوقي طوال الليلة!.. لتنقلع عينيك!».

ثم رفعت يديها بعيدًا عنا:

- «ليبتليكم الله أيها المغول السود! لينزل بكم البلاء!».

سلم قيليشباي ما إن أتى إلى جوارنا الأموال إلى أقين ثم عدنا أدراجنا، وكال المرأتان اللتان بقيتا في الخلف لنا السباب كأنما داهمنا منزلهما وسلبنا أموالهما.

بعد برهة كان أقين سيذهب ويعطي الأموال لتلك الفتاة، أما

30- الرُباح (الزريقاء): هو حيوان ذو جسم رشيق سريع العدو له قدرة على التسلق وهو ليلي المعيشة موطنه البيئات الجبلية .

31- الحورا: رقصة شعبية تشبه الدبكة.

أنا فذهبت قبيل التاسعة إلى مقر القيادة، رأيت المقدم إرنيك، وعلمت أني سأذهب إلى وارسو بمفردي وسأقابل الجنود الذين سيَقبلون الأسرى في الحامية العسكرية، تحركت من هناك سريعًا إلى المحطة، وهنا كان ثمة فصل جديد في حياتي على وشك البدء صدفةً، كانت كل الطرق التي مررت بها وكل الناس الذين عرفتهم وتعرفت عليهم تظهر كأنما تنبعث من أعماقي، ظلت ذكراهم المؤلمة فحسب، وأريد الكتابة -وإن كانت موجعة- قبل أن يطفأ ألم رأسي المستمر ذكراي هذه، بالأحرى أنا أجبر نفسي على الكتابة.

كنت في عربة القطار الخاصة بالألمان فقط في تمام الساعة العاشرة، وحين تحرك القطار كنت في المقصورة بمفردي، لكن بعد دقيقتين أو ثلاث أدركت لأول مرة معنى كلمة الصدفة بالنسبة لي، الفتاة التي صبت عليَّ اللعنات في المنزل الأبيض مساء البارحة تدخل المقصورة بحقيبة في يدها؟! حدقنا في وجهي بعضنا، وعرفتني الفتاة على الفور غالبًا حيث امتزجت ابتسامة متوترة على وجهها مع تعبير ملتاع غير أنها لم تخرج من المقصورة، وجلست مقابلي واضعة حقيبتها بيننا.

بدا الفزع على وجهها الساخط بالبارحة، وكانت تنظر إليَّ تارة وإلى الخارج من النافذة تارة أخرى.

سألت نفسي سؤالين وحاولت الإجابة عليهما بنفسي، هذه الفتاة

التي سبت الألمان أمس وتتحرك بزي ألماني لم تسافر في قطار الألمان هذا الصباح؟ لم أستطع أن أجد جوابًا على أسئلتي ولذلك ازدادت دهشتي كليًّا، لم نتحدث غير أن علامات تمرد البارحة على وجه الفتاة تلاشت رويدًا رويدًا، كنا نتبادل النظرات بأعين تطلب العفو من جهة وتخاف طلبه أيضًا، نسيت فتاة البارحة شيئًا فشيئًا ونظرت إلى وجهها كأنما أنظر إلى وردة، ربما كانت وردة شائكة لكنني لا أرى أشواكها ولا أشعر بها، هي -أيضًا- كانت تتطلع إليَّ وعيناها الخضراوان مفعمة بالود كأنها تريد أن أنسى أو أتناسى ذكرى الأمس المؤلمة، لا أعلم كم بقينا صامتين لكن في داخلنا ظلت مشاعر النشوة كأنها أمواج هائجة تلطم شواطئ الساحل وتتفرق بددًا، صدر صوت في طرقة العربة في الخارج:

- «الهوية!».

شحبت الفتاة فجأة، ثم ألقت شعرها للخلف بواحدة من الحركات الأنثوية الغاية في الرقة وضحكت بأسنانها التي بدت ناصعة البياض بين شفتيها الحمراء ثم جلست إلى جواري، انتابتني الدهشة، وقبل أن يتبقى وقت لمعرفة سبب هذا وقف جنديان ألمانيان على باب المقصورة مع رقيب.

سأل الرقيب الألماني:

- «أوراق السيدة؟».

بادرتُه على الفور:

- «السيدة معي... هل لديكم اشتباه؟».

قطعتُ كلامه الذي استأنفه بقوله:

- «لا، سيدي الملازم لكن بعض البولنديين..».

- «السيدة معي».

وقع تأثير تصرفي هذا ونظراتي الحازمة على الرقيب كالصاعقة، فألقى تحية صارمة ثم انصرف، كانت الفتاة تنظر صامتة إلى حقيبتها ووجهها أحمر ورأسها مائلة إلى الأمام كأنما تفكر في أمر ما، وكانت مشاعري قد تبدلت ونفرتُ فجأة من الفتاة، وعندما نظرتُ لوجهها بعد هنيهة صرت كأنما أرى الألم السام في الحمرة التي كست وجهها منذ قليل، ومع أنه لم يكن يعنيني كثيرًا تغير وجهها هذا، بدأت أشك في التقائها بقيليشباي، ما كنت سأعقد الأمر أكثر، ماذا تعني لي مشاعر هذه الفتاة وحياتها؟ تذهب بعد ذلك للمكان الذي تريده وتعيش كما يتراءى لها! لم تكن لي ولست رجلها كذلك، وليس هناك سبب لتعظيم خطيئة قيليشباي مع فتاة غامضة وكتومة كهذه، أكان حقًا مخطئًا؟ كما جلست جانبي ربما مع قيليشباي كذلك...

كانت تنظر إليَّ بين الفينة والأخرى كأنما تدعوني إلى الحديث، وكنت أجلس صامتًا صارمًا، بعد قليل أخرجتُ علبتي من جيبي

وأشعلت سيجارة، ثم سألت الفتاة بنبرة عادية للغاية عندما تلاقت عيناي مع عينيها:

- «لِمَ تسافرين على مقصورة الألمان؟».

- «قطارات بولندا خطيرة للغاية هي الأخرى».

- «وهل تأمنيني؟».

ضحكت وهزت رأسها:

- «نعم، أوَ أخطأتُ؟».

سألتها بضحكة متوترة:

- «منذ متى؟».

لم تجب، سألتْ فقط ناظرة إلى عيني نظرة مفعمة بالدفء والعطف:

- «أكنتَ ستتصرف بنفس الشكل لو كان أحدًا آخر محلي؟».

- «أجل، وماذا كان بإمكاني أن أفعل غير هذا؟».

جال بخاطرى سؤال؛ فقلت:

- «أهكذا تصرفتي مع قيليشباي مساء أمس؟».

ردت ضاحكة:

- «أحتاج إلى مساعدتك حتى وارسو لو سمحت..».

- «فليكن، حتى وارسو فحسب، وفي محطة وارسو سأسلمك مع حقيبتك إلى الألمان..».

لكنها ظنت حسنًا أن كلامي هذا مزاحًا وأنني لن أفعل شيئًا كهذا.

نزلنا من القطار بعد نصف ساعة، كانت المحطة موحشة، بعض الجنود جالسون يدخنون السجائر وبعض المدنيين هنا وهناك يتحدثون بصوت خافت، خرجنا إلى ميدان المحطة، كنت سأركب الترام وأذهب إلى هوبتباهنوف[32]، فسألت الفتاة قبل أن تغادر إلى أي جهة ستذهب، وحين أمسكتُ بحقيبتها قائلًا إننا سنذهب إلى نفس الجهة تلفتت حولها فجأة كأنها قطة خائفة وحاولت أخذ حقيبتها من يدي.

- «شكرًا، أستطيع الذهاب بمفردي».

- «لستِ في حاجة لمساعدتي بعد الآن على أي حال، أليس كذلك؟».

- «أجل..».

لم يروقني جوابها هذا، كانت تخبرني أنها تقبل مساعدتي فقط حين تحتاج لها ليس بالكلام فحسب بل بوجهها وعينيها كذلك،

32 - هوبتباهنوف (Hauptbahnof): الاسم القديم لمدينة فرانكفورت في وسط غرب ألمانيا وتعني المحطة المركزية بالألمانية.

لم أفكر في سبب هذا، واتخذتُ قرارًا بحمل حقيبتها إلى الترام كيفما كان، سارت دون أن تعترض، وكنت أتبعها بشعور طفل يتيم يحمل علبة لأجل خمسة قروش أو كسرة خبز.

انحنت قبل أن يصل الترام وهمستْ بصوت كأنها تتوسل:

- «يجب أن نفترق هنا، من فضلك لا تتحدث معي في الترام بعد الآن، لا أريد أن أجرحك، رجاءً لا تفهمني خطأً... نحن بولنديون وعليك أن تتفهم مشاعرنا، عندنا..».

- «جُرم زيّي، أليس كذلك؟».

- «أجل، أجل».

بعثت هذه الفكرة -التي أبعدتني عنها- القوة في قلبي فلم أستاء أو لعلني لم أتضايق لأني لم أستوعب تمامًا هذه الفكرة في تلك الدقائق، كانت تلك الفتاة تقف أمامي مثل أُمَّة وأنا تتري، ستذهب إلى طريقها بعد ذلك وسأذهب إلى طريقي ولن تتلاقى طرقنا بعدها أبدًا، كنت واثقًا من هذا، لكن... ركبنا معًا الترام، لم تتحدث هي ولا أنا، كنت أرى جمال وجهها الآن ربما لأول مرة، كانت عيناها التي لم تلتفت إلى أي شخص أو شيء لامعة وساكنة مثل مياه بحر شديدة الزرقة في ضوء الشمس، ولا أعرف لِمَ ذكرني جسدها اليافع بشدة، الغض للغاية بشجرة رمان مترعرعة بمفردها على حافة مياه؛ بدأت أوراقها في الإصفرار وقت الخريف، قفازاها الجلديان الأسودان في يديها الممسكة

بماصة السيجارة والشال الحريري الخارج من معطفها الرقيق وسكون وجهها وعينيها مع حمرة وجنتيها جعلاني أشعر بحرارة امرأة داخل فتاة للمرة الأولى، لم أردها أن تنظر إليَّ في الترام بعد ذلك، ومع أفكاري بأني قد حللت محل قيليشباي اليوم كرهتها في نفسي.

أجل لم أكن أريدها تنظر لي، كنت أخبئ سلاحي عندما تنظر لي وأضعه ورائي خلسة كأني قاتل مجرم لئلا ترى مسدسي، لا أعلم أكنت أتبرأ قليلًا أمام الفتاة بأعمالي هذه؛ بيد أني بدأت أشعر لأول مرة داخلي وعلى جلدي بعذاب الخوف والرعب الذي يثيره الزي الموجود على ظهري في الدنيا، نعم كان هناك رعب يخلقه الزي الذي على ظهري، وكنت أبُث هذا الخوف في المكان الذي أذهب إليه، كنت أبعث بالزي والسلاح ذلك الذعر في الهواء من حولي وفوقي... وكنت أرتجف مساء أمس وأنا أرى مشهد انبعاث هذا الذعر في منزل هذه الفتاة، تلك الفتاة صامتة اليوم ورغم صمتها لا أعرف لِمَ بدأتُ أشعر بخوف غريب جراء صمتها.

بتُّ على الأغلب أتفهم أحمد أقين شيئًا فشيئًا، أكان أقين مثلي؟ لكنه أكثر حظًّا مني ربما، كان يحكي أما أنا فلا أستطيع.

انحرف الترام إلى شارع مزدحم، وكنت قد اتخذت قرارًا بأني سأنزل ما إن يتوقف الترام وسأرحل، ولن أبالي بعدها بالفتاة، كل شخص لديه حياته وعالمه، بعد قليل أنزل من الترام وأختلط

بالناس في الشوارع وأصبح واحدًا منهم.

تهادى الترام وهو يمر من أمام الكنيسة، وكانت هناك حشود هائلة في الشارع، ثم بدأ الناس يهرولون إلى أبواب الكنيسة والمحلات صارخين وأيديهم في الهواء، توقف القطار بغتة، وصرخ شخص في الخارج محركًا يديه تجاه نوافذ الترام:

- «الألمان!.. اهربوا! فروا!».

كان الكل يجري إلى الكنائس، وبدأت الشهقات والصرخات والتدافع في الترام مع صرخة الرجل، لم أكن أعي ما حولي، كنت أريد فقط النجاة بنفسي من بين حشد الناس المجنون هذا، وعلى درجات الترام تلاقت عيناي مجددًا مع الفتاة والحقيبة في يدها، كانت تلكما العينين ينبعث منهما الآن الحقد واللهب فحسب، حينئذٍ أدركت للمرة الأولى أنني لست من هذا الشعب، قلت أيًّا من كنت وأمسكت بحقيبة الفتاة، أضحت الفتاة في حال تشغلها عني وعن الحقيبة، امتزجنا بسيل من الناس وكان يعدو تجاه الكنيسة، صدر من خلفنا انفجاران «طراق طراق» قبل أن نصل للكنيسة، ثم مرة أخرى أو مرتين وبعدها شقَّت أصوات البنادق الرشاشة المستمرة الهواء المليء بالعويل والصراخ، وحملتنا والفتاة بجواري موجة من البشر تقتحم أبواب الكنيسة، وجدنا أنفسنا في الداخل بعد هنيهة، وكان الناس أسفل الومضات الزمردية للزجاج الملون فوقنا يدعون جاثيين على ركبهم ومحنيين رؤوسهم مثل

غابة مُشذبة، كان هناك كاهن يقف في المقدمة أسفل الأضواء الخافتة للشمع المشتعل في المحراب مديرًا ظهره للمبتهلين كأنه تمثال يحمل على عاتقيه كل صرخات وآنات الناس في العالم برمته، كنت أخبئ وجهي من الرسوم والأيقونات مخافة ارتكاب معصية لأنها كانت أول مرة أدخل فيها كنيسة في حياتي وادعو مغلقًا عينيَّ، ومثل طفل خائف قلت عدة مرات:

- «اللهم إني عبدك! اللهم إني عبدك..».

كنت أقف أسفل جدار، وأصوات البنادق الرشاشة التي استمرت في الخارج والابتهالات الهامسة العميقة الشجية للناس الموجودة في الكنيسة تملأ كياني بخوف مجهول، فبحثتُ فجأة عن وجه الفتاة تحت تأثير هذا الخوف ربما، كانت تبكي جاثية على ركبتيها ومقربة الصليب المعلق بسلسلة ذهبية رقيقة في عنقها إلى شفتيها، كان الصليب ما يفرقني تمامًا عنها، كانت قوة الصليب الباردة، أضحيت أرى الجدار المنيع بيننا بكامل ارتفاعه، فأمسكتُ حقيبتها واقتربتُ منها ببطء ثم تركتها إلى جوارها، كانت تبكي من أعماقها مسلمة كيانها بأسره وليس وجهها وعينيها فقط إلى الخالق، كانت هذه النهاية، خرجت دون أن أنظر لوجهها.

كانت الأجواء في الخارج على وشك السكون، الناس المذعورة تخرج ثانية من أبواب الكنائس والمحلات إلى الشوارع شيئًا

فشيئًا، ومع احتكاكي على الباب بامرأة قروية منهم ملفحة بشال أسود ذي شرابة على رأسها وبجوارها طفل صغير أمسكتُ مرفقها ورجوتها العفو، تطلعتْ السيدة بنظرات مذعورة إلى زيّي أولًا ثم إلى وجهي وصلبت مارة بيدها على رقبتها ثم صدرها ثم كتفيها وقالت مرتجفة:

- «الكنيسة لأجل الجميع ولدي، لأجل الجميع..».

كنت مثل السكران، وكان الناس يخرجون من فتحات الأبواب ومن الكنائس والمحلات إلى الشوارع الخاوية كالطيور الخارجة من أعشاشها بعد عاصفة، استأنفت الترامات المستقرة بصمت مثل توابيت ضخمة في الطرق الحركة شيئًا فشيئًا بعد قليل قارعة نواقيس عرباتها وأبواقها.

عادت الحياة لمجراها مجددًا واصطبغت بلونها القديم، وما من أحد يستطيع الفرار من هذه الحياة.

عندما أردت العبور إلى الرصيف المقابل رأيت قطرات دماء أمامي على الأرض، ورمالًا صفراء تناثرت حفنات حفنات في برك الدماء هنا وهناك، وباقة زهور حمراء وبيضاء أسفل الجدار المشتعل المكفهر للمنزل القابع في الاتجاه العكسي للشارع، وصلبان مدهونة بالأبيض منتصبة كأنها فراشات بين ثقوب الرصاص على الجدار؛ كانت تتحدث بوضوح وألم عن تاريخ مُخجل، أمسيت في زيي اللامع رجلًا جامدًا وكسيحًا وأبكمَ وأعمى

وفارغًا بلا أهمية، وددتُ أن أدير ظهري للعالم برمته وللحياة وأذهب إلى مكانٍ ناءٍ أبقى فيه وحدي لكني لم أذهب، لم أذهب.

كأنما للحياة ألف عين وتنصبها عليَّ، ويصب البشر والأراضي والسماوات لعناتهم عليَّ.

أنهيتُ عملي في هوبتباهنوف وعدتُ مساء نفس اليوم إلى أرض الفيلق، كان أقين قد ذهب بالأموال إلى منزل الفتاة ولم يستطع العثور عليها بطبيعة الحال، لم أحكِ لأحد أني ذهبت مع الفتاة إلى وارسو في نفس المقصورة ولا عمَّا رأيته في شوارع وارسو، أترى لأني لم أرد أن أعترف بظلم الألمان الذي شاهدته عجبًا؟! لا أعلم، لم أرد أن أذكر هذه الفتاة بأي صورة بتاتًا، كنت سأرحل في اليوم التالي، وكان أقين سيعثر على الفتاة بالتأكيد قبل عودتي من القرم ويسلمها الأموال، كان الأمر سينتهي هكذا، لكنه لم ينته، كان أطرف ما في هذه الذكرى المؤلمة هو ما علمته بعد سنة: أن حقيبة الفتاة التي كنت أحملها في القطار ثم في شوارع وارسو ذلك اليوم كانت تمتلئ بمنشورات دعاية سرية ضد ألمانيا.

(3)

غادر القطار محطة وارسو قبيل المساء، كأن هذه الرحلة قد فقدت أهميتها القديمة بالنسبة لي، كنت أفكر فيمن تركتهم خلفي أكثر من تفكيري في الدولة، لم تزل صرخات الهول للناس المتفرقة في شوارع وارسو وأصوات المبتهلين في الكنيسة تدوي في أذني، وعواصف الحرب والسفر تجر القطار الذي أركبه بعيدًا بعيدًا مثل سفينة بلا شراع.

ظل الجند المسلحون يدخلون إلى مقصورتي مرارًا كلما وقف القطار في المحطات المزدحمة، جند ذوو أزياء خضراء أسماؤهم مجهولة... كنت بينهم جنديًّا بلا اسم، وبلا قلب أيضًا!

أُصبح هكذا عندما ألتقي بالأشياء التي أريدها بشدة في الحياة، وعودتي لوطني أضحت كذلك، كنت على وشك ألا أفكر في القرم أبدًا.

ولج قطارنا أراضي أوكرانيا في الصباح الباكر؛ الأراضي التي هبت عليها عاصفة الحرب، المنازل التي مستها شفاه الشظايا المتوهجة خلال لهو المدافع، السهول التي حرثت بنعال الأحصنة وزناجير الدبابات، الحيوانات الناظرة بجفول والطرق المهجورة

كانت تترى وراء بعضها أمام عينيّ وتروي قصة معاناة طويلة؛ انتابني الخجل مثل طفل مذنب في أرجاء بردشيو[33] بينما كان معسكر الأسر وسط الصحراء المحاط بالأسلاك الشائكة من الأربعة جوانب يبتعد عن ناظري؛ يهود القرم في أضرحة كيروفوغراد[34]، الأجساد المسجاة في الساحة، الأشلاء المختلطة في حفر أومان[35]، الأسرى الذين كسر بعضهم عظام بعض، العثمانيون الأذربيجانيون، وقبيلة جودت، رفعوا رؤوسهم بغتة وكالوا لي اللعنات طويلًا مشيرين إلى زيّي.

حلت ليلة قاتمة ومرعبة في الخارج، وخِلت أن القطار سينقلني إلى أماكن تجعل هذه الليلة أكثر رعبًا، فأردت فجأة أن ألقي بنفسي من نافذة المقصورة وأتمدد على الأراضي السمراء التي تكتم معاناة القرون بسكون وأمسي أنا ذاتي حفنة تراب.

شعرت داخلي بعذاب الزي الكائن على ظهري، كنت بهذا الزي تلك الليلة كأني أحمل أسى العالم برمته إلى وطني حتى وصلت

33- بيرديتشيف(Berdiçev) :هي مدينة في محافظة جيتومير في أوكرانيا.

34- كيروفوغراد(Kivograt): هي مقاطعة في وسط أوكرانيا، والمركز الإداري لها هو مدينة كيروفوغراد، ويحدها شمالًا كل من تشيركاسي وبولتافا، وجنوباميكولايف، وشرقًا دنيبروبتروفسك، كما يحدها غربًا كل من أوديسا وفينيتسا.

35- أُومان(Uman) : هي مدينة أوكرانية، يقع مركز منطقة أومان في محافظة تشيركاسي في وسط أوكرانيا، إلى الشرق من فينيتسا في أوكرانيا، وتقع أومان على ضفاف نهر أومانكا.

إلى دنيبروبتروفسك[36].

وصلنا في الصباح الباكر إلى دنيبروبتروفسك، ركبت منها قطارًا آخر وكنا سنتحرك إلى ميليتوبول[37]، بقينا ساعتين في المحطة، وفي ساحة المحطة كان ينتظر عدة عربات بخيول هزيلة، ونسوة مكتنزات ذوات وجنات حمراء ومعاطف سميكة، ورجال طوال القامة ذوو ملابس ممزقة؛ كافة الناس الذين ملؤوا المحطة والساحة لم يكونوا في الدنيا ولم تبدُ لهم صلة بالموتى، كنت أتطلع لهولاء الناس وأفكر أنهم أُمتي ومن دمي، هذا الشعب المبتهج الذي يتجرع الآن قناني الجعة الواحدة تلو الأخرى وراء المراحيض النجسة التي لا يمكن دخولها هو نفسه الشعب الذي مشي طويلًا لأجل كسرة الخبز حافي القدم بغرارة على ظهره في الطرق الموحلة من قرية إلى قرية حتى قرى القرم الساحلية تحت هراوة نيكولا[38].

36- دنيبرو (Dnypropetrovsk): هي ثالث أكبر مدن أوكرانيا وأجملها يبلغ عدد سكانها 2.5 مليون نسمة وهي عاصمة الإقليم الذي يحمل اسمها والمركز الثقافي والإداري الأكبر للمنطقة الجنوبية الوسطى من البلاد؛ يعتمد اقتصاد المدينة على الصناعة وكانت إبان فترة انضمام أوكرانيا للاتحاد السوفيتي واحدة من أهم المدن السوفيتية في صناعات الفضاء والأسلحة. يعتمد نظام النقل بالمدينة على مترو دنبروبتروفسك الذي يتكون من خط واحد للمترو يشمل ست محطات رئيسة والمدينة تطل على نهر الدنبير. أُسست المدينة عام 1776.

37- ميليتوبول (Meltopol):هي مدينة تقع جنوب أوكرانيا تقوم بها صناعات الآلات الثقيلة والمنتجات الغذائية. استردت من الألمان بعد معركة دامية عام 1943م.

38- نيكولا قديمًا أو بلغراد (Nikola): هي عاصمة صربيا وأكبر مدنها على الإطلاق. تقع المدينة عند نقطة التقاء نهري الساڤا والدانوب. حيث يلتقي السهل الپانوني لأوربا الوسطى بشبه جزيرة البلقان وهي إحدى أكبر المدن في جنوب شرق أوربا.

أجل، قضت أوكرانيا أيامًا أليمة، من جهة جيوش البلشفيك[39] التي اجتاحت واضطهدت المدن والقرى بينما تنسحب تجاه الشرق ومن جهة أخرى البتروييين[40]، والبندريين[41] والماخنويين[42]الذين اضطهدوا مواطنيها يدًا بيد مع رجال

39- البلشفية أو البلاشفة أو البلشفيك (Bolşevik): التي تعني الكثرة أو الأكثرية وقد أطلقت جماعة الجناح اليساري من أنصار لينين، في حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي هذا التعبير على نفسها عام 1903، وكانوا يشكلون الأكثرية في الحزب، بينما سمي البقية بالمونشفيك (أي الأقلية)، وكانت الأكثرية تسعى للحل الثوري بينما الأقلية تسعى للتغيير السلمي، إلى جانب هذا كون البلاشفة جيش يسمى بالجيش الأحمر الذي خاض حروب أهلية مع الجيش الأبيض وهذا الأخير الذي كان مدعمًا من الغرب (بريطانيا - فرنسا) وكانت الغلبة للبلاشفة حينها سيطر على الحكم في روسيا في ظل الحكم الاشتراكي وقد ظلت تلك الجماعة تعرف بهذا الاسم حتى بعد نجاح ثورة أكتوبر عام 1917 التي عرفت باسم الثورة البلشفية.

40- البتروييين (Petlüracılar): ينسبون لـ سيمون فاسيليوفيتش بتليورا (1879 - 1925) وهو ناشر وكاتب وصحفي وسياسي ورجل دولة وزعيم قومي أوكراني قاد النضال الأوكراني للحصول على الاستقلال بعد ثورة روسيا عام 1917، وقد تولى منصب رئيس أوكرانيا خلال فترة الاستقلال ما بين عامي 1918 - 1920.

41- البندريين (Banderacılar) : ينسبون لـ ستيبان بانديرا (1909 - 1959) وهو سياسي أوكراني وقائد من قواد الحركة الوطنية في أوكرانيا، وكان زعيماً لمنظمة القوميين الأوكرانيين.

42- الماخنوية أو المخنوية (اللا سلطوية)(Mahnolar): تعود إلى نظريات اقتصادية وسياسية مختلفة من قبل القائد الثوري اللاسلطوي نستور مخنو؛ الماخنوية قامت على أفكار بيتر كروبوتكين، والتي اعتبرت الأسس الفلسفية للشيوعية اللاسلطوية، في بداية العام 1918، الحكومة البلشفية الجديدة في روسيا وقعت معاهدة بريست-ليتوفسك معلنة السلام مع السلطات المركزية، متخلية عن أقاليم واسعة لصالحهم، من بينها أوكرانيا؛ الشعب الأوكراني رفض حكم السلطات المركزية وقام بالثورة؛ تشكلت وحدات الفلاحين التي شنت حرب العصابات في وجه الألمان والنمساويين، القتال تحول إلى ثورة لاسلطوية، نستور ماخنو كان من أول المنظمين لمجموعات الفلاحين، التي توحدت لتشكل الجيش الثوري المتمرد الأوكراني، كذلك سمي الجيش الأسود أو الماخنويين، الجيش الأسود قاتل أيضا محاربا القوات البيضاء ومنظمي المذابح المعادية للسامية، في المناطق حيث قاتل الجيش الأسود، العمال والفلاحين أسقطوا الرأسمالية والسلطة ونظموا أنفسهم عبر الجمعيات والكومونات والمجالس القروية، الأرض والمصانع صودرت وخضعت للإدارة الذاتية العمالية، اقتصاد الماخنويين في أوكرانيا قام على التبادل الحر بين المجتمعات المدنية والقروية.

الصاعقة الألمان وعلقوهم على مصابيح الشوارع وسواري التلغراف والذين اجتمعوا تحت رايات لا أعلم ما ألوانها، ولا أعلم من هم، كانوا جميعًا يقولون أنهم يَقتِلون لأجل استقلال أوكرانيا (أجل يَقتِلون). في أي عصور التاريخ عاشت هذه الأمة العظيمة والثرية حرة؟ وكيف ستحيا إذا حازت استقلالها ذات يوم؟ ماذا ستصبح هذه الأمة؟ حمدًا لله أنَّا عشنا أحرارًا! إذا تخلص بعض مواطنينا في القرم من المعاناة ونالوا استقلالهم ذات يوم فلن يصبح هذا الاستقلال شيئًا جديدًا علينا فنحن عشنا أحرارًا! نحن نظفنا هذه الأرض من الأحجار والأشواك بأيدينا وجعلناها جنة مضيئة ببساتينها وحدائقها وأسوارها وقصورها الذهبية، يؤمن التاريخ بهذا ولا ينساه الأوكرانيون هم -أيضًا- يعلمون هذا جيدًا، فابن التتار باستطاعته حَذو حُذو الأوكرانيين في الإمساك بالمحراث والمعول مثلما كان في استخدامه السلاح، حتى قُطّاع الطرق الأوكرانيون الثملى الذين يؤمنون بأن استقلال أوكرانيا هو استقلال حقيقي يعلمون هذا، وعلى الرغم من علمهم بهذا كانوا يلحقون أراضي القرم بأوكرانيا وهم يرسمون خريطة أوكرانيا أثناء احتراق الدولة والشعب ينزف دمًا وكأن الاستقلال ينال برسم الخريطة فحسب.

صمتُ التتار يؤلم كحقدهم، تأملتُ ذلك اليوم في الناس الموجودين في المحطة والساحة صامتًا.

أقلعنا بعد ساعتين من دنيبروبتروفسك ووصلنا إلى ميليتوبول في منتصف الليل، كان أغلب الألمان المسافرين معي على القطار ذاهبين إلى القرم.

عاملني ضابط شاب من بين الجند الموجودين في الحراسة أمام المحطة معاملة خاصة لكوني ضابطًا، فأوصلني إلى مبنى قريب من المحطة ودلني على فراش في غرفة واسعة، ثم خرج بعد أن أخبرني أن القطار الذاهب إلى القرم سينطلق في الثامنة، بعدها دلف عدة جنود آخرين إلى الغرفة ثم استلقوا بصمت على فرشهم وغلبهم النعاس، لم أستطع النوم بأي حال، لم يفارق وجه أمي عينيَّ المغلقة، كنت أذكر سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء شيئًا ما، ماذا كنت سأفعل حين أقابله؟ ينتابتي بغضٌ كلما فكرت فيه، ثم أسلّي عن نفسي بقول ربما لم يبقَ في القرية بعدها ربما فر مع البلشفيك؛ أو بمحاولة التفكير في الأشياء الجميلة فقط وأتخيل أني أتجول مع بكير في حدائق وبساتين القرية، نمت متأخرًا وحين استيقظت كانت الشمس ساطعة، وكان الضباط الآخرون قد خرجوا من الغرفة، نظرت في ساعتي فإذا هي السابعة، فُتح باب الغرفة عندما كنتُ على وشك النهوض من فراشي ودلفت فتاتان إلى الداخل، فتاتان أوكرانيتان بفستانين قصيرين وأرجل -بلا جوارب- زرقاء من البرد وشعر قصير ووجنات مكتنزة وعيون خضراء، وقفتا تحت ضوء الشمس الأحمر وفي يد إحداهما مكنسة وفي يد الأخرى دلو مليء بالفحم، نظرا أولًا لي ثم إلى وجهَي بعضهما، وقالت إحداهما بصوت منخفض: «يوجد ضابط آخر في الداخل»؛ أغلقت عينيَّ بهدوء وأنصتُ.

- «لا أستطيع كنس الغرفة والضابط في الداخل».

- «إذًا انتظري قليلًا لأشعل المدفأة ونخرج سويًّا، ثم نأتي مجددًا ونكنس الغرفة».

- «لا يمكنني الوقوف دون عمل... لأخرج أنا».

- «قلت انتظري قليلًا. سنخرج معًا».

- «لو جاء الألمان ورأوني بلا عمل..».

- «لا تخافي.. ها أنذا انتهيت».

- «ستحطمي تلك الأسرّة، ببطء قليلًا! ستوقظي الضابط».

- «أرأيت وجهه؟ كم هو جميل!».

- «ما أجمله!».

- «لو طلب معاشرتك أتوافقين؟».

- «امممم!».

- «لو قلت يستحيل لن أصدق».

- «هو ألماني».

- «ولو ألماني، أبَقِيَ رجل شاب في القرى! عندما أمسك العجوز ذو اللحية بيدي دار رأسي... انظري إلى وجهه!».

- «لا يشبه الألمان مطلقًا».

- «إنه أسمر..».

- «مثلنا».

- «آه، لو يرجع أحد منَّا..».

- «أوتحسبين أنهم سيرجعوا سالمين، بعضهم بلا قدمٍ وبعضهم بلا ذراع..».

- «أيًّا تكن إصابته ليكن بلا ذراع، سأعمل بنفسي واعتني به، وليقم بعمله في الفراش..».

- «من كانوا في عمر الثانية والثالثة عشر سيبلغون ويصيرون رجالًا حتى عودتهم».

- «ولكن حتى ذلك الوقت نكون بلغنا الأربعين».

- «قد تبدأ حياة المرأة بعد الأربعين..».

- «تحدثي بهدوء ستوقظي الضابط..».

- «ها أنا أنهيت عملي».

- «لنخرج بسرعة، فلو أتى الألمان ورأوني دون عمل..».

- «هيا اخرجي! وانظري لوجهه قبل أن تخرجي فربما يأتيكِ اليوم في الحلم..».

- «وجهه جميل الآن لكنه حين يرتدي زيه سيصبح ظالمًا».

- «أنا -أيضًا- لا أحب زيه».

خرجوا، عقدوا زيي القابع بجانب الفراش فوق المقعد بسكون الغرفة وأوجعوني ثم خرجوا، وظلت المدفأة الأنبوبية تتقد بهدير.

بعدها بقليل كنت أتأمل المدفأة وأفكر في الفتاتين ناسيًا كل شيء، الفتاتان الأوكرانيتان! كم كانت حياته الحقيقية نسبية في عيون هاتين الفتاتين الخضراء، كم تمنيت الموت حين كنت أفتش عن صديق في حفر الموت والأكواخ، أو في زاوية كوخ بعد ما أبرحني الأوغاد الظالمون ضربًا، أو بين المرضى؟! يا لما مضى، كنت أتخيل قُرانا ومآذننا الحبيبة من وراء حاجز ضبابي بينما أسير للموت؟! يا للأيام التي كنت أقفز فيها من فوق أجساد الناس الزرقاء وأفتش عن مواطنينا في ساحات الموت والأسى؟!

ها هو القطار سيدخل تحت سماء وطني بعد ساعة أو اثنتين، وسأطأ أراضي الأجداد وأسير عليها، أراضينا وقرانا ومآذننا وأُمتي... اقتربتُ كثيرًا منهم، من أجلهم عشتُ أيامي حالكة السواد، بحثت عنهم، وبكيت لأجلهم، والآن من أنا بهذا الزي؟ تغيرتِ الحياة في عيني بينما كنتُ أسير إليهم جميعًا، ابتعدت عن الحياة التي عرفتها وتمنيتها، كياني الآن خاوٍ أسير إلى الأشياء التي رغبت فيها بشدة كأني أسير بجوار ميت.

ارتديت زيي وخرجت من غرفتي، كان القطار مكدسًا بالجنود، كلهم مثلي بزي وسلاح، رنت الصافرة وأنا أنظر إلى جدران ميليتوبول من نافذة المقصورة، أسكَتُ قلبي وتعهدت لنفسي بألا

أبكي مهما رأيتُ من حالة أُمتي بعد عدة ساعات، وأن أكون رجلًا، وتتاريًّا من التتار القدامى الأعزاء الشجعان.

ظهرت أرض وطني لما مر القطار من فوق مياه سيواس[43] التي لمعت ببريق أسفل أشعة الشمس التي تسللت حديثًا من بين السحب كأم غريبة عني وأبكتني كطفل يتيم.

وقفت عند نافذة المقصورة وأدرت ظهري للحرب برمتها ولكل الدنيا وعشت ألف عام في لحظة، آه ليت المحاربون النائمون بصمت في هذه الوديان القفرة ينهضون ويتطلعون معي إلى هذا الوطن!

سهوب نوجاي![44] لتسمعي أصوات الأمهات المساكين الذين أخذوا حفنات من التراب ونزلوا إلى الشواطئ مقبلينها بشفاههم المرتعشة، وأصوات الآباء الذين طردوا من أرضهم ووطنهم منذ مائة وسبعين عامًا تقول:» تروي وأبكي» أنتِ موجودة في صوت هؤلاء، الأرض! هم لم يتركوكِ ولم يفروا منكِ، ارتبطوا بالله وبكِ بكل كيانهم وأرادوا أن يحيوا لأجلكما فحسب، وما استطاعوا الحياة، لم يُسمح لهم بالحياة... تبدو هناك منازل قرية ذات أسطح ترابية، وفي أعلى مكان في القرية كنيسة تحجب ضوء الشمس... ويسير تجاه صغارنا المرتجفين الخائفين المختبئين

43- نهر سيواس (كيزيليرماك اليوم)(Sivas) : هي أطول مجرى نهري ينبع من تركيا ويصب في البحر الأسود طوله 1,355 كيلومتر.

44- سهوب نوجاي (Nogay bozkırları): هي سهوب تقع جنوب أوكرانيا.

بين أذرع أمهاتنا قسٌ بلحية سوداء خرج منها مادًّا صليبًا في يده إلى الأمام، ثمة قازاقيون ثملة يقطعون اللغة التتارية كلما اقتضى الأمر لمن لا يتحدثون الروسية، ويجرون هؤلاء جالدينهم بالسياط وقائلين لا فائدة من المرأة التي تخجل من النظر إلى رجل يقابلها ولو ظلت هنا ربما تضر، وفي الخلف قوة درك تقلب بيوتنا رأسًا على عقب.

ينزعون الحزام الذي تخبأه الأم لابنتها والذهب من الطربوش والقطع المعدنية ويحملونها، كانوا سيشيدون كنيسة يالطا(45)، وسيحيطون كنيسة سيمفروبول(46) بسور! فبعرق التتار ودمهم سيدرس أطفال الروس الشرفاء! فالنشالنيك(47) الوحشيون الثملة الذين تقتر عيونهم دمًا طردوا القروي الذي انحنى ظهره من حرث الأرض لأعوام من أرضه وبيته ضاربين خصره بالسوط وكعب البندقية وباصقين على وجهه، واستولوا على قطعان الماشية والجمال، ما حاجة التتار إلى المال؟ إذا كان التتار في

45- يالطا (Yalta): من المدن الساحلية السياحية الجميلة الهامة في شبه جزيرة القرم، تقع أقصى جنوب أوكرانيا وعلى الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم، وهي جمهورية ذات حكم ذاتي ضمن جمهورية أوكرانيا؛ وسكانها 2,5 مليون نسمة، ويشكل الروس حوالي 50 % منهم، والأوكران 30 %، والباقي من التتار المسلمين، وأهم مدنها هي العاصمة سيمفروبل، وقد عقد فيها مؤتمر يالطا بين قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية في فبراير 1945.

46- سيمفروبل (بالأوكرانية: سيمفروبل وبلغة تتار القرم: آق مسجد) (Simferopol): هي عاصمة شبه جزيرة القرم الواقعة في البحر الأسود وتتصل بروسيا شمالًا، جمهورية شبه جزيرة القرم كانت تتمتع بالحكم الذاتي ضمن الدولة الأوكرانية، حتى ضُمت إلى روسيا رسميًّا في مارس 2014م، وتعتبر مدينة سيمفروبل أحد أهم تجمعات تتار القرم أهم أقلية مسلمة في روسيا.

47- النشالنيك (Nalçalnikler) أفراد الشرطة الحمراء.

حاجة إلى أرض فليذهبوا إلى سيبريا[48]! مال القرم وأموال التتار هي مال الحكومة، ستنزع أقراط العرائس الشابة بلحمتها من آذانهن، وتعلن أنها مال وقف لخزينة الدولة.

تُهدم المآذن، تطفأ المواقد، وتمسي الجوامع كنائس والصوامع نوادي للماركسية اللينينية[49]، مائة وسبعون عامًا وها هي الأراضي خاوية، تستمع أمتي مع الرياح المضطربة أسفل السحب السوداء الرمادية إلى صوتك القائل « تروي وأبكي» مائة وسبعون عامًا... يالها من أيام غابرة، يالها!..

هل استقبلتني بهذا الصوت فحسب مرة أخرى! أجل بهذا الصوت:

« تروي وأبكي».

نبهني من حلمي الطويل هذا بيوت بيضاء مربعة ذات حدائق

48- سيبيريا (Sibirya): هي أكبر صحراء جليدية في العالم تقع في الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا، يمتد غربًا من جبال الأورال حتي المحيط الهادي شرقًا، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتي حدود كازاخستان ومنغوليا والصين جنوبًا بمساحة تبلغ 12 مليونًا و675 ألف كيلو متر مربع أي أنه أكبر من مساحة أوربا كاملة.

49- الماركسية أو الشيوعية العالمية (Marksizma): سميت بالماركسية نسبة إلى مُنظرها الأول كارل ماركس مؤسسها بالاشتراك مع فريدريك إنجلز، وهي ممارسة سياسية ونظرية اجتماعية مبنية على أعمال كارل ماركس الفكرية، وهو فيلسوف من أصول ألمانية من القرن التاسع عشر.

والماركسية اللينينية (Marksizma Leninizma): هي تيار إيديولوجي شيوعي برز كاتجاه سائد بين الأحزاب الشيوعية في عشرينيات القرن العشرين وتم تبنيها كأساس أيديولوجي للأممية الشيوعية خلال فترة حكم ستالين، وظهرت الكثير من السياقات السياسية المختلفة والمتعارضة أحيانًا التي تصف أيديولوجيتها بالماركسية اللينينة، والتي تنتمي في معظمها إلى التيار الذي أكده ودعى إليه ماو تسي تونغ في الفكر الشيوعي.

تظهر من نوافذ المقصورة تارة وتختفي تارة أخرى، أطلق القطار صافرته وهو يمر بين البيوت ذات الحدائق، ودخلنا جانكوي[50]، دوى صوت الصافرة الطويلة ثم توقف شيئًا فشيئًا في النهاية.

كانت محطة جانكوي مزدحمة إلى حد ما، وقفت في نافذة المقصورة وتابعت الزحام بحب حملته لهؤلاء في فؤادي طوال أيام حياتي حالكة السواد، بدا الناس ضعفاء وفقراء ومساكين، وشعرت بتعلقي أكثر بالمساكين حين كنت أنظر لهم ربما بسبب هيئتهم هذه.

ها هم ذا حفنة التتار الذين استطاعوا البقاء هنا لمائة وسبعين سنة! في مقدمتهم السيدات اللاتي ربطن رؤوسهن بشيلان سوداء بشرابات في أطرافها، والأطفال ذوو الوجوه النحيفة والعيون الواسعة الأذرع المزرقة الصغيرة الهزيلة اللاتي ازرقت من البرد الذين أحاطوا بتنانير أمهاتهم، وبضعة رجال بقلنسوات وفرو وصنادل... جميعهم كانوا ينظرون بخوفٍ ما إلى نوافذ القطار، أنا كذلك كنت أنظر إليهم وأفكر في ما يثيرونه داخلي.

بعد برهة سارت السيدات وعلى صدورهن رؤوس أطفالهن والرجال يحمونهن إلى القطار كأنما يحملون على أعتاقهم ألم وثقل الحاضر والماضي برمته، ذاب فؤادي أسى بينما أنا أنظر

50- جانكوي (Canköy): هي مدينة تقع على شاطئ بحر الأزرق الموجود في القسم الشمالي من القرم.

لهؤلاء مفكرًا في أن هذه الأمة وهذا الوطن لن يروا الكرامة والسعادة أبدًا، بيد أن ألم قلبي هذا حدثني في ذات الوقت بأنني لن أكن ممن يغلقون عيونهم بصمت لهذا العالم الكاذب، كانوا يتقدمون... وبينما هم على مقربة من قطار الركاب صدر صوت ألماني وحشي طويل في الخارج، توقف الناس القادمون كأنما رأوا لهبًا وراء هذا الصوت وأحسوا بالخطر، نظروا إلى القطار بأعينٍ وأفواهٍ فاغرةٍ من الدهشة، أخرجت رأسي من نافذة المقصورة حتى أرى الصارخ في الخارج، كان عريفًا ألمانيًا يصرخ على درج القاطرة ويمنع أي شخص من الاقتراب من القطار، شرع الناس في التراجع والتفرق شيئًا فشيئًا ناظرين بعضهم إلى وجوه بعض كأنما قد خافوا من وحشيته؛ رغم أنهم لم يفهموا معنى كلامه، لو فهمت جيدًا معنى الصوت العسكري الذي حذر الأهالي المدنيين من السفر على القطار لاستأت أكثر، كنت لا زلت في النافذة حين كان الحشد يتفرق، وبدأ شيخ السير إلى النافذة الموجودة أمامي، خطا خطوات ثقيلة لكنها ثابتة وذراعاه خلفه، كان على ظهره فرو قصير وفي قدميه حذاء جلدي وعلى رأسه قلنسوة جلدية، ياقة فروته منتصبة، كان بسرواله الفضفاض ذي الرباط وطرف غمد سكينه الظاهر من أسفل فروته يبدو واحدًا من التتار القدماء، وكانت تتبعه امرأة على رأسها شال أسود بشرابة وعلى خصرها شال أحمر، في يدها سلة وفي قدميها خف وسروال أحمر مربوط من فوق كعبيها... أم، أم مثل كل أمهات

التتار تسير بخطى قصيرة عقب زوجها، كان الشيخ ينظر إلى القطار ثم عاد ونظر إلى المرأة، ظل يتحدث مع نفسه رافعًا طرف شاربه المبروم قليلًا حينًا ثم طرفه الآخر بأصبعيه الأوسطين، بقيت أرقب الشيخ دون أن تفارق عيناي وجهه، بياض رأسه الظاهر بين القلنسوة والفرو وبريق عينيه الضيقتين مرارًا كلما كانا يحدقان بإرهاق وأنفه القيرغيزي[51] الدقيق وعرض منكبيه المستويين قديمًا المتقوسين حاليًا ووطأه الأرض بقوة في الوقت ذاته مع أنه يخطو خطوات وئيدة كانت تُظهِر أنه نسر عريق وكهل من هذه الصحاري، توقف أسفل نافذة المقصورة بعد قليل وقال بالتتارية بصوت عذب ملتفتًا إلى المرأة: «سيري يا أسماء سيري!».

كانت المرأة سمينة نوعًا ما، استمرت في التقدم جارة قدميها ببطء كأنما لم تسمع صوت الشيخ.

يا لفرحتي! طفرت جوانحي[52] لأني رأيتُ تتاريًا بقلنسوة، وأردت التحدث معه، كان عليَّ أن أنصت لكل كلمة وكل جملة

51- قرغيزستان،(Kırgızistan): رسميًّا الجمهورية القرغيزية هي دولة تقع في آسيا الوسطى، تجاور الصين وطاجيكستان وأزبكستان وكازاخستان عاصمتها بيشكك، استقلت عن الاتحاد السوفيتي في أواخر .1991.

52- (طرت من الفرحة).

بلهجة نوجاي[53] هذه التي اشتقت إليها لعامين، لكن ماذا كنت سأقول، وبم سأتحدث؟

ربما كانت تلك المرأة التي بجانبه قد خرجت من القرية هذا الصباح وسارت على قدميها ثم أتت إلى جانكوي فابتاعت دجاجتها وأخذت ما ابتاعته ثم اضطرت إلى العودة ثانية إلى قريتها، أجل ماذا كنت سأقول وبِمَ سأتحدث إليه؟ لو رأى عليَّ مثل زي الألماني الذي صرخ فيه منذ قليل.. كان لقنًّا نحن الشباب ذوي الفكر المبلبل –مثلك أنت بهذه الحالة– درسًا.. هل أستطيع أن أقول للشيخ لست على حق؟ فربما هو محق أيضًا! ماذا كنت سأقول؟

تحدثتُ قائلًا: «عماه!» بيد أني لم أفطن جيدًا لكيفية خروج هذا الصوت من فمي، وأدارت الرؤوس الشقراء الكثيرة نظراتها المطلة من نوافذ المقصورات من نافذة إلى أخرى، كانت تبحث عن صوتي ليس بعيونها فحسب وإنما بكل كيانها، أعجبني ارتباك الشيخ هذا وأدهشني كذلك، فقلت باللهجة الساحلية: «انظر إلى هنا يا عم».

53- النوجايون (Nogaylar): هم شعوب تركيّة تعيش في جنوب روسيا على وجه التحديد: شمال جمهوريّة الداغستان وستافروبول كراي وجمهوريّة قراتشاي - تشيركيسيا وأستراخان أوبلاست وأجزاء من جمهوريّة الشيشان كما يعيشون كأقليّات في مناطق روسيّة أخرى وبلدان الاتحاد السوفييتي السابق. يتحدث النوجاييّون اللغة النوجاييّة وتعود أصولهم إلى قبائل تركيّة عديدة خصوصًا قبيلة القبجاق. غالبيّة النوجاي مسلمون سنّة يتبعون كمعظم الأتراك المذهب الحنفي.

استدار ونظر كأنه لاحظ شيئًا آخر في صوتي ووجهي أو كأنه لا يرى شيئًا غيري، فتحدثتُ كأنما أريد أن أنهي دهشته: « أنا من هنا»، فاستأنف الحديث بقوله: « إن شاء الله...»

قلت: «أنا تتاري مسلم»، فتوهجت عينا الشيخ بوميض ملون ثانية واستدار للمرأة التي سارت خلفه وقال:

- «سيري أسماء سيري، هذا الأسمر ابن التتار».

أتت إلى النافذة بانفعال ومدت يديها:

- «ما شاء الله بني، سبحان الله! نظف مع هؤلاء الشجعان الوطن من الروس»؛ (المسكينة كانت تظن الجند الموجودين على القطار جنودي).

- «سيضحون أسراكم.. سيصبحون عبيدكم.. سيصل قطاركم، ولئلا يأتي هؤلاء الروس الكفار مرة أخرى، لئلا يأتوا!»».

كان يرتجف وعلى وشك البكاء، ثم استدار للمرأة ثانية:

- «تعالي يا امرأة!.. هذا الشجاع التتاري الأسود، إنه أحد أسودنا! ليحرسه الله! آمين..»».

كان يحيط بذراعي وهو منفعل:

- «عندما يمر طريقك من قريتنا تعالَ بني، وأصدقاؤك أيضًا...

على الرحب والسعة توجد لنا أرض... نحن قرمانيون[54]... اسأل عن منزل عباس القرماني... لا تنسَ!».

دق القطار صافرة طويلة مزعجة فسحب الشيخ يديه من ذراعي المتدلية من نافذة المقصورة لأسفل وأدخلها في جيبه بغتة.

أما أنا فشرعت في التفكير في عدة أمور شاحبًا مثل منفاخ حداد.

هم القطار بالإقلاع فأخرج الشيخ صرة من جيبه بانفعال ثم مدها إليَّ من النافذة.

- «تبغ قرمي... خذه!».
- «لم يتبقَ وقت عمي، سلمت، أدامك الله!».
- «خذه ولدي خذه! صرتي هدية لك، لتدخن في الطريق».
- «شكرًا».
- «عباس القرماني... لا تنسَ ها! عباس!».
- «حاضر، لن أنسى..».

54- قومان أو قورمان (Kumanlar-Kurmanlar): هو إحدى العشائر التركية التي عاشت في أوربا الشرقية في ما بين القرنين11-13م، ثم اتحدت مع المقبچاقيين، وانصهروا بينهم وصارا يذكران معًا (Kuman-Kıpçaklar) واستوطنت دولتهم شمال البحر الأسود؛ وحين ضعفت في القرن 13م بعثت أبناءها إلى خدمة الملك أيوب في مصر ومنهم عز الدين أيبك وقطز وبيبرس الذين أسسوا دولة المماليك.

كنا نفترق وكلما تطلعت لصرة التبغ المزينة بالخرز الأحمر والأخضر ذات الشرابة بينما يتباعد الشيخ عباس القرماني عني كلما ابتعد القطار كانت السلاسل الحديدية التي ربطتنا ببعضنا منذ قرون تنحل وتوارى الشيخ عباس عن عينيَّ مبتعدًا شيئًا فشيئا.

أجل، حملني قطار حظي هذا إلى الجانب الذي يريدني، أتأمل الآن في صرة تبغ العم عباس القرماني بجانب صفحات «الذكريات» المبعثرة على منضدتي في حجرة الفندق، وتحدق هي الأخرى فيَّ كأن لها لسانًا وعينين وأذنين ولا تتحدث بأي شيء مثلي أيضًا، أين العم عباس الآن؟ أين القرم؟ وأين القرمان؟ وأين أنا وصرة التبغ؟ ياه! ليتني أمرض فجأة لدرجة ألا أعرف نفسي، وليحملوني إلى المشفى وليجد الطبيب صرتي في جيبي فيقذفون بها في سلة المهملات على الفور قائلين ما هذه!

دفنتُ رأسي المتعبة في «الذكريات» وحملت صرتي إلى شفتيَّ بينما أكتب هذه الأسطر، وقبَّلتُ بحب عميق ذكرى العم عباس.

نزلنا من القطار قبيل المساء في محطة آق مسجد، وبينا أعبر ساحة المحطة كان أطفال روس غير مهندمين ذوو سراويل ممزقة وأياديهم ووجوههم متسخة يعرضون حمل حقيبتي مقابل سيجارة، عبرت الساحة، وفي مقابلها كانت قضبان سكة حديدية قد تداخلت وطرق من دون ترام لفها الصمت، على اليسار توقفت

عربتان وكان فرساهما يأكلان الطعام ورأساهما في عليقتيهما، هنا وهناك أناس قليلون ياقاتهم منتصبة يسيرون ببطء محنيين رؤوسهم داخل معاطفهم.

توقفت ونظرت إلى آق مسجد، إلى آق مسجد الساكنة الهادئة، ثمة تغير في الطرق حتى في أحجار الرصيف، كانت المدينة هادئة إلا أنها لم تكن ميتة، وفي ظلمة الليل الذي أرخى سدوله على البيوت انطوت على نفسها كأنما تتذكر أيامها المنصرمة، وأنا –أيضا– تذكرت مع آق مسجد أيامي السالفة من الحرب.

كنت أفضل الذهاب إلى المحطة بالحنطور بشدة غير أني كنت أبحث عن سائق حنطور تتاري بين السائقين في بداية شارع قاراسوبازار؛ لأن التتار لم يكونوا يركبون عربة سائق روسي، وعندما لا أستطع أن أجده كنت أركب الترام، لم أكن أجد صعوبة في شارع صبحي وشارع قنطار وشارع قاراسوبازار لأن أغلبية السائقين تتاريون، أما في المحطة فعلى خلاف ذلك، على أي حال... لن أبحث الآن عن حنطور تتاري، سأركب إحدى العربتين ثم أذهب، سرت مباشرة إلى العربتين وعندما اقتربتُ من سائق متوسط القامة، أطرافه نحيفة مثل عود ثقاب، اصفر الجزء الأوسط من شاربه الكث الطويل من السيجار، يشبه الروم أكثر من التتار بعينيه الضيقة ووجهه الأحمر قفز الرجل من عربته وكأنه فهم أني أريد التحدث معه فورًا حيث ألقى التحية العسكرية رافعًا يده

إلى قبعته، اعتقدت أنه ربما يكون هو الآخر تتاريًّا.

- «هل تقلني إلى قضا عسكر يا أخي؟».

أتى إلي وكأنما انقطع نفسه من الانفعال فأمسك بيدي الاثنتين من مرفقي ونظر إلى وجهي كأنما يقرأ كتاب، كانت عيناه تلمعان.

- «ألست صادق بن حسين، يا أخي؟».

- «نعم، سيدي..».

- «ياه صادق، أهو أنت؟».

كان شخصًا يعرفني ويعرف أبي، فانتقل إليَّ انفعاله وأجبته قائلًا: «أنا هو، أنا...» فعانقني وقبلني من عيني.

- «ياه صادق يا الله! الجميع يعلم أنك مُتَّ، وصل تلغراف من الجيش، يا للظلمة! مر عام وعينا أمك لا زالتا حمراوين من البكاء، قالوا إنك مُتَّ... وبعثوا تلغراف... ياللكفرة..».

داعب وجنتي وقبَّلني من عيني ثم صرخ بصوت خشن:

- «قالو مُتَّ...! أذاعوا نعيك! لو تعلم كم نعيًا قُرأ علينا! الكفرة... الظلمة..».

- «كيف أهلي سيدي؟».

- «جميعهم بخير.. صغيركم بكير في كيرتش[55] تزوج الولد بفتاة غير مسلمة ثم خجل من المجيء ورؤية والدتك، أخبرني أبوك بهذا..».

لو كنت سمعت هذا إبان الحرب ما كنت رددته! ابن حسين تزوج من فتاة روسية!..

هنا فقط قلت: «ياه أمن الممكن؟».

- «سلمك الله ولدي... لله الحمد آق مسجد لم تصبح طنبور[56] عظيم كما حدث في أقيار[57]، خرج الروس..».

تراجع خطوتين بعد أن أتم كلمته ونظر إلى زيي ثم ضحك:

- «ودخل الألمان... هم -أيضًا- قالوا أنك مُتَّ...الأخ بعربة ذات فرس! لأحملك إلى عمتي، كيف تكون ميتًا، ويراك أحد..».

ركبت عربته، لم أكن بعد قد عرفت هذا السائق الذي بدا كقريب

55- كيرتش (Kerç):هي مدينة تقع في مضيق كيرش في شرق القرم تعرف كمركز صناعي وسياحي وطرقي في أوكرانيا.

56- الطنبور في الموسيقى آلَة موسيقية من ذَوات الأَوتَار, لَها عنق طويل يتصل بِصندوق شبيه بِالبيضة، تشبه العود؛ وفي الزراعة: آلة من آلات الري تدار باليدين، وفي الطباعة: أداة أسطوانية لتحبير القوالب والضغط عليها.

57- سيفاستوبول أو سيباستوبول أو أقيار بالتتارية وكانت تعرف بأقيار في العهد العثماني (Akyar): هي إحدى مدن أوكرانيا تقع في شبه جزيرة القرم وتتطل على البحر الأسود تشتهر دائمًا بأنها مدينة المجد العسكري الروسي ولها أهمية هائلة في تاريخ روسيا العسكري وهي حاليًا مقر لأسطول البحر الأسود الروسي، وعلى الرغم من وقوعها في أراضي أوكرانيا ظلت موسكو ترفض بشدة سحب الأسطول الروسي من المدينة، إلى أن تم ضمها إلى روسيا عام 2014.

لي، علمت بالأحرى في ما بعد أن السائق ليس قريبنا وإنما يعرف أبي فحسب، كم كان رجلًا ودودًا! لم يصمت لدقيقة حتى وصلنا إلى طريق قضا عسكر الملتوي ذي الحفر.

ندمت كثيرًا بعد أن قلت وأنا أركب عربته: «هلم سيدي، إلى جرح أجدادي»، تحدث بانفعال عن أفضلية الحصان عن السيارة في الدرجة لخمس عشر دقيقة على الأقل ناسيًا إياي وأهلي وعيني أمي الحمراوين من البكاء.

قال: «لا يريد فرس السباق هذا السوط يا أخي... هذا الفرس يطير كالطائرة، وسترى...» بيد أنه لم يستطع أن يتنفس بهدوء إلا عندما أمسك أزمته بين يديه؛ ومن ثم!.. وقف السائق على قدميه في عربته وأيقظ آق مسجد النائمة بسكون تحت رعب الحرب بصرخاته المتقطعة:

- «نو_و_وو! الذيل الطويل، الفرس الأسمر! القلب الشائك قاراقوز!».

عندما رآني جنديان ألمانيان مسلحان كانا يمران جانبنا حين صرخ السائق ارتعدا خوفًا، لِمَ لَمْ يطلق هذان الجنديان النار من أرضنا، وكيف جعل سائق ضابط ألماني يفر؛ لا أعلم!

تغيرت آق مسجد في ما بين الأصوات التي صدرت عن احتكاك عجلات العربة الحديدية بأحجار رصيف الطريق المربعة وصرخات السائق، صارت آق مسجد القديمة الحبيبة التي أعرفها

مجددًا.

كان السائق ما زال على قدميه، والرياح تنفخ أجزاء سرواله الفضفاض كالشراع، يتحدث مع فرسه بصوت مرتفع على الدوام، على يسارنا شارع اللينين الواسع وعلى يميننا سجن N.K.V.D.[58]، ونحن في المنتصف والسائق يوزع صوته بين اليسار واليمين طائرًا بسرعة الصاعقة ويطلق صرخاته قائلًا:

- «نو_و_وو! الفرس السريع! الذيل الأسود! واستمرت هذه الحال حتى شارع قنطار».

على اليسار حانوت أبوابه موصدة، وعلى اليمين سوق واسع مهجور وحولنا وجوم مقبرة، صمت السائق بغتة، ألا يوجد أحد، عجبًا؟ خلال الصمت لم يكن يُسمع إلا أصوات الحدوات تقابل ضجيج عجلات العربة، ولجنا شارع مصطفى صبحي ورأيت على اليسار جدران المدرسة البيضاء والسد الأحمر، لم تبقَ حجارة هذه الشوارع التي كنت لا أطأها وحقيبتي على ظهري في طفولتي، أضحيتُ الآن وكأني أرى آثار قدمي الصغيرة في كل زاوية، وتذكرت سليمان عندما مررت من جانب مصنع الأزرار... كنا نمر من هنا كل يوم خلال العودة من المدرسة، وننظر إلى

58- المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية وتُعرف -أيضًا- باسم مفوضية الشعب للشؤون الداخلية وتُعرف على مستوى العالم اختصارًا باسم باللاتينية: NKVD هي مؤسسة سوفيتية جمعت بين أنشطتي الشرطة والشرطة السرية عملت على التنفيذ المباشر للإرادة السياسية السوفيتية بما في ذلك القمع السياسي خلال عهد جوزيف ستالين.

الفتيات الروسيات الملتحفات بغطاء رأس أحمر وإلى ماكينات العجن من زجاج نوافذ المصنع المكسورة وذراعانا على كتفي بعضنا ونتهكم عليهن، كان سليمان يرشق الفتيات بالحجارة عندما يخرجن ألسنتهن لنا ويشرعن في سبنا قائلات «التتار السود»، ذات يوم طاردنا روس المصنع حتى شارع قضا عسكر ولم يستطيعوا الإمساك بنا غير أني بعد ذلك اليوم بتُّ أخاف من الاقتراب من نوافذ المصنع، أما سليمان فعلى العكس لم يخف وحملني عدم خوفه على الذهاب أسفل نوافذ المصنع، كنت أذهب شئتُ أم أبيتُ، وأتوسل إليه عندما أدنو من النوافذ قائلًا:

- «لا تفعل سليمان، لا تفعل... سيُقبض علينا».

لم يكن يستمع وكان يقول:

- «لأجرح رأس واحدة من الفتيات الصابئات ولن أفعلها ثانية».

ثم يقذف الفتيات بالحجارة، كنت أترك سليمان وأهرب ما إن تسنح الفرصة، وفي اليوم التالي كان ينتظرني على بوابة المدرسة ويمازحني قائلًا:

- «تركتني وفررت، يالك من أرنبٍ جبان!».

نظرت طويلًا كأنما أريد الآن رؤية ثقوب الزمن التي فتحتها الأحجار التي ألقاها سليمان على الزجاج المكسور للمصنع الخاوي الساكن وللحظة استحضرت سليمان المُسجّى في دمائه

منكبًا على وجهه بين صندوقي رصاص في قاراسنويا[59]، وبينما أتذكر غلق عينيه سمعت داخلي قوله «هربتَ مني» من شدقيه اللتين تخيلتهما يسيل من بينهما الدم، ولوهلة تمنيت لو أنه يمر أمام هذا المصنع ويداه فوق يديّ وأنقله إلى أمه حتى لو ميتًا.

اقتحمت العربة شارع قضا عسكر، وتجلت أمامي ذكرى أيام طفولتي الجميلة من الباب ذي الفانوس ومن كل عتبة ومن كل بداية خطوة، كنا نلهو بعظام الكعب في تلك المساحات الضيقة، وفي الخلف كان يتجمع ثلاثة أو خمسة شيوخ في مكان، جميعهم بلحى بيضاء وفرو وعصي، كانوا يتحدثون دون توقف ولم نكن نعلم أي شيء عما يتحدثون، أتذكر جيدًا ذلك الميدان، كنا نتجمع في هذا الميدان في أمسيات رمضان ونترقب فيه الآذان، كانت مئذنة تُكال ترتفع من فوق المنازل إلى السماء، وكنا فور سماع صوت المؤذن على المئذنة من بعيد نركض إلى الموائد المجهزة في بيوتنا صائحين كالطيور التي تطير وترفرف بأجنحتها قائلين «أذن!.. أذن!.. إشارة الفرح!».

قضا عسكر يلفه الآن الصمت، بعض القرى المجاورة لوارسو حتى ظاهرها كئيب.

59- كراسنويارسك (Krasnoye): هي إحدى مدن روسيا وعاصمة الكيان الفدرالي الروسي كراسنويارسك كراي، تعداد سكّانها يناهز المليون نسمة، تقع مدينة كراسنويارسك على نهر ينسي وتبعد عن العاصمة موسكو حوالي 4000 كم، وهي أحد أضخم المراكز الصناعية والثقافية والتعليمية والعلمية والتجارية في روسيا الاتحادية.

استمر السائق ضاربًا سوطه يمينًا ويسارًا مرة أخرى، وترنم بأغنية أيضًا، لكنه عندما بدأت العربة تصطدم بأحجار الطريق وترتج ثم تغرس في الحفر وتنحرف سكت وتروى إما رحمة بفرسه أو بالعربة أو لأجلي.

كنا نقترب من منزلنا، وننظر إلى كل الأبواب...ألا يوجد من نعرفه؟! رغم هذا لم نتمكن من رؤية أحد نعرفه، كان هناك طفل في عمر الحادية أو الثانية عشرة يسير أسفل الجدار حاملًا في يده شيئًا ملفوفًا بالبشكير، جالت بخاطري طفولتي مرة أخرى وأنا أتأمل هذا الطفل، ألم أكن أحضر الصحن الساخن الملفوف بالبشكير لمنزل النفساء هكذا؟

توقفت العربة حين مر صبي من جوارنا، كان السائق مثلي يفتش عن أحد على الأغلب فحدث الصبي قائلًا: «هل أنت من شارع سيدي حسين يا قاراقوز؟».

أدار الصبي رأسه ببطء ونظر إلى السائق:

- «تسأل كأنك لا تعلم: سيد ولي... أنت برليني[60] غالبًا..».
- «أسأل كما أريد، رد جيدًا على الكبير! هل تعرف السيد الذي

60- برلين (berlin): هي عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية، وإحدى ولايات ألمانيا الست عشرة، كما أنها أكبر مدن ألمانيا من حيث عدد السكان. وتعتبر برلين إحدى «الولايات المدن» الثلاث بجمهورية ألمانيا الاتحادية (إلى جانب بريمن وهامبورغ). وتأتي هذه التسمية من كون حدود المدينة هي نفسها حدود الولاية. وبرلين هي أيضًا ثاني أكبر مدن الاتحاد الأوربي بعد العاصمة البريطانية لندن.

في العربة؟».

- «كيف أعرفه؟ إنه ألماني..».

- «ألماني هه! ههههه! هلا نظرت جيدًا!».

انفرجت شفتاي عن ضحكة غير أنني تمالكت نفسي.

- «هذا صادق بن سيدي حسين، يا قاراقوز! هل فهمت؟ صادق!».

رفع الصبي رأسه ونظر إلى السائق أولًا ثم لي فسكَتُ.

- «ألا تصدق يا قاراقوز؟».

تراجع الصبي للوراء دون أن ينبس بشفة ثم سار، أدار رأسه بعد أن ابتعد قليلًا وقال بخبرة كبيرة ومع بريق ذكاء من عينيه كأنه عاش أكثر من عمره:

- «مات صادق بن سيدي حسين في الحرب، أليس عيبًا أن يكذب رجل أكل الشيب رأسه مثلك سيد ولي؟»، ثم استمر في طريقه وكأنه كان واثقًا أنه بهذه الكلمات أحرج السائق.

غضب السائق، فانطلق بغتة وهز سوطه خلف الصبي.

- «يا لك من قرد يا هذا! انظر إليه، صادق بك! انظر مرة! هل كذبت؟! أترَى صبي صغير لم يرد عليَّ! تحدث كالبلشفيك... والله مثل البلشفيك!».

تحدثت بنفاذ صبر قائلًا: «قُدْ فرسك، سيد ولي، ولا تسمع له، إنه صبي».

جلد الفرس بالسوط ثم استمر ورفع صوته مع عدو فرسه:

- «الصبي الصغير... أترى ما قاله لي، الأتقياء لا يوصمون مسلمًا بالكذب، ليلدغ لسانك الصغير نو فرسي السريع نو! ليلدغ لسانك! لأرى أباك فقط وأخبره عنك! نو فرسي السريع نو! لأرى أباك فقط... سترى وتعلم هل ترد هكذا على الكبير مرة أخرى! نو فرسي السريع نو!».

تحدث شابان من عند أحد الأبواب:

- «ماذا حدث سيد ولي؟».

أشار إليَّ بسوطه كأنما لم يحدث أي شيء:

- «انظروا إلى صادق بن السيد حسين!».

خرجت من باب آخر امرأة وهي تمسح يدها في مئزرها:

- «ماذا يجري هنا؟».
- «أتى صادق بن حسين..».
- «قالوا توفي..».

من كل باب صوت وسؤال، كان الصبيان الذين لم يخرجوا إلى الشارع ينظرون بأعينهم الواسعة من النوافذ مندهشين،

والسيدات والفتيات يحركن أيديهن، وبعض منهن يمسحن بمئازرهن عيونهن ويبكين في صمت.

دمعت عيناي وأنا أتطلع إلى أشقائهن اليتامي في حالهم هذه وهم يقفون على درج العربة، اللهم لك الحمد أن خلقتني من هذه الأمة!

ازدحم الشارع الآن وضج لدرجة أنني ما كنت قد رأيت قضا عسكر مكدسًا وهائجًا هكذا حتى في الأعياد، جوانب العربة مليئة بالأطفال، وعلى الأبواب من يلوح باليد ومن يلوح بالمنديل، يصدر صوت من كل شخص، يالهذه الأمة الأصيلة والودودة! وددت لو أقبل تنورة كل أم وحذاء كل أب وأتمسح بأعتابهم جميعًا.

نقترب من منزلنا، يقف أمامه في منتصف الشارع من ثلاث إلى خمس سيدات بثياب بيضاء، وبعدهن بقليل في الزاوية رجال بقلنسوات، كلهم صامتون ثابتون، وعيونهم جميعًا على العربة، أترى أمي بين هؤلاء السيدات؟

وكأني لمحت أبي بين الرجال، ورآني هو أيضًا... مد ذراعيه، قفزت من العربة وهرعت إلى أبي، كان الكل ينظر إلينا لكن في صمت، ارتمى الأب وابنه في أحضان بعضهما، وبعدها أمي... أحاطت وجنتي براحتيها الجافتين وصاحت مع الدموع المنهمرة من عينيها الواسعة الحمراء قائلة: «ولدي، ولدي!..».

في النهاية سرنا تجاه الباب أمي في ذراع وأبي في ذراعي الآخر،

لكن صدر صوت مبحوح من الزحام وشقت صرخته الصخب، من كان؟ ولمن كان؟.. وإذ بسيدة بيضاء مع اندفاعها تسقط تحت قدمي، كانت تصرخ بصوت حاد للغاية:

- «أين سليمان! أين ولدي سليمان! تحدث بُني! قل لم يمت... قل لم يمت بُني! قل لم يمت..».

تسمرت كل الأمهات حولنا مع صوت السيدة، وجثوت أمامها على ركبتي فقبلت يديها نيابةً عن ابنها.

ذلك المساء بعد أن تفرق الضيوف شربت الشاي مع أمي وأبي في غرفة جانبية، النظرات الدافئة في عيني أمي أنستني الماضي المؤلم برمته، المرأة المسكينة! لم تترك يدي وكأنها فتاة عاشقة، ولم تفارق عيناها عينيَّ، ذهبتْ ما إن رحل الضيوف وجلبت المصحف المعلق على الحائط في غرفتها، وفي حين أني كنت مندهشًا من أنها ستقرأ القرآن في هذه الساعة المتأخرة كانت تقلب صفحاته وتبحث عن شيء ما، كان أبي ينظر إليَّ وإلى أمي ويضحك ثم أخرج من جيبه ورقة ووضعها في يدي.

- «ها هي هنا..».

كان خطابًا يُنبأ بوفاتي، استمرت أمي في تفتيشها عن شيء بين صفحات المصحف، وبعد برهة قالت: «لكننا حفظناها هنا».

وإذا بأمي المسكينة قد خافت من حفظ ورقة كتبت بيد كافر

بين صفحات الكتاب المقدس فجعلت مسلمًا يخط كل نصها بحروف عربية؛ لأنها لم ترد أن تنسى أيًّا من كلمات الخطاب الذي يروي وفاة ابنها كبطل ومن ثم حفظته في المصحف.

قرأتُ الورقة التي مددها أبي، كان الخطاب يحمل عنوان قيادة جيش المشاة وتاريخ الرابع والعشرين من أغسطس عام 1941، قيل فيه بعد عدة جمل مبتذلة تبين تأثر القيادة، ولدكم صادق طوران توفي مثل بطل في سبيل وطنه العزيز كابن وفيٍّ للاتحاد السوفييتي.

فتر ثغري عن ابتسامة.

فبدايةً لو أنني مُتُّ ذلك اليوم حقيقة ما كنت سأموت كبطل ولا حتى كابن وفيٍّ للاتحاد السوفييتي، ثم الرابع والعشرين من أغسطس... كان الألمان قد أسروني في الثامن من أغسطس، أما الخطاب فكُتب بعد أسبوعين، ومع هذا جاءت فيه «مات» قاطعة دون أن يُعلم متى وأين كانت وفاتي.

لم يكن هناك شك في وفاة أصدقائي في قاراسونيا وكتابة رسائل لعائلاتهم كانت أيسر من الكتابة من أليكساندروفاك[61]، ومع هذا لم يكتبوا، لماذا؟ لا أعلم، فإلى الآن أعتقد أنهم فقدوا حياتهم في

61- أليكساندروفاك (Aleksandrovka): هي مدينة في راسينا في مقاطعة في وسط صربيا، يبلغ عدد سكانها حوالي 6659 نسمة.

الحرب بالفعل، ومع أني رأيت بنفسي هذا... أن الروس قتلوهم كما قال قيليشباي، لكن أي فصيل روسي قتلهم؟ راودني هذا السؤال لأول مرة بعد قراءة هذا الخطاب، ولم أنبس بشفة بعدها، ولم أتحدث مع أي كان عن وفاة هؤلاء، ودفنته بداخلي مثل نكبات الحياة المختلفة، كان أبي متوترًا ويجذب طرفي شاربه بلا توقف ويبدو أنه يحمل همًّا.

بدأت أمي الحديث عن بكير، فقام أبي واقفًا ونظر إلى وجهي بأعين جافلة:

- «إذا أردت فاستلقِ ونم صادق، أنت متعب، وعلى أي حال هناك الكثير مما سأقوله لك لكن..».

- «تحدث أبي!».

كانت أمي لا تزال تمسك بيدي وتنظر لوجهي أسفل المصباح الكهربي.

- «هيا يا فاطمة، دعينا بمفردنا».

قامت أمي وقبَّلتني من عينيَّ ثم خرجت، كان أبي في حالة غريبة، وجهه شديد الصفرة وحاجباه معقودين وشفتاه ترتجفان، ذهب وفتح الباب ونظر وراء أمي ثم أغلق الباب بعد أن تيقن من ابتعادها ورفع الستار ببطء هذه المرة ثم أسدله بإحكام أشد كأنما توجد أعين للظلام في الخارج، استراح قليلًا ثم أتى إلى

جواري ووضع يده الكبيرة على المنضدة.

قلت:»تحدث يا أبي«.

- «عسير لكني سأتحدث».

- «لو أن ما ستقوله أن بكير تزوج بفتاة روسية في كيرتش، أعلم، أخبروني».

- «لا، أسوأ..»، قالها وأردف مع ارتجاف شفتيه الذابلتين الجافتين كصوته:

- «أسوأ لكن إياك أن تحسب بكير ولدًا سيئًا..».

- «ماذا حدث أبي احكِ!».

رد: «بكير في الجبل، زواجه بفتاة روسية في كيرتش وخلافه... هُراء...».

- «أهو في الجبال؟».

- «بُني هذا خلاصة حديث طويل، بكير في الجبال يحارب الألمان».

قذف أبي النار في وجهي بحديثه هذا، فتجمعت قطرات العرق الباردة على جبهتي وانقبض صدري، بصرت أبي الذي ابتعد عني وعن عينيّ وقلبي وليس بكير الذي يحارب ضد الألمان في الجبال وشعرت أنه تغير، لم ينطق أبي بهذه الكلمات حزينًا أو

نادمًا، بل على العكس كان يتحدث كما لو أنه يجد بكير على حق، فطنتُ إلى هذا من عينيه، لا أعلم بِمَ كان يشعر أبي، غير أن قلبي كان يبكي دمًا، وانطلق صوت في جوفي: «ارتدِ زيك يا صادق، لا مكان لك في بيت والدك بعد الآن، افتح الباب إلى الظلام المواجه لك لئلا يراك أحد أو يعرفك أحد».

سكت كلانا، سرت بيننا رياح باردة، كان أبي في منزله وفي وطنه ربما مع بكير؛ أما أنا فكنت أسيرًا في معسكرات الأسر وبين الموتى في شوارع وارسو وفي القرى المهجورة وفي الطرق الدامية وفي الحفر إلى الأكواخ، بدا هذا لي أسرًا أبديًّا، لم أستطع أن أكن ولدًا صريحًا أمام أبي، كان يتحدث وأنا أصغي له فحسب.

قال: « قدمت لك سُمًّا فور دخولك المنزل يا صادق».

صَمَتٌّ، وكان ثمة تعبير مؤلم مثل السم على وجهي، نظر في عينيّ كأنما ينشد العون، صَمتُ مرة أخرى، أخذ يشد شاربه بعصبية كأنما ارتاب في صمتي هذا.

- «بكير ذهب في اليوم الذي علم به بوفاتك، اختفى، لا أحد يعلم أين هو أو ماذا يفعل غيري، والآن أنت -أيضًا- علمتَ، انتظرنا جميعًا الألمان بلهفة حتى يأتي يوم الاستقلال، لكننا أخطأنا يا صادق... لم يجلبوا الاستقرار لدولتنا بل الدم والموت، ضحوا بآلاف القرميين، كانوا يخرجونهم إلى أطراف المدينة ويطلقون عليهم النار على حواف الحفر التي يجعلوهم

يحفرونها بأنفسهم، قتلوا كل أصدقائك مايكو بن آرون والشالوميين وبيناس واللاويين[62] ثم جاؤوا إلى الغجريين[63] مدة، المساكين ركضوا إلى المدن التتارية طالبين المدد وفي أيديهم الرايات الخضراء وعلى صدورهم المصاحف، لكن ماذا بأيدي التتار؟ ماذا يستطيعوا أن يفعلوا؟ فليكن غجريًّا، أليست لغتنا لغته وديننا دينه، أليسوا هم -أيضًا- شعبًا قرميًّا؟ هل كان نبأ وفاتك سببًا في خروجه إلى الجبل أم كان ما تعانيه أمتنا، لا أعلم، مهما كان سبب ما حدث فقد حدث دفعة واحدة... مضى شهر منذ حمل إلينا السائق الخبر، وقبل أسبوعين في السوق سلمني شخص لم أعرفه أبدًا رسالته في يدي وذهب، كان يكتب لوالدته في الرسالة أنه تزوج بفتاة روسية في كيرتش وصدقت أمه هذا، يقول بكير أنه لن يظل مع الفتاة غير المسلمة فما إن تنته الحرب سيترك تلك المرأة ويعود إلينا، حمدًا لله أنك عدت مثل سيد فلننسى معاناتنا بعد الآن».

62- اللاويين(Levi'ler): هم سبط من أسباط اليهود أسسه لاوي ثالث أبناء النبي يعقوب وكان كهنة اليهود من سبط اللاويين.

63- الغجر (Çingenrler): تنقسم شعوب الغجر بشكل أساسي إلى الرومن (في أوربا)والدومر (في الشرق الأوسط)، بعضهم يتكلم لغة مشتركة قد تكون من أصل هندي، وبعضهم لهم ثقافة وتقاليد متشابهة، وحتى أواخر القرن العشرين ظلت شعوب الغجر تعيش حياة التنقل والترحال، وللغجر أسماء مختلفة باختلاف اللغات والأماكن التي يتواجدون فيها، وهم من بين الشعوب التي تعرضت للاضطهاد من قبل الحكم النازي.

كنت أداري وراء وجهي الصامت العذاب الذي أحسه كلما حكى أبي، وباتت الأواصر التي تربطني بكل العالم والحياة وليس وطني فحسب تُحل شيئًا فشيئًا كلما نظر إلى زيي ودبت في عينيه الحياة؛ فكرت لحظة في أن أحكي عن الأيام التي قضيتها في الأسر ثم تراجعت فورًا، كنت حتى اللحظة أعتقد أني سأرى أبي وأحكي له وحسب، لكنني قد أخطأت! أليس أنت يا أبي من قلت لي يوم مغادرتي بيت أمي سِرْ في الطريق الذي رسمته؟ ألم تقل لا تتعلق بأطماع الدنيا الفارغة؟ اليوم زي الألمان على ظهر أحد أبنائك، وصليبه المعقوف على صدره، والآخر في الجبال مع البلشفيك الملطخين بدماء أمتنا من أعلى رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم وعلى قلنسوته النجمة الحمراء...

تقول إنه ابنك كذلك! تقول إنه رسم الطريق لنفسه، تقول إن طريقه حق، أبي!

يفكر أبي حينًا كثيرًا، ويتألم حينًا؟ هل عليَّ، أم على بكير، أم على نفسه؟ لا أعلم...

أكمل ببطء ساندًا يده على المنضدة كأنما جارت عليه الدنيا:

- «نحن عانينا كثيرًا يا صادق، أحرقوا عدة قرى بجوار جانكوي، بصقوا في وجوه القرويين الذين لا يفهمون لغتهم وضربوا خصورهم بكعوب بنادقهم، يالهم من جند ظلمة! شقوا رؤوس من لم يبلغوا سن الكلام واليهود وأطفال القرميين بكعوب

بنادقهم وجعلوهم يحفرون حفرًا إلى جانبهم، ومن يعلم من سيقتلون على رؤوس تلك الحفر؟».

أضحى كأنه لن يتحمل المزيد لأجلي، ليته الآن يقول ارتديتَ زي الأمة الملطخة أيديها بالدماء ثم ظهرتَ بغتة!.. كان قلبي يدق بشدة فقفزت من مكاني:

- «يكفى أبي يكفي! هل ألقي زيي وأخرج إلى الجبال أساعد البلشفيك لينتصروا في حربهم؟».

صمت أبي، سكت فجأة ورأيتُ أبي الحقيقي في صمته هذا وعرفته، فالآن هو ليس أبا بكير ولا أبا شخص آخر، كان من يحني رأسه ويحدق في يديه المكتنزة الموضوعة على المنضدة أبي.. أبانا.

رفع يديه الواهنتين من على المنضدة، دبت الحياة في روحه المتجولة في الأقاصي آنفًا كأنها عادت إلى جسده، عقد حاجبيه واستدار ثم نظر للنافذة وكأنه استمد بنظراته هذه كل همه من الظلام ثم صبه أمامي:

- «لم أقل لك اخرج إلى الجبال، ولم أقل ساعد الروس حتى ينتصروا في الحرب».

تهدج صوته وكلما زاد تهدجه كان وجهه يزداد ضيًّا، كان يحدثني أنا إلا أنه كان يتحدث كأب إلى كل الناس وليتني كنت

إنسانًا كأناس الزمن، ثم انخفض صوته شيئًا فشيًا:

- «لا أعلم على من أبكي؟.. على أمتي أم على أولادي؟ على من... على من صادق؟ كلاكما من دمي، وها أنت ذا أتيت الآن لأخذ ثأر أمتك المضطهدة، والآخر في الجبال... في الجبال مع الخونة..».

قام متثاقلًا، وقف أمامي ونظر في عينيَّ ووضع يده على كتفي وبدت ابتسامة خفيفة على طرف شفتيه ثم قال بصوت هادئ:

- «صادق».

- «تحدث أبي..».

- «أتدري لِمَ حبسني البلشفيك عام 1932؟».

- «لا أبي».

- «أتذكر عام الزلزال؟».

- «إلى حد ما..».

صمتَ لحظة ثم أكمل وعيناه في عيني:

- «أمة غدت جائعة ومُعدمة، المنازل منهارة وفي كل عائلة ميت، دفنّا في يوم خمسة وعشرين ميتًا رُويت المقبرة ذلك اليوم بعيون السيدات والفتيات وكل القرويين».

كان أبي يتحدث كأنه يحمل على كاهليه حمل الأمة ومعاناتها

كافة.

- «ذلك العام عام الزلزال مر جند من آق مسجد إلى يالطا من داخل القرية، عشرات الآلاف من الجند، جنود روسية لأفواههم رائحة كريهة ولأبدانهم رائحة العرق والقذارة... عندما دخلت صفوف الجند ساورنا الخوف والقلق، ظننا أنهم سيخلون القرية مرة أخرى فخرج أكثرنا إلى الجبال، ومساء اليوم التالي قدم خبر بأن الجند لم يزعجوا الأهالي وأنهم مروا ثم ذهبوا مباشرة إلى يالطا، نزلنا من الجبال بفرح، وكان النسوة يأخذن آخر لقمة من فم الأطفال ويقدمونها للجند المارين، كُنَّ يعطينهم لأننا أمة منهزمة وسيعطينهم مقابل الحياة، كنا مع الشيوخ والنساء الأرامل في منازلنا التي دمرها الزلزال في حال يُرثى لها؛ ومع هذا كنا نقدم الخبز ونقدم الماء لذلك الجند».

- «وهل ألقوك في السجن في تلك الأثناء؟».

- «لا بعد خمسة أعوام، أتى القازاقيون المسلحون ذوو الحرب إلى القرية وزجوا بكل الرجال الشباب والشيوخ في سجن آق مسجد، وحبسوني كذلك، لِمَ؟ ماذا كان جُرمي؟ تسع شهور في سجونN.K.V.D. أسأل نفس السؤال هذا، بدأ التحقيق بعد تسعة شهور واستمر لشهرين، لشهر كان الروس يبصقون على وجهي، كانوا يحضروني في منتصف الليل ويحطمون

الكرسي على رأسي في غرفة قائد N.K.V.D. كانوا يقومون بظلمات لا يتخيلها عقل، ماذا كان جُرمي؟ سألتهم عنه، وكانوا يقولون أنت خائن للوطن ويريدونني أن أوقع على ورقة، لم أفتأ أسأل عن جرمي مجددًا ولم يخبروني به إلا بعد عام».

- «وماذا كان؟».

- «الجند الذين عبروا من القرية عام الزلزال..».

- «أجل؟».

- «نصب الجند خيمة في مقبرة القرية، ودنسوا مقابر أجدادنا وأبنائنا، وبعد انسحابهم ذهب أهل القرية ونظفوا المقبرة، وكنت أنا بينهم... هذا هو الجُرم الذي قمت به..».

كان شعب القرم على حافة الهاوية، ظل يقضي على العواصف التي واجهته زهاء المائة وسبعين عامًا، أُمتي المتعبة البائسة ما كان باستطاعتها احتمال هذه العاصفة الأخيرة، كأن أبي صار يشعر بهذا وكانت أُمتي جريحة تنزف دمًا غزيرًا؛ ومع هذا كانت الكلمة الأخيرة لكل تتاري حارب عدوه حتى آخر قطرة في دمه ولقي حتفه قبل أن يستطيع الوصول إلى الاستقلال الذي تاق إليه طويلًا ستظل «الاستقلال»، قامت أُمتي بواجبها هذا تجاه وطنها.

كان هناك حشد كل ساعة أمام لجنة التتار القومية، وكان الشباب يدخنون السجائر أمام مبنى الجند المتطوعين وبالإضافة

لهذا كان الناس والشيوخ والرجال ذوو القلنسوات والنساء المحجبات لا ينفضون من محيط البناية، كان الرجال يتحدثون في أمور محركين أيديهم وأذرعهم بكثرة، كان أشبه باجتماع في اللجنة فوقفت جانب الجند وألقيت التحية.

- «هل مقر إدارة الجريدة في هذا المبنى؟»,

انتصبوا جميعًا فجأة، وألقى بعضهم سيجارته وأجاب قائلًا:

- «تفضل إلى الداخل، هناك محررها عبد الله أفندي».

صعدت السلم الحجري ذا الخمس أو الست درجات، وأتى جندي ورائي ركضًا وأشار إلى إدارة الجريدة في الممر.

كان عبد الله أفندي معلمي القديم، وجئت أحكي لمعلمي ما فعلته منذ خمسة أعوام، كنت خجلًا قليلًا أفكر أتراه يذكر الشقاوات التي كنت أقوم بها في سنوات المدرسة!

فتحت الباب ودخلت، كان معلمي العجوز عبد الله أفندي يجلس على مقعده وراء المنضدة كما في كل وقت وحاجباه الكثيفان ناصعي البياض غير أنه مفعم بالحيوية ونظراته متقدة كأنه جذع شجرة بلوط سليم منذ قرن يمد غصونه النضرة مجددًا.

نهض على قدميه قائلًا: «صادق بُني، صادق بُني!.. سمعتُ أنك عدت إلى الوطن أمس...».

جاء بجواري، أخذ رأسي بين راحتيه الواسعتين وقبلني من

عيني ووجهي، ودمعت عيناه.

- «لو تعلم كم اشتقتنا لك!.. لولاك سيتعرض الوطن لكوارث كثيرة».

نعم كانت الدموع في عينيه وكان حديثه عن احتياج الوطن لي بصوت أبي مع عينيه المغرورقتين بالدموع وإخلاصه يُحيي داخلي سعادة ممزوجة بالفخر.

حكيت عن فيلق تركستان وقلتُ له إني أقسمت أن أفدي استقلال تركستان بروحي لو لزم الأمر وأني سأعود إلى قيادة جنودي بعد أسبوعين، وسنصل بإذن الله إلى حدود تركستان.

تحدث بإسهاب عن قضايا اليوم، وبدا أنه راضٍ عن الألمان، وكأنه كان يعلم أن البلشفيك إذا انتصروا في الحرب ستحل الكوارث بالأمة لكنه لم يقل شيئًا واحتفظ بالأمر داخله.

أغلق عينيه فحسب وأمسك بيدي قبل أن أتم كلامي ثم قال ببطء دفعة واحدة: «تقاوم تركستان عشرة عواصف، لكن القرم، القرم...» كان هو -أيضًا- يريد على الأغلب القول إنها العاصفة الأخيرة على القرم، لكن هذا الموضوع لم يستطع هو ولا أنا حتى مسه، دلف آخرون إلى الحجرة وعرفني عبد الله أفندي بهم، كنت معروفًا بينهم، شخص التقط صورة لي وفي اليوم التالي كانت ستظهر صورتي في الجريدة مع جملة أسفلها: «صادق ابن القرم جندي ألمانيا»، طُبعت وصدرت واليوم هذه الصورة -رغم نجاتي

من العاصفة- في المتاحف بجوار صور الناس العراة المستلقيين في براثن الموت في بلسن[64] وداخاو[65]مع الصور التي أظهرت النازيين يجرون الشيوخ من لحاهم في مزارعهم ويجلدونهم بالسياط مع صور الحرب الأخرى.

بقيت كثيرًا في إدارة جريدة الاستقلال، كنا ننتقل من موضوع لآخر، وكان الشباب الموجودون في الحجرة يحكون عن رجال العصابات الذين يقاومون ألمانيا في الجبال، ويتحدثون بانفعال عن شاب يالاطيّ اسمه حمزة وعن مناوشاته وسرقاته مع المتطوعين الأتراك بين الكتائب الموالية من جبل آي- بيتري[66] إلى جبل تشيتر[67]، وكلما حكوا كلما ازداد خوفي، قائد المتطوعين الأتراك شخص اسمه علي الأيفاسيلي[68] أحد القدماء، كان ممن قتلوا تشرتشر مفوض تشاكا[69] في يالطا في وضح النهار عام 1925، وظل خمسة عشر عامًا في سيبريا وفر منها ثم عاد إلى القرم، كان يُكَفِّر الروس والروم والأرمن ويمرض يوم لا يقطع

64- بلسن (Belsen): معسكر الاعتقال النازي في برجن بلسن شمال ألمانيا. راجع د. رمسيس عوض، معسكر الاعتقال النازي برجن بلسن، مكتبة الأنجلو المصرية، 2007.

65- داخاو بالألمانية: (Dachau) مدينة صغيرة تقع شمال غرب مدينة ميونخ جنوب ألمانيا، وكان فيها أول وأكبرمعتقل نازي في ألمانيا، حدثت فيه أبشع الجرائم الوحشية ضد الإنسانية، تم بناؤه عام 1933 واستمر لعام 1945 وعدد من اعتقل فيه خلال هذه المدة 200 ألف شخص، وتوفي في أرض المعتقل ما يقارب 35 ألف شخص.

66- أي-بيتري(Aypetri) : هو أعلى جبل يقع في شبه جزيرة القرم.

67- جبل تشيتر (Çadır): هو جبل يقع على حدود جواش في تركيا واسمه الآخر جبل أرتوس.

68- أيواسيل (Ayvasıl): هي قرية تقع بين مدينتي بولانجاك وغيرسون في تركيا.

69- تشيكا (Çeka): هي أول مؤسسة أمنية للدولة السوفيتية.

رأس أحدهم، قبل شهرين قبض على اثني عشر روسي وثلاثة روميين في أرجاء رومانكوش(70)، وكان علي بك يبحث مع بضعة رجال عن رجل عصابة بعيدًا قليلًا، كان يركض بجوارنا بينما كنا نطلق الرصاص على الروس والروم ويهتف قائلًا: «الدم يفوح هنا، الدم!» وصرخ في الشباب والسكينة في يده قائلًا: «سأقطع رأس من يقتل هؤلاء الكفار بالرصاص»، ثم ربط أقدام وأيدي الخمسة عشر خلفهم وألقاهم على الأرض ثم قطع رؤوسهم جميعا واحدًا تلو الآخر بسكينته وملأ بهم غرارة وذهب، فتح باب القيادة الألمانية في يالطا وأفرغ بسرعة رؤسهم من الغرارة كما لو أنه يفرغ بطيخًا.

اندهشت من حكايات الشاب اليالاطيّ، فأتيتُ إلى جوار عبد الله أفندي وصدق حدسي حيث أتى الكلام عن فيلق تركستان ثانية، وخلال حديثنا عن كتابة مقالة حول استقلال تركستان فُتح الباب ببطء وميزت رأس والدي في فتحته من وراء دخان السجائر الذي يملأ الغرفة كان يبتسم كأنما يدعوني، فخرجت فورًا، مد ورقة إلى يدي في الرواق شبه المظلم، كُتب في طرف قطعة من جريدة قديمة صفراء بخط أشبه ما يكون بكتابة رجل أمِّي «هذا المساء اذهب إلى طريق بشترك يا صادق. ب.» قرأت الورقة وكان أبي كذلك يطالع وجهي بعينين مذهولتين وخائفتين شيئًا ما بينما

70- جبال رومان- كوش (Romankoş): هي أعلى سلسلة جبلية تقع في جنوب القرم.

أقرأها، وضعت الورقة في جيبي فقال أبي بروية:

- «هي منه على الأغلب..».

- «لا تقلق أبي..».

- «وهل ستذهب؟».

- «أجل».

عانقت والدي ثم نزلنا معًا درج مبنى لجنة التتار القومية، وعندما ابتعدنا عن زحام الجند المتطوعين نصب أبي عينيه اللامعتين على عيني.

- «بِمَ تفكر صادق؟ وماذا تنوي فعله؟».

- «لا أعلم أبي».

أحسست بعذاب قلب الأخ الكبير يوازي عذاب الأب ولم أكن أستطع النظر في وجه أبي، غير أني كنت مضطرًا إلى النظر إليه وإجابته، فلمعت عيناه ثانية.

- «ماذا تنوي؟ هل ستعيده؟».

- «ربما..».

- «لكن ليس جبرًا، مثل أخ... مثل أخٍ يا صادق، لا تنسَ!».

كان فؤاد أبي –فؤاد الأب– يتمزق أمام ناظري وكنت أرقبه بعجز، قلت:

- «حاضر أبي، ابقَ أنت هنا هذا المساء».

نظر إلى وجهي، وكان يبدو على وجهه الألم الذي يشعر به لأجلي ولأجل بكير ولأجل كل الأمة، قبل جبهتي وهو يغادر.

- «في أمان الله جميعًا!».

تفرقنا، تركت أبي خلفي وذهبت.

كان مبنى «المخيم» القابع قديمًا في مكان قريب للسوق على طريق أيقار قد أصبح حاليًا مركزًا للجند المتطوعين، وكان جنديان يقومان بالحراسة أمام باب السيارات المرتفع للمبنى، خرج ثلاثة أو خمسة رجال من الساحة في الداخل، كانوا فتية ذوي أجسام فتية بأزياء نظيفة، دنوت منهم:

- «من رئيسكم، أيمكن أن أراه؟».

أثار زيي العسكري انفعال الشباب، فسأل أحدهم قائلًا:

- «أنت... ألست صادق بك؟».
- «أجل، إنه أنا».
- «كنا قد ذهبنا معًا إلى مدرسة قاياباشي[71]، لا أظن أنك تتذكرني، كنتُ في صفٍ أصغر».

71- قايا باشي (Kayabaşı): هي قرية تقع بين مدينتي غيرسون وكشاب في شمال تركيا.

تصافحت أيدينا.

- «رئيسك ألماني صادق بك، لكنه ليس في الداخل الآن، مساعده فوزي هنا، هل ترغب في رؤيته؟».

دخلنا الساحة، على اليسار كانت توجد إسطبلات للأحصنة وعلى اليمين في الشرفات ذات القضبان الحديدية في الطابق الثاني للمبنى كان هناك جند ذوو قمصان بيضاء منهمكون في تنظيف البنادق وكان بعض منهم ينظر إلى الفناء بلا عمل ولا طاقة، في إسطبل بابه مفتوح كان جندي قامته قصيرة وشعره طويل ينظف أقدام فرس دخل أسفل بطنه، كان الحيوان الشقي يركل الأرض باستمرار وكان الجندي يريد الخروج من أسفل بطنه، فصرخ أحد الجنود بجواري قائلًا:

- «اخرج من بين أقدام الحيوان، يا قاراقوز! سيرفسك».

استمر الجندي في عمله دون أن يرد، اقتربنا من الإسطبل فسألت:

- «لِمَ يدخل تحت بطن الفرس؟».

رفع رأسه:

- «هذا الفرس لا يجعلني أقترب منه، ولا أستطيع الاقتراب منه من أي جهة».

- «أهو مشاكس؟».

- «جدًا..».

- «لم يذق السوط بعد على الأغلب».

- «السوط؟.. إذا رأى السيارة سيذهب، يود لو يطيح الحائط بردفه».

- «لو دخل بين ساقيه أحد..».

تدخل في الحديث شخص من الطرف:

- «هلم أنت أيضًا! فماذا بيدك أن تفعل؟».

- «بيد من؟».

- «لا تصغِ لهذا الرجل يا صادق بك، يظن هذا أن الفرس دراجة..».

أخرج الجندي الموجود أسفل الفرس رأسه:

- «لو دخل بين ساقيه... وهل يجرب فوق الحصان من لا يستطع التجربة فوق امرأة! انظر للهراء، هراء... لو دخل بين ساقي..».

بدأ الجند من حولنا يقهقهون، فأنهى فوزي الذي شق الجمع ودخل بجواري مبارزة المزاح الجارية بين من حولي مع الشاب الساذج الخجول الذي كان يريد امتطاء الفرس:

- «ما هذه الوقاحة يا هذا، احفظ لسانك وإلا! مرحبًا صادق بك،

هذا وغد صفيق ووقح سليط اللسان لا يمكن عقده أبدًا».

تابع مستديرًا للجند الآخرين:

- «أنتم -أيضًا- كالحُمر، هيا اغربوا جميعًا، منحتكم الإذن للجمعة، اذهبوا إلى الجامع وإلا ألقيت بكم جميعًا في الداخل! إما إلى الصلاة وإما إلى الأحصنة..».

تراجع الجند ببطء ووقفوا على بعد ثمانٍ أو عشرِ خطوات، ووقف فوزي أمامي منتصبًا كالعمود، ضرب عقبي حذائيه ببعضهما ثم ألقى تحية قوية:

- «تحت أمرك، كنت تريدني».

لم يكن فوزي صارمًا كما يبدو عليه، كان الجند المتطوعون يعلمون هذا جيدًا لذا التفوا حولنا من جديد شيئًا فشيئًا.

- «ليس لي طلب خاص فوزي، كنت أراقب خيولنا فحسب».

أدار رأسه إلى الخيول:

- «هذه هي أفضلهم، لا تعبأ بكونها عنيدة قليلًا في شوارع المدينة فعندما تخرج للبراح تكون كالريح، وما في الخلف جيدون كذلك لكن الألماني يمتطي ذلك الأشهب فمع أنه مثل الحمل إلا أنه يعدو بسرعة، جربه لو ترد».

- «إلى أي جهة تريد الذهاب؟».

- «هل يمكننا الذهاب إلى طريق بشترك؟».

- «إلى أي مكان تريده».

تدخل الجندي الذي كان ينظف أقدام الفرس منذ قليل في الحديث:

- «لو تنوي خطف فتاة في بشترك فامتطي هذا سيدي».

بادره فوزي:

- «اسكت يا هذا! سأفقأ عينك، وهل أخذ رأيك؟ لا تتدخل في عمل الكبار!».

رغم شدة فوزي تدخل في الحديث آخر من الطرف:

- «لو ذهبت بزيك أخاف أن تجعل فتيات بشترك يفرون منك صادق بك!».

غضب فوزي ثانية:

- «هيا يا أنجاس، اغربوا!».

ثم أمر جندي:

- «كريم اذهب أنت وأحضر بندقيتين آليتين وستأتي معنا، سننظف أطراف بشترك جيدًا، هلم مارش! خذ عدة قنابل يدوية!».

- «تحت أمرك!».

ركض الجندي إلى المبنى فدخلنا نحن وأخرجنا الخيل، عبرنا الجسر الحجري فوق نهر سالجير[72] بجانبي فوزي وخلفنا بثلاث خطوات الجندي كريم ثم سرنا في أرجاء بشترك؛ حل مساء رطب على بيوت آق مسجد وراءنا، كنا نهبط منحدر الطريق المرصوف بالحصباء وعلى اليسار شجر السرو الطويل والساكن وفي الوراء قليلًا قرية تشوكورجا[73] المغشاة بأصوات خافتة كأنها تصغي لأصوات حدوات حيواناتنا داخل الصمت، لم يتكلم فوزي واستغرقت أنا -أيضًا- في التفكير، نظرت إلى بكير الذي بُعث أمام ناظري منتهزًا صمت فوزي وظللت أتحدث مع بكير داخلي، أين سنتقابل، كيف ومتى؟ ماذا سأقول له؟ كانت أعماقي ورأسي وما حولي فراغًا، لا أعلم لأي مدى ذهبت في هذا الفراغ، مد فوزي صحنًا فوق رأس الفرس:

- «هلا لففتها صادق بك؟ لا يمكنني تدخين سيجارة جاهزة».

توقفنا، لففت سيجارة من صحن فوزي، اقترب كريم الآتي من الخلف إلى جانبي الأيسر وقال فوزي معتدلًا فوق السرج:

- «حل الظلام سريعًا وكأن الليلة ستمطر»، أشعل كريم قداحة في يده فوبخه فوزي بصوت متقطع:

72- نهر سالجير (Salgır): هو أطول أنهار القرم ينبع من جبل تشيتر ويصب في بحر آزوف مارًّا بمدينة آق مسجد.

73- قرية تشوكورجا (Çukurca): هي مركز آق مسجد.

- «أطفئ النار، أحمق!»، ثم أدار رأسه إلى المزارع الممتدة على يمين الطريق وقال بنفس الصوت:

- «أتعلم كم عينًا تقبع وراء هذه المزارع وداخل الغابات، قالها ثم أشعل قداحته ومدها إليَّ مخفيًا لهبها داخل راحتيه، أشعلنا سجائرنا، اكتسى وجه فوزي بالقسوة الآن حقًّا، كان صامتًا وكلما طال صمته ازداد وجهه عبوسًا.

نظرت إلى وجهه وقلت كأنما أريد أن أخفف حدة وجهه:

- «هل يوجد خطر في هذا الاتجاه؟».

رد قائلًا:

- «يوجد صادق بك، منذ شهرين ذُبح جندي ألماني على حافة الطريق، وجدنا جثته داخل حفرة، كان عاريًا تمامًا ولُفت أسلاك شائكة من أعلى جسده حتى قدميه، وكانت هناك خشبة على قامته وكُتب عليها بدم الضابط جملة «أسلاك معسكرات الأسر»».

- «اممم، وماذا فعل الألمان؟».

- «مشَّط الألمان أطراف الغابات عدة مرات ولم يستطيعوا أن يعثروا على أي شيء، فذهبوا وثأروا من القرى المحيطة».

- «أي ماذا فعلوا؟».

- «جمعوا خمسمائة رجل من القريتين وأحضروهم إلى حافة الطريق، صفوا الخمسمائة في صف ورموا الأول فالثاني... فالخامس... فالتاسع، فالعاشر... بالرصاص في رؤوسهم، وهكذا نظفوا أيادي الخمسمائة قروي».

لم أكن أرغب في أن يقول فوزي المزيد، تراكمت الآلام داخلي مثل سم، كان هناك حقد بداخلي، لا أعلم تجاه من كان، تجاه كل شخص وكل شيء كان على الأغلب... لكن بعد شهر، أيام ما كنا نطلق النار على القرى الروسية، وعندما كنا نضرم النار في ستالينغراد(74) كي نسويها بالأرض ولتمحى الدنيا إذا لم تحيا أُمتي لم يكن بداخلي هذا الحقد؛ وكأني كنت مسرورًا.

وراء المزارع الغارقة في الظلام اشتعلت نار كأنها لهب قداحة وانطفأت، نظرت إلى المكان الذي اشتعلت فيه النار وانطفأت على اليمين دون أن ألمح أي شخص، فقررت فجأة أن أشعل النار وأطفئها ثانية، خرجت إلى جانب الطريق الأيمن وقلت:

- «هذا الفرس ليس سيئًا يا فوزي».

- «هو كذلك سيدي، وفرسي -أيضًا- ليس سيئًا».

74- مدينة ستالينغراد (فولغوغراد اليوم) (Stalingrad): هي إحدى مدن روسيا تقع جنوب شرق الجزء الأوربي من روسيا الاتحادية وتعتبر مركز إقليم فولغوغراد (أوبلاست فولغوغراد) من المدن البطلة في الاتحاد السوفيتي وهي التي حدث فيها معركة ستالينجراد الشهيرة في الحرب العالمية الثانية.

غصت في الظلام كأني أهمز الحيوان وقلت:

- «لا أعلم لأرى وأعاين فرسك».

لم يكن الفرس طليق العنان بل كان يتمدد ويطير كأنه سمكة؛ التصق رذاذ المطر على وجهي مثل نسيج رقيق خضل، وكنت أدير رأسي بين الفينة والأخرى وأنظر ورائي ولم أكن أرى شيئًا غير الظلام، أدرت الفرس إلى جهة الطريق اليمنى؛ انقطعت الآن بغتة كل أصوات الحدوات على التراب الناعم وكان يُسمع في السكون تنفس الحيوان العميق فحسب.

بعد دقيقة أو دقيقتين مرت من الطريق الحجري حيوانات فوزي وكريم القادمين من الخلف وتلألأت ومضات على نعالها واخترقت الظلام؛ بقيت وحيدًا في المزرعة؛ في الظلام، كنت أنا فوق الفرس وبكير الذي لا أعلم أين يختبئ فحسب؛ قفزت على الأرض وأمسكت ركاب الحيوان وسرت إلى الغابة، كنت أتفحص كل ما حولي أملًا في أن أرى الضوء لكن لم يكن هناك أي شيء على ما يبدو، خبا أملي في لقاء بكير شيئًا فشيئًا، وفضلًا عن هذا كنت على وشك تقرير التراجع والعودة إلى الطريق، توقفت وأنصت؛ صمت مطبق في الأرجاء، قلت لأنتظر قليلًا، ثم سمعت فجأة صوتًا مثل خشخشة في الدغل على يساري؛ حتى حيواني نصب أذنيه، وهز رأسه؛ بِتُّ أشعر في أعماقي بظلام ما حولي وببرودته وغموضه، وخشخش الدغل مرة أخرى، هل كان بكير؟

قلتُ هامسًا:

- «بكير!.. بكير!.. أخي..».

أحسست بالظلام يزداد قتامة والصمت يزداد عمقًا والبرودة تزداد حدة.

- «أخي، أهو أنت؟ لا تخف! أخوك الأكبر صادق هنا».

في هذه الأثناء صدر صوت ليس من فمٍ بل كأنه يخرج من الظلام:

- «اقترب!».

سرت في الاتجاه الذي جاء منه الصوت، كأنما كان تعبئة سلاح، توقفتُ، وحل صمتٌ استمر طويلًا خلال هذا، تقدمت ثانية فخشخش السلاح ثانية.

- «بكير أهذا أنت؟».

- «هل أنت بمفردك؟».

- «أنا وحدي».

- «هناك رجالك على الطريق».

- «إنهم على الطريق لا تخف..».

- «أشعل كبريتًا!».

- «لا تخف! أنا بمفردي، أخوك الأكبر صادق».

- «أشعل كبريتًا وأطلعني على وجهك!».

أشعلت كبريتًا بيدي المرتجفتين فأضأتُ وجهي، واشتعلت قداحة في طرف الأدغال ففتحت الحدود السوداء لعالمين فَرَّقَانا، وارتبط الأخوان ببعضهما.

نجمة حمراء مثل بقعة دم جاف على جدران N.K.V. D.، وصليب معقوف معلق في مخالب نسر ألمانيا على صدري، وكأن لقاء الأخوين وارتباطهما ببعضهما هو نموذج لأُمتي جمعاء.

قرب بكير وجهه الرقيق من وجهي وقبَّل بشفتيه المحمومتين وجنتي ويدي ولحيتي.

- «قالوا إنك مت، قالوا مت... خرجت إلى الجبال كي آخذ بثأري، لكن لتتركني أخي لأعيش في الجبال، فالألمان سيئون... رأيتهم بعينيَّ يقتلون الطفل، رأيتهم بهاتين العينين، اتركني، هل أتيت لأخذي. دعني!».

- «لا تخف بكير... لا تخف!».

- «أتيتَ لأخذي، اتركني... دعني... رجالك هناك على الطريق، لِمَ لَمْ تأتِ وحدك؟ اتركني...».

- «بكير! بكير!».

- «لا أصدقك، أنت -أيضًا- ألماني! أتيت لتقتلني! دعني!».

أفلت بكير من يديَّ وقذف بنفسه في الأدغال.

- «قف بكير!.. بكير عُد!».

- «أنت -أيضًا- ألماني! لست أنت أخي الكبير، لن أذهب!».

- «بكير أقسم لك أني لم آتِ لأخذك».

- «رجالك هنالك على الطريق، نصبت لي فخًّا».

أتى صوت فوزي من بعيد داخل الظلام!

- «ماذا هناك؟ صادق بك!».

صمت كلانا، وأسفل الظلام حلت ليلة بكماء على الأراضي فجأة ودخلت بيني وبين بكير وفرقتنا عن بعض، كان سكون الظلام مستمرًّا ومخيفًا، قذف بي هذا السكون إلى الأراضي التي تركتها، وإلى المآسي، وإلى الموت بكل كياني وبكل روحي.

حدثني الظلام الساكن بلا صوت أني لم أكن من هنا، وكان يأمرني بأن أذهب إلى المكان الذي أتيت منه، فبعد هذا كان بكير سيعود إلى عالمه وكنت سأعود إلى عالمي؛ صدر صوت فوزي ثانية: «ماذا لديك صادق بك؟».

بعده صمت من جديد، طقطقة أخرى، صوت من وراء الغابات «أنا خائن لك» وأمام عينيَّ ابتلع الظلام بكير سريعًا ولم يُعد

هناك، ليس في أي مكان، لم أكن قد رأيتُ بكير، من تحدث معي منذ برهة ليس بكير بل الظلام ذاته، كنت قد تحدثت أنا لا غير مع الظلام...

بعد قليل صدر صوت فوزي قريبًا أكثر:

- «ماذا يوجد هناك؟».

- «لا شيء مطلقًا يا فوزي..».

- «كنت تتحدث مع شخص!».

- «لم أكن أتحدث مع أحد».

- «لو قروي فلتقتله النجس... في ليلة كهذه لا يتجول إلا البلشفيك».

- «لا أحد هنا يا فوزي، كنت أحدث نفسي».

خرج فوزي وكريم من الظلام على فرسيهما ووقفا بجواري.

- «رأينا لهبًا من الطريق».

- «أنا أشعلتُ قداحتي، انفلت سرج الفرس قليلًا، حيوانك هذا ساذج للغاية يا فوزي، ما إن نزَّقْتَه في الطريق حتى انطلق إلى المزرعة».

- «هنا خطر سيدي، يجب أن تنتبه... كريم! ما يجلسك فوق حصانك مهندمًا!.. انظر أسفل إلى سرج صادق بك والحصان».

- «لا تقلق فوزي، لقد ربطته.. وهو جيد الآن».

امتطينا خيولنا ورحلنا إلى آق مسجد، لم يكن ما فقدته في الظلام هو بكير فحسب؛ بل القرم برمته، قرم التتار فر من عينيَّ ومن أعماقي ومن روحي وابتلعه الظلام؛ ولجنا حيًّا روسيًّا بدت أضواء منازله باهتة من بعيد، سطع البدر في الأفق الجنوبية بين السحب ونثر أشعته على مياه سالجير، بينما كانت سماء الشمال حالكة السواد، وانسابت من شفتيَّ تلك الأبيات الموجعة كأن فؤادي يستشعر كل فزع العاصفة الأخيرة.

يا للسحابة التي خرجت من القرم

أستمطر على حبيب،

تروي وأبكي أنا الآخر...

(4)

كان خريفٌ ممطرٌ وباردٌ، ذهبت إلى قريتنا بعد أن أقمت أسبوعين في آق مسجد، وبقي وراء جبل تشيتر الذي تلف قمته الضباب، حين كنت أهبط إلى ألوشتا[75] كانت أسطح الحداد تخمد والآفاق خلف البحر الساكن تُجدل بصوت رقيق فالمساء يهبط... توقفت السيارة أمام مقهى قريب من المرفأ، تبعث الحرب الحياة في ألوشتا وتنشر البهجة في هذه الأرجاء عادة، فقد كان المقهى ملهى للجند وكانت تصدر أصوات التانغو من الداخل، نزلت من السيارة.

قال السائق رمزي البطلاجي ابن بلدتي:

- «لدي عمل في الموقف لمدة نصف ساعة، أين أجدك سيد صادق؟».

أجبت: «في المقهى»، ودلفت للداخل.

كان الملهى مزدحمًا للغاية، عثرت على مكان بجانب النافذة وجلست وظهري مدار إلى الشارع، كانت أمامي امرأة سمراء

75- ألوشتا(Aluşta): هي مدينة ذات أهمية إقليمية تقع على الساحل الجنوبي للقرم.

طويلة القامة ذات وجه رقيق واقفة تنظر إليَّ، كانت متبهرجة بإفراط، وتبتسم ناظرة إليَّ تمامًا، عندها لم يعد في مقدوري أنا الآخر تحريك عينيَّ عن عينيها الجميلتين، وكأن جمالها مغشي بألم غامض قابلت ابتسامتها الحزينة بابتسامة أنا الآخر.

أتت إلى منضدتي فجلست، وربما حسبتني ألمانيًّا فتحدثت بالألمانية:

- «مساء الخير[76]».

- «مساء الخير».

- «الوحدة، سيدي الملازم؟!».

- «أجل، الوحدة..».

- «من أحبه ضابط يحب الوحدة..».

ران الصمت برهة، ثم سألت قائلة:

- «هل تلهو معي؟».

- «شكرًا، أُفَضِّل الحديث».

نهضت ببطء وتخللت شعري بأصابعها الطويلة ثم قالت:

- «هل الحديث فقط؟».

76- بالألمانية Guten abend.

أخذتُ يديها بين راحتي ونظرت في عينيها:

- «ما اسمك؟».

- «عائشة..».

- «اعتدتي سريعًا على المدنية الغربية!».

لم تفهم ما أردت قوله على الأغلب فلم ترد، وصدرت في هذه الأثناء من خارج النافذة صرخة شخصٍ صوته مبحوح كأنه يقود شيئًا فاستدرت ونظرت إلى الطريق، في الخارج كان يوجد جسد قُطِع قدماه، سرت في رجفة تلقائية، وأدركت عائشة خوفي غالبًا فنظرت إلي بعينيها المصطبغة وصمتت، أما نصف الإنسان القابع في الخارج فكان يصرخ بوحشية ويضرب صدره بقبضتيه وكأنه يحاول أن يشرح شيئًا بيديه، كان يتقلب على الأرض مثل صندوق بين الفينة والأخرى، ويرفس ثم ينهض ويثب فوق لحم فخذيه.

نهضت على قدمي ووضعت يدي على كتف عائشة ثم سألتها بالتتارية:

- «ألديك أطفال يا عائشة؟».

انسدلت رموشها السوداء الطويلة على عينيها وقالت كما لو أنها ترد على شخصٍ آخر:

- «اثنان يا سيدي».

- «وأين زوجك؟».

- «كان في الجيش الألماني... واستشهد في أقيار[77]..».

لم تلبث دموعها المتجمعة بين رموشها أن انسابت على وجنتيها إلى الأسفل ما إن تحدثت، فدارت وجهها بيديها وفرت من جواري بغتة، خرجت أنا الآخر من الملهى وذهبت إلى الموقف، كان الجسد الذي بلا قدم الذي رأيته من النافذة ودموع عائشة قد زعزعا كياني بشدة، فسألت رمزي ابن بلدتي والسيارة تصعد الجبل بحشرجة:

- «هل كنت مقيمًا في ألوشتا في ما مضى رمزي؟».

- «أسهر في ألوشتا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع سيد صادق، الألمان على الجبال يمنعون قيادة السيارة بعد حلول الظلام، كان هناك متعصبون كثر في شارع آق مسجد غير أنه لن يبقى أحد بعد شهر أو شهرين، متطوعونا التتار يقضون عليهم..».

كان الظلام قد هبط على الجبال، وعلى قمة جبل آيي[78] ظل

77- سيفاستوبول أو سيباستوبول (أقيار بالتتارية) (Akyar): هي إحدى مدن أوكرانيا، تقع في شبه جزيرة القرم وتتطل على البحر الأسود. تشتهر دائمًا بأنها مدينة المجد العسكري الروسي ولها أهمية هائلة في تاريخ روسيا العسكري وهي حاليًا مقر لأسطول البحر الأسود الروسي.

78- جبل أيو بالتتارية القرمية (ميدفيد بالروسية، آيا باللاتينية) (Ayı Dağ): هو قمة شبه جزيرة القرم ويقع شمال شرق يالطا بين بلدتي غورزوف وبرتنيت.

القمر الذي أرخى سدوله على البحر ينظر في عينيَّ كأنما يرغب في مرافقتي، وظل رمزي يحكي عن رجال العصابات الذين يقومون بغارات في ما بين ألوشتا وآق مسجد أما أنا فكنت أفكر في قراسونيا...

- «قبل الحرب كان هناك صياد اسمه جريشة في ألوشتا..».

ضحك رمزي:

- «ليس هناك من يعرف الصياد جريشة الآن في ألوشتا سيد صادق، المسكين أصيب في الحرب وبُترَت ساقاه، مضى شهران منذ عاد إلى ألوشتا، توجد بجانب المرفأ خيمة، يتحدث فيها طوال اليوم مع نفسه متأملًا في البحر، وما إن يحل المساء حتى يخرج أمام المقهى زاحفًا ويروي حكايات الحرب للأطفال وللمارين، لا أعلم كم مائة من الألمان قتل بمفرده، لا يأبه بالمطر أو الطين ويحاول أن يحكي كيف قتل الألمان للمارين أمامه في الطريق، فقد عقله على الأغلب لكنه ليس من المجانين المؤذيين حتى الجنود الألمان يستمعون لقصصه ضاحكين..».

ما كنت سأقوى على مقابلة جريشة بعدها، أراه الآن بينما أكتب هذه الأسطر كما لو أني أرى نصف جريشة القابع أمام ملهى ألوشتا، فيا تُرى أما زال أمام مقاهي ألوشتا يروي كيف قتل الألمان للمارين؟!

(5)

ما كنت أستطيع المكوث أكثر في القرم بعد ذلك، طيبت خاطر أمي قبل العودة إلى الفيلق، ومررت من قريتنا وذهبت إلى أيواسيل والتقيت ببنت العمدة وعائلتها، وبينما أمر من ألوشتا أعياني كالعادة جريشة الكائن من رأس وجسد وذراعين يتدحرج كأنه صندوق أمام الملهى ويروي حكايات الحرب للمارين، أتيت إلى أيواسيل وإلى الفتاة التي تحبني والتي عقدت أمنياتها عليَّ مثل أكثر إنسان وحيد ومنبوذ في الدنيا، وصلت إلى قريتي ليلًا، خالي منصور كان يعلم بمجيئي وانتظرني لساعات أمام الجسر وفي يده مصباح وبجانبه ابنه الأكبر، ذهبنا إلى منزله وكانت المائدة معدة انتظرني الصغار طويلًا ولمَّا لم يتحملوا ناموا منكمشين كالقطط على الأسرة والفُرش، عانق خالي أطفاله وحملهم إلى غرفة النوم واحدًا فواحدًا، وبعد أن نام الجميع خلوت بخالي وجلسنا على ضوء المصباح الخافت وأفضينا بهمومنا حتى الصباح.

كانت العائلة الروسية الفورونيجية[79] لا تزال في بيتنا، فيوم خروج البلشفيك من يالطا أتى القرويون وفي أيديهم الفؤوس

79- فورونيج (Voronej): هي مدينة تقع في جنوب غرب روسيا وهي قريبة من الحدود مع أوكرانيا.

وألقوا العائلة الروسية من منزلنا، بحثت العائلة الروسية في اليوم التالي عن خالي ووجدته فتوسلوا إليه ورجوه أن يبقوا في المنزل حتى يعثروا على محل آخر، أخبر خالي أبي بالأمر في رسالة، فقال أبي لديهم صغار هذا ذنب، دعهم وليبقوا في المنزل، وهكذا استقرت العائلة الروسية في البيت ثانية.

في اليوم التالي ذهبت مع خالي ورأينا البيت قبل أن أتحرك إلى أيواسيل، تهاوت أشجار البلوط القابعة أمامه، وقفنا بعيدًا وتطلعنا مليًّا إلى البيت وإلى الروسي بيد أننا تمالكنا أنفسنا بصعوبة لئلا نبكي في الأرض الساخطة على الروس، استدرنا وسرنا إلى الحي المواجه وفيه كانت سيارة السائق رمزي تقف في الساحة، كان ثمانية أو عشرة رجال أسفل جدار الجمعية التعاونية يتفحصوننا من بعيد، أحدهم بشارب مفتول بدا الأقل شيبًا بينهم وهو يقترب من السيارة أتى إليَّ مهرولًا وعانقني ثم قبل عيناي وجبهتي قائلًا: «أخي صادق! أخي صادق!».

سألت خالي منصور بينما تقترب السيارة من مطلع مميش من هو ذو الشارب فرد خالي ضاحكًا:

- «سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء».

- «أهو سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء؟!».

- «حقًّا، ياه، ما هذا؟ أو كنت أنت الآخر تريد الانتقام؟».

- «مذ يوم مغادرتي وارسو وأنا أفكر فيه يا خالي».

اكتسى وجه خالي فجأة بالجدية ووضع يده الضخمة على كتفي ثم قال ناظرًا في عيناي: «انسَ صادق، انسَ...».

اليوم أنا نسيت، وأتمنى من الله أن يمحو الحقد والكره من أفئدة كل سيد أحمد وكل صادق خاصتنا وأن يملأ أفئدتهم بالخير.

كانت الجبال -التي ترتفع تدريجيًّا حتى هضبة رومان كوش أمامنا- والمروج تشتكي أسفل أشعة شمس الخريف وعلى اليسار كان البحر الذي يعكس ألوانها يبدو ساكنًا في الوقت الراهن، كنت لا أزال أفكر في سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء، فقال خالي كأنه قرأ أفكاري:

- «أما زلت تفكر به؟».

- «أجل يا خالي، لِمَ قلت آنفًا أنت الآخر؟ أوهناك أحدٌ غيري؟».

رد خالي ضاحكًا:

- «كان يوجد».

- «كان يوجد وماذا حدث؟».

- «أخذ بثأره».

- «من كان؟».

- «هل تعلم الذئب عثمان؟».

- «لا أتذكره جيدًا لكن سمعت اسمه».

- «خرجوا من القرية مع أبيك غير أن المصيبة التي ألمت بهم كانت أعظم مما تعرضتم له، ذهب بكل عائلته إلى سيبريا، حينئذ كان ابنه نجدت الذي بعمرك يدرس في المدرسة الفنية لآق مسجد وفر عندما سمع هذا الخبر الأليم، اختبأ عند أحد أقربائه البعيدين في قاراسوبازار، كان سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء قد فعل بعائلة الذئب عثمان ما فعله بكم في سنوات النكبة تلك».

كان نجاد يعلم هذا ولم ينسه... فما إن نظف الألمان القرم من البلشفيك حتى حضر إلى القرية وتم تسجيله جنديًّا متطوعًا.

- «حقًا؟».

- «أجل... لهذه الدرجة!».

- «وهل أخذ بثأره؟».

ضحك خالي مجددًا.

- «يعني هذا أنك تريد أن تعرف النهاية؟».

- «أريد».

- «انصت إذًا، كان نجدت طفلًا في الثانية عشرة عندما أجليت عائلة الذئب عثمان من القرية، كان سيد أحمد لا يذكُر نجدت،

ولا يعلم حتى بوجود أحد من عائلة الذئب عثمان في القرم، ذات ليلة أتى نجدت إلى القرية وذهب مباشرة إلى بيت سيد أحمد ودق بابه، فخرج سيد أحمد إلى الباب بالسروال الداخلي والقميص وعندما رأى جنديًّا دعاه للداخل ظانًّا أنه رجل يبحث عن مكان للمبيت، لم يدخل نجدت البيت ودعا سيد أحمد إلى الخارج فدخل السيد أحمد منزله وأراد أن يرتدي فروه لكن نجدت لم يترك له الفرصة لهذا وأخرجه عنوة، أسند سبطانة مسدسه على مؤخرة رأسه، وأجبر الوغد على السير من القرية والحدائق بسروال داخلي على ساقيه وقميص لا غير على ظهره العاري ذي المرتفعات والمنخفضات، وأحضره إلى تل جالين قايا، كانت يدا وقدما سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء يرتجفون من الخوف، وتوسل طويلًا إلى الجندي قائلًا: «أخي ماذا فعلتُ ومن أنتَ؟ أخبرني بذنبي ولا تقتلني في مكانٍ بلا ذنب هكذا، عندي أطفال»، لكن نجدت لم يرد عليه حتى، اقتربوا في النهاية من طرف جالين قايا وحينئذ أمر نجدت سيد أحمد قائلًا: «اجلس!» وعندما جلس سيد أحمد قال نجدت:

- «فكرت كثيرًا في أبنائك الآن لكن جُرمك عظيم للغاية سيدي سيد أحمد لن أعفو عنك».

أراد سيد أحمد أن يفهم مَن الجندي ومِن أين يكون ولِمَ سيموت، مهما توسل وتضرع ما كان هذا يجدي نفعًا، فما كان نجدت

ليتراجع عن قراره.

قال: «سأقتلك، غير أنك إذا جثوت أمامي وعددت لي السيئات التي فعلتها للناس واحدة فواحدة سأقتلك برصاصة من مسدسي، وإن لم تقلها ستقذف أسفل جالين قايا أي طريقة اخترتها للموت قل!»

جثا سيد أحمد على الأرض حينئذ، وعدد خياناته التي فعلها واحدة تلو الأخرى ما فعله بعائلة بطل وبكم وبالذئب عثمان وبالجميع... استمع نجدت بدقة طويلًا لكل هذا، وفي النهاية قال: «أنا نجدت بن الذئب عثمان»، تمسح سيد أحمد بأعتاب نجدت وتوسل كي يطلق سراحه، فأمره نجدت قائلًا: «انهض!»، قام سيد أحمد فأسند نجدت مسدسه على صدر الوغد، وبعد أن صرخ ثلاث مرات قائلًا: «سيد سيد أحمد! سيد سيد أحمد! سيد سيد أحمد!»، قال: «مهما جاء هذه القرم قوادة سواء حمر أو بيض، فلن تسيء لأمتك أكثر، هل فهمت؟ هيا اذهب الآن إلى أطفالك.»».

صمت خالي فقلت: «مرحى!»

- «مرحى لكن لمن؟ لنجدت أم لسيد أحمد؟».

- «لنجدت طبعًا».

- «إلى هنا لنجدت لكن الأمر لم ينته هنا!».

- «ماذا حدث بعد ذلك؟».

- ذهب سيد أحمد ابن أسماء الشمطاء إلى أطفاله وعاد نجدت كذلك إلى آق مسجد، وبعد ثلاثة أشهر عندما أعيدت أراضي الكولخوز إلى أصحابها واستعاد نجدت بساتينه وكل مزارعه ثم..».

- «اييبه؟».

- «هل تعرف ليلى بنت سيد أحمد؟».

- «أعرفها».

- «تزوج نجدت بليلى».

- «كلا، عزيزي!».

- «أو تزوجت ليلى بنجدت... رأت الفتاة نجدت ذات يوم، وأحب نجدت الفتاة، أي أنهما أغرما ببعضهما، توسلت الفتاة لأبيها، وتناقشت زوجة سيد أحمد معه وأدركوا أن نجدت -أيضًا- عشق الفتاة فعقدوا القران سريعًا».

بعثوا الدعوات إلى الأقارب كافة، ودعوا كل القرية إلى الفرح، كانت فرقة موسيقية خاصة ستأتي من باغشة سراي[80] وأُخرِجَت ربما خمسون شاه من الهضبة، وسيتزوجان الأسبوع القادم.

كنت أفكر في ليلى ونجاد بينما السيارة تدخل يالطا...

80- باغشة سراي(Bahçesaray) : هي مدينة تقع في جنوب جزيرة القرم وكانت عاصمة خانية القرم.

سرنا في الطريق النظيف الذي يصل إلى المطلع المفروش بالحصي بين فروع الأشجار المتدلية من جدران الحدائق، ثم توقفنا أسفل عريشٍ أمام منزل العمدة صبري ذي السطح الأحمر والجدار الأبيض في نهاية الطريق، بقيت في مكاني، ودخل خالي منصور المنزل وبعد خمسة دقائق ظهر شخص في الشرفة على ارتفاع متر ونصف وامرأة بجانبه ذات شعر أسود لامع، مدت المرأة يديها فجأة وصرخت بلهجة ساحلية:

- «جاء فاتني! جاء زادي! لم يقل خالك لكني أعرف صادق ابن فاطمة من بعيد... فلو صدقت الدنيا لكنت أنت الآخر ابني!».

صعدتُ إلى الشرفة، وضعت يديها على كتفي وقبلت جبهتي كأنما تقضم تفاحة ثم أمسكت ذراعي وأدخلتني الغرفة، كانت الغرفة مثل وردة نقية بصحونها اللامعة على الأرفف ومناشفها وسجاجيدها على الجدران ومقاعدها ذات الوسائد، أجلستني على مقعد، وجثت أمامي، كانت عيناها الواسعة تشتعل مثل جمرة تحت حاجبيها الرفيعين كأنما خُطا بقلم:

- «أتت أخبار سيئة للغاية من آق مسجد البعيدة، لكننا لم نصدق وإذا رآك ولدي صبري على هذه الحالة ماذا يقول؟ سيظنك ألمانيًّا، وترتعد فرائصه... لو تعلم كم فرحنا بمجيئك، طرنا من الفرحة!».

مدت السيدة يديها ثانية وأمسكت بيدي، لا تعلم ما ستقول

وكيف ستتحدث، ترقرقت في عينيها الدموع...

كأني قد ولدت في هذا المنزل وترعرعت فيه ثم فُقدت بعد أن ظللت ابنًا لهؤلاء الناس لأعوام، والآن أظهر أمامهم بغتة، كنت أرى هؤلاء الناس لأول مرة حقيقةً، فماذا يربطني بهم على أي حال؟ حتى هذا لم أكن أعلمه جيدًا.

تتحدث السيدة بسرعة كبيرة وتنتقل من موضوع لآخر، ثم تصمت فجأة وتنصب عينيها على عينيَّ حينًا وتضع محرمتها على عينيها حينًا آخر:

- «بلغنا الكبر يا ولدي، كنت وأمك في صبانا كالأختين، من كان يتخيل أننا سنرى هذه الأيام، حدث ما لم يتخيله عقل، وسنرى المزيد، انهارت الأمة الضعيفة للغاية... فوق غابة، غابة. لكن مهما يكن أسيحل بنا غير المكتوب على جباهنا؟! وهل يا ترى سنرى محظوظين أبناءنا قبل الموت؟».

صدرت أصوات من الخارج فاقتربت السيدة وأمسكت بيدي:

- «هاهما أتيا... زكية مع والدها..».

بعد ذلك نهضت على قدميها وعانقتني ثم خرجنا إلى الشرفة خالي بجانبي وبجانبي الآخر زوجة العمدة صبري.

في الأسفل كان العمدة صبري قد وضع حطبه على الأرض لتوه وجلس على طرف الصندوق وأخذ يلف سيجارة، كانت إلى

جواره فتاة في قدميها خف وجراباها من الصوف السميك تصل حتى ركبتيها، جسدها قوي يلفه عباءة ضيقة، نهداها متناسقان، عريضة المنكبين، ناضجة تمامًا تنظر إلى أمها بجواري ممسكة عنزة بحبل.

لم يبدُ أن العمدة صبري قد رآنا، كانت الفتاة شبه خائفة فلم يمكنها أن تحول ناظريها عن أمها.

تحدث خالي:

- «هلا رأيتَ من ينظر إليك سيد صبري!».

رفع العمدة صبري رأسه ودفع فروته إلى صدره فسال العرق المتجمع على جبينه ونهض على قدميه بهدوء ثم سار إلى الشرفة وكان ينظر إليَّ وينظر أكثر إلى زيي ثم قال:

- «أستغفر الله، سيد منصور..».

- «لا تخف! ليس ألمانيًّا، إنه منَّا لكن اعرف من هو ولنرى».

توقف العمدة صبري على بعد خمس خطوات من الشرفة، وظللت أنظر إلى الفتاة، أما الفتاة فكانت تنظر تارة لأمها وتارة لأبيها بعينين اتسعتا أكثر من الدهشة.

كان خالي هو من تحدث ثانية:

- «لن تستطيع معرفته سيد صبري فلا تفكر بلا طائل، إنه

صادق ابن السيد حسين..».

لم يكد خالي منصور يتم جملته حتى ركض العمدة صبري إلى الشرفة فاتحًا ذراعيه وقال بانفعال:

- «أأنت الابن صادق؟ هربت الفتاة فجأة مخفيةً وجهها بيديها كما ألقت حبل العنزة على الأرض وتوارت بين الأشجار..».

كنا سنعود إلى قريتنا مساء نفس اليوم، لكن العمدة صبري وزوجته ألحوا علينا فبقينا، جلسنا بعد طعام العشاء على المقاعد في غرفة الجلوس وشربنا قليلًا من شراب أيواسيل وأفضينا بهمومنا، فقد كنت أكثر من قريب لهم كنت كابن حتى، وكأن كلانا قد تناسى بأي مقصد أرسلتني أمي إلى هذا المنزل ولِمَ ضايفني هؤلاء، وإذا بزكية تدخل إلى الحجرة، جلست على حافة الفراش، كان عليها عباءة حمراء، وتبدو وجنتيها أسفل شعلة النار التي تضيء وجهها أكثر حمرة، بات جسدها كله أشبه بجمرة، كنت أحاول ألا أنظر إليها لأنه كلما نظرت إليها كانت تسدل رموشها السوداء الطويلة على عينيها، وتفتش عن مكان لتخبئ يديها اللتين فشلتا في القيام بعمل لئلا يراهما حبيبها الحضري أو تدخلهما تحت ساقيها، زكية المسكينة! العائلة المسكينة! عقدوا عليَّ آمالًا كثيرة! تبعوني في اليوم التالي لأجل إيصالي وفي يد أبيك حقيبة ثقيلة داخلها مملوء بالهدايا المختلفة، جاؤوا من أيواسيل حتى آق مسجد، ولم يفارقوني حتى ركبت القطار وتحرك من آق مسجد.

ليلة يوم عودتنا من أيواسيل أتت أمي بمحاذاة فراشي في وقت متأخر وجثت على ركبتيها ثم حكت بانفعال أن زكية تحبني وتهيم بي وترضى أن تنتظرني، زكية المسكينة! أمي المسكينة! ألا زلتما تنتظراني؟

ملأنا كلنا أمي وأبي وخالي والعمدة صبري وعائلته والأقارب والأنسباء أربع عربات بأحصنة وخرجنا من شارع قضا عسكر قبيل المساء الممطر، وكأن عائلتينا شعرتا بأن هذا الفراق سيستمر طويلًا وسيكون شاقًّا كثيرًا فتركاني مع زكية بمفردنا، ولم نترك يدي بعضنا في العربة حتى وصلنا إلى المحطة، كانت تقول وهي تنظر بعينيها الدامعتين في عيني ورأسها على كتفي:

- «حبيبي صادق! سأنتظرك حتى الموت وإذا لم تأتِ سأظل عزباء... لا أريد أحدًا غيرك، سأبقى عزباء حتى الموت».

عانقت زكية قبل نزولي من العربة، وقبلتها من وجنتيها الدافئتين ومن عينيها الدامعتين وعاهدتها ألا أتزوج بغيرها.

دقت القاطرة صافرة طويلة فأخذت السيدات محارمهن البيضاء إلى أفواههن أولًا ثم إلى أعينهن ولوحن بها.

الفراق مر، مرٌّ للغاية؛ أدركت حينها ربما للمرة الأولى أني صرت متجذرًا في هذه الأرض بكل كياني وأني لا استطيع إلا أن أحيا على هذه الأرض وبين هؤلاء الناس، كنت حينها أعلم لِمَ انطويت على نفسي وماذا تركت ورائي.

كان فؤادي يبكي دمًا، أخذت أمي بيدها اليمنى طرف شالها إلى شفتيها وترقرقت في عينيها الدموع ثم انساب خطان منهما عبر رموشها إلى شفتيها سريعًا، أبي كذلك كان يبكي، ودخلت زكية بهدوء بين أبي وأمي.

دقت القاطرة صافرة أخرى فدارت عجلات المقصورة التي أركبها ببطء واقتحم الدخان الكثيف المسافة التي في ما بيننا بغتةً وفرَّق بيننا.

(6)

لاقيت استعدادات كبيرة في كتيبتنا في الليلة التي عدت فيها إلى الفيلق، فالنشاط في المحطة كان يلفت النظر بشدة، العربات والأحصنة والذخيرة تُشحن إلى المقطورات المفتوحة والمغلقة خلال ركض الجنود وهرولة الضباط في الأرجاء مصدرين الأوامر بصوت مرتفع، صادفت الرقيب أول نصر الله على الدرج بينما كنت أخرج من المحطة، فهبط الدرج أربعًا أربعًا فاتحًا ذراعيه وقال: «جئتَ في وقتك بالضبط سيدي القائد، غادرت الكتيبة الفيلق، ينتظر المقدم إرنيك سيادتك هذه الليلة أو صباح غد على أقصى تقدير».

تركت حقيبتي للرقيب أول وذهبت فورًا إلى المقدم إرنيك، كان النقيب ماير -أيضًا- في غرفة قائد الفيلق، نهض الاثنان فور دخولي كأنما قد انتظراني لمدة طويلة وشدُّوا على يدي، بدوت وكأني على معرفة بوجود الكتيبة التي ستتحرك إلى الشرق تحت قيادة النقيب ماير، وبعد ساعتين بالضبط دُعينا وكل ضباط الكتيبة الألمان والتركستانيين ثانية من قبل النقيب ماير، كنا سنتحرك وفقًا للأمر الذي تلقيناه في الساعة الثامنة صباحًا سريتي أولًا ثم السرايا الأخرى كل ساعتين واحدة،

وكانت القطارات تتوقف فقط في محطات برست ليتوفسك[81]، بينسك[82]، موزِير[83]؛ كانت السرايا ستنضم إلى اللواء فون سكندروف بعد موزِير وسيخوضون الحرب ضد الأعداء فورًا.

كان حاجبا النقيب ماير وهو يشرح هذا معقودين ووجهه عابسًا، ومن ثم اتسم وجهه بالجدية أكثر وهو يخاطب الجنود التركستانيين، بعد ذلك ودعنا المقدم إرنيك مشددًا على يد كلٍّ منا الواحد تلو الآخر، وقبل أن يخرج من القيادة أضاف النقيب ماير بصوته الصارم على الدوام أن الأراضي التي سنمر عليها أراضٍ خطيرة رغم بعدها عن الجبهة وأنه يجب أن ننظر للسكان المحليين نظرة العدو وأن نتصرف كـأننا نواجه الأعداء على الجبهة.

خرجنا، فكان ينتظرني جنود ورقباء مصطفين أمام مبنى السَرية، عبرتُ إليهم، ووقفتُ وراء مخازن البنادق التي تتلألأ حِربها الحادة تحتضن القمر وبدأت كلامي قائلًا:

- «أتى اليوم الذي انتظرناه يا شجعان! ليس معلومًا الآن أين سنقاتل أعداءنا لكن أينما كان، فسنحارب أشد الأعداء الذين

81- مدينة برست ليتوفسك (الآن بيرست) (Brest- Litovsk): هي العاصمة الإدارية لإقليم بريست الذي يقع في جنوب شرق بيلاروسيا(روسيا البيضاء). عُقدت فيها معاهدة برست ليتوفسك عام 1918 التي أنهت الحرب بين روسيا ودول المحور في الحرب العالمية الأولى.

82- مدينة بينسك (Pinsk): هي مدينة تقع في إقليم بوليشيا الذي يقع جنوب غرب روسيا البيضاء. يجتازها نهر بينا، وكذلك نهرا سترومن وبريبيات.

83- موزير (Mozir): هي مدينة تقع في إقليم غومل شرق مدينة بينسك في روسيا البيضاء.

أذلوا أمتنا تحت الأسر، لا تنسوا هذا أبدًا! التحموا بي وبقادتكم مثل الأخوة، وفي ظل هذه الأخوة وهذا الحب الذي ستآزرون به بعضكم بعضًا سننجو سالمين من أي فاجعة، وبعون الله العظيم سنلتقي بوطننا الحبيب العزيز في القريب العاجل إن شاء الله».

غادرنا الفيلق أخيرًا في الثامنة صباحًا بالضبط مترنمين بأهازيج تركستان، ظللت أتحدث مع قادة الفرقة حتى لوكوف(84) عن الأيام التي قضيتها في القرم، بعدها جذبني أحمد أقين إلى الطرف، وتبعًا لما حكاه كان قد ذهب مرتين إلى منزل الفتاة ولم يستطع أن يجدها، وفي المرة الثالثة انتظرها كثيرًا مختبئًا بين الأشجار التي في الحديقة ولم يكن هناك آتٍ ولا عادٍ مجددًا، وقبيل المساء حين كان يخرج من الحديقة صادف الفتاة بين مدنيَين أمام الباب الحديدي، انقض المدنيان على أقين عندما رأياه وجذب أحدهما مسدسه والآخر أمسك بيديه وربطهما خلفه، أخذا سلاحه ثم أخذوه إلى البيت وأغلقوا الغرفة، جرى كل هذا فجأة وبسرعة لدرجة أنه لم يجد وقتًا ليوضح للفتاة أنه جاء لإعادة المال لكن بعد ساعتين فتحت الفتاة الباب ودلفت إلى الحجرة مع هذين المدنيين، وكان يوجد بيدي الرجلين مسدسان، في البداية سألت الفتاة أقين:

84- لوكوف (Lukov): هي قرية تقع في ستورغا جنوب غرب مقدونيا في وسط شبه جزيرة البلقان في جنوب شرق أوربا.

- «لماذا جئت إلى هنا؟».

رد أقين بأنه جاء ليسلم المال الذي سرقه جندينا إلى صاحبه ثم أخرج المال من جيبه وقدمه إلى الفتاة، تراجعت الفتاة عندئذ وتحدثت بأمور إلى الرجال المسلحين جوارها وأمرتهم بشيء فخرجا فورًا من الغرفة وذهبا، وحين بقت الفتاة بمفردها في الغرفة أخذت المال لكنها لم تنشغل به وسألت عني بغتة، أرادت أن تعرف اسمي ومن أين أكون وأين أوجد وهل تستطيع أن تجدني أم لا، لم يتحدث أقين في البداية فاسم الضابط ومحله سر عسكري، قال إنه سر عسكري، غير أن الفتاة كانت تريد أن تعرف بأي وسيلة فجلبت أقين إلى غرفتها ثم جلسا واحتسيا الشاي، قالت إنه ليس لديها أي شكوى من قيليشباي، فهو جندي ويوجد مثله في كل جيش، بعدها أخذت تتوسل لكي تعرف اسم الضابط وعنوانه، ثم سجلت هذا في دفترها وقالت إنها ستبعث لي رسالة.

حكى أقين عن جمال الفتاة وإهابها وشُربه معها الشاي وكيف أعجبت بي حتى وصلنا إلى لوكوف.

اندهشتُ من إعجاب الفتاة بي وفرحت في الوقت نفسه بمعرفة أنها ستكتب لي رسالة، إلا أنني لم أكن أريد إظهار سعادتي لأقين بعد أن حكيتُ له عن زكية فقلت ضاحكًا:

- «أنت يا أقين تعجبك هؤلاء الفتيات البولنديات، هن أعداء لألمانيا... ربما ترغب في قتلي، ولأجل هذا سألتك عن عنواني».

مررنا صباحًا ببنسيك، فتوقفنا في مكانٍ قريب وسقينا الأحصنة، ثم تنقلت من قاطرة لقاطرة وتفقدت الجنود، وتحدثت مع القادة ثم تفحصت العربات والذخائر، تحركنا بعد التوقف لساعتين، ما يزال لدينا ساعتان حتى غوميل[85] لكن يمكن أن نصل إلى هناك منتصف الليل على أقصى تقدير، كان القطار يتقدم بسرعة السلحفاة في بعض المناطق في الغابة، هناك الكثير من رجال العصابات في الغابات المحيطة، كانوا قد فجروا قطارين مملوءين بالجنود الجرحى العائدين من الجبهة قبل يومين، نتقدم الآن العربة الأولى خاوية والعربات التي تليها فيها سريتنا، موجهين بنادقنا الآلية إلى الغابات على جانبي الطريق، توقفنا في منتصف الليل في مكان قريب من غوميل وتنفيذًا للأمر الذي بَلَّغَهُ الألماني الآتي من مقر قيادة اللواء فون سكندروف نزلنا من القطار حتى الصباح، تسلحنا ثم تناولنا طعام الغداء في الوادي وتحركنا بعدها بساعة نحو الشمال بكامل أسلحتنا، وبعد أن سرنا قرابة العشرين كيلومترًا خرجنا إلى السكة الحديدية غوميل_ جلوبين[86] قبيل المساء وترقبنا هناك مرة أخرى الأمر الجديد من القيادة، أحضره الرقيب أول [87] الأشقر بوير الشاب

85- مدينة غوميل (Gömel): هي العاصمة الإدارية لأقليم غومل في روسيا البيضاء، تقع جنوب غرب السهل الأوربي الشرقي ولها حدود مع كل من روسيا الاتحادية وأوكرانيا.

86- مدينة جلوبين (Jlobin): هي مدينة تقع في إقليم غوميل في روسيا البيضاء.

87- الباشاووش(Başçavuş): لقب يعادل رتبة رقيب أول، سمير عباس زهران، قاموس المصطلحات السياسية والعسكرية تركي ـ عربي، الطبعة الأولى 2007،مطبعة دار الفكر المعاصر، القاهرة.

المُنصب على سريتي، كنا سنتقدم إلى الشَمال في محاذاة السكة الحديدية ونتخذ موقعًا بعد الابتعاد عن غوميل أربعين كيلومترًا ثم سندخل تحت قيادة الكتيبة التي تُقاوم رجال العصابات في الغابات في ما بين جلوبين وروجاتشيو[88]...

حل المساء وغمت السحب المهيبة كالجبال آفاق الشرق؛ أما آفاق الغرب فظلت صافية مضيئة، ما زلنا نتقدم على اليسار في محاذاة السكة الحديدية الممتدة والتي كانت تلمع أسفل أضواء القمر الذي ارتفع بدرًا وراء الغابة السوداء، نتقدم أنا في المقدمة وإلى جواري الرقيب أول بوير وخلفي بقليل أحمد أقين ثم الفرقة الثانية فالثالثة فالرابعة والعربات في النهاية، نقترب من الغابة، يجب الانتباه بشدة في أماكن كهذه، تقدمت مجموعة من فرقة أقين ثم انتشرت أمامنا حتى ثلاثمائة متر وبدأت السير عن يميننا ويسارنا، ولجنا الغابة، نسير كما لو أننا نُصغي لسكون الغابة وتُنصت الغابة لصمتنا، يصدر من بعيد صرير العربات في الخلف فحسب، ثم نسمع بعده بقليل نباح الكلاب من أعماق الغابة، يقترب منا نباح الكلاب أكثر ونحن نخرج من الغابة؛ لا يوجد أثر للحياة غير هذا على ما يبدو، أفكر في إعطاء راحة عند دخول القرية، يتوقف الرقيب أول بوير إلى جواري أحيانًا ويتمتم بعدة أمور حانقًا، لا أفهم ما كان يقوله، لا أعرف لماذا لا يبدو لي

88- مدينة روجاتشيو(Rogaçev) : هي مدينة تقع في إقليم غوميل في شرق روسيا البيضاء.

الرقيب أول فرحًا، أردت أن أعرف السبب:

- «ماذا هناك يا رقيب أول؟».

- «الكلاب... تلك الكلاب تُخبر رجال العصابات المحيطين، حتى كلاب هذه الأمة تقاتل ضدنا».

- «منذ متى وأنت هنا؟».

- «منذ ثلاثة أشهر».

- «هل هذه مناطق خطيرة؟».

- «أتقول خطيرة؟ أتمزح! هذه المناطق أخطر من الجبهة، فعلى الجبهة تعلم أن الأعداء أمامك... هناك مدفع العدو، وطائرة العدو وجنديه وابنه... أما ماذا يوجد في هذه الغابات والآجام فغير معلوم نهائيًّا، غير معروف مطلقًا يا مُلازمي هل العدو عن يمينك أم عن يسارك، أمامك أم خلفك، أنت لا تعلم عن هذه الأنحاء كثيرًا لكنك ستعلم شيئًا فشيئًا، ومع هذا فهنا ليس خطرًا للغاية، ففي الشَمال أكثر... جلوبين ومِن ثَم موغيليوف[89]... هل سمعت أن جنودنا سيطروا على مطارين قُرب موغيليوف قبل أسبوعين؟ أجل، مطار، بل مطارين لرجال العصابات... لم يمضِ يوم دون قتال مع رجال العصابات، تنضم وحدات

89- مدينة موغيليوف (Mogillev): هي العاصمة الإدارية لإقليم موغليوف شرق روسيا البيضاء وتقع على نهر دنيبر.

الإس إس[90] والدبابات إلى هذه الاشتباكات..».

نتقدم رويدًا رويدًا، ها هي البيوت.. البيوت التي تظهر أحيانًا أسفل الأسطح ذات الطنوف صغيرة مثل عيش الغراب، وأصوات الكلاب التي تأتي متفرقة من كل فناء... يأتي رجال العصابات ليلًا إلى المنازل كي يُهَربوا الطعام للغابات، وأحيانًا يسيطر رجال العصابات على القرية يومين أو ثلاثة أيام متتابعين، يتزوجون الفتيات وتقام الأعراس وحين تقترب وحدات الألمان يأخذون النسوة ويفرون إلى الغابات والآجام، ثم تصير الغابات برمتها تحت أيدي رجال العصابات، لا يستطيع الألمان دخول الغابات ومن يستطع الدخول لا يمكنه الخروج سالمًا، وتنشب اشتباكات في محيط جلوبين.

روجاتشيو لا تختلف عما في الجبهات، وعلى الرغم من وجود الحراس الألمان المنتقين على حواف السكك الحديدية وعلى رأس كل جسر ورغم طواف الدوريات القوية أتلف رجال العصابات السكة الحديدية في عدة مناطق وأسقطوا الجسور وأطاحوا بالقطارات، وقطعوا الاتصال الهاتفي والتلغرافي في ما بين

90- وحدات إس إس أو شوتزشتافل(S.S. Kıtaları): كانت منظمة تابعة للحزب النازي الألماني أنشئت سنة 1925 وكلفت بمهمة حماية أدولف هتلر. في سنة 1926 وضعت تحت إمرة الأس أي أي الجناح العسكري للحزب النازي المعروف بقسم الهجوم واختصارها SA. في سنة 1939 أصبحت الإس إس وحدة شبه عسكرية مستقلة تضطلع بمهام بوليسية في صلب الحزب النازي، في سنة 1945 منعت هذه المنظمة واعتبرت منظمة إجرامية للدور الذي قامت به في المحرقة.

الوحدات العسكرية والمدن، فخلال شهرين فُجر أربعين في المائة من القطارات القادمة من روسيا البيضاء الشرقية المارة من هنا أثناء ذهابها إلى الجبهة الشرقية، فحاليًا «حرب السكة الحديدية» هذه هي أشد المراحل اشتعالاً.

أصدرت الأوامر بتجاوز البيوت والاستراحة في العراء، بات القمر فوق الغابة، وكانت البيوت البعيدة الأشبه بقلنسوة أوكرانيا بطنوفها الطويلة وجدرانها المدببة تبيت في سكون، وحدها الكلاب ظلت بنباحها تذيع خبر ولوجنا القرية إلى الغابات المحيطة السوداء الساكنة، سحب الرقيب أول بوير مسدسه حين كنا نمر من أمام أول بيت ودلف إلى فناء البيت، نهض الكلب المربوط في سلسلة متصلة بوتد في الفناء على قدميه الخلفيتين وظل ينبح بوحشية، وبينما كنت أدنو منه مع الرقيب أول انقطع صوته بطلقة من المسدس الذي بيد الألماني، قال ملتفتًا عني وهو يضع في خصره مسدسه الذي ينبعث الدخان من سبطانته بكثافة: « هذا يُسكته».

نباح الكلاب في المنازل الأخرى -أيضًا- انقطع فجأة، غير أن كلاب البيوت البعيدة عوت طويلًا حين مر الجنود من القرية كأنما أدركوا موت واحد من فصيلتهم.

خرجنا من القرية ووضعنا الحراس على الأطراف وفي الوادي بعيدًا للغاية ثم نمنا بأمان حتى الصباح، وقبيل الظهر جاء

جنديان من الإس إس مع النقيب ماير، كان كل جندي من الإس إس يبدو أقسى من الآخر، كانوا يتفحصون ما حولهما بينما كان النقيب ماير يتحدث كأنما يستشعرون خطرًا ما.

ولجنا الغابة الموجودة في الخلف بكيلو مترين بأمر القيادة، وقطعنا الأشجار والأدغال التي تساقطت على طرفي السكة الحديدية وأخلينا منطقة بمساحة ثلاثين مترًا، وبقيت إحدى الفرق بجانب السكة الحديدية، أما الفرق الثلاث الأخرى فتحت قيادتي ويتقدمون إلى الشمال الشرقي مارين من الغابات والأدغال والمستنقعات ثم سينضمون إلى الوحدات الألمانية التي تحركت من تشاتشرسك[91] إلى الجنوب الشرقي، بعد طعام الغداء ولجنا فورًا غابة على بعد كيلومترين، وقطعنا الأشجار الساقطة على حافة السكة الحديدية، ومشطنا الأدغال، قبيل المساء جاء جنود سَرية من الوحدات التي تحرس على بعد أربعة كيلومترات من المكان الذي نقبع فيه وساعدونا في قطع أشجار الغابة، أدركنا من وجوههم كونهم جنودًا فتية ومبتدئين ومن إمساكهم بالسلاح علمنا عدم تلقيهم للتدريب الكافي، كانوا بالأحرى صبية ذوي قلوب نقية، كنت قد منعت جنودي من التحدث بالروسية في ما بينهم ولا سيما مع السكان المحليين منذ يوم خروجنا من الفيلق، إلا أن الألمان كانوا يعلمون أننا نعرف الروسية وكانوا يحاولون

91- تشاتشرسك (Çeçersek): هي مدينة تقع في إقليم غوميل في شرق روسيا البيضاء.

التحدث مع جنودنا ببعض المفردات الروسية التي تعلموها من المعاجم، وحينئذ كان التركستانيون يصرخون بالألمانية قائلين:

- «لا، لا انتبه! نحن لسنا روسًا.. لسنا روسًا.. نحن مغول! مغول!».

جاءت سريتان ألمانيتان أخريان إلى الغابة التي نقبع فيها مساء اليوم الثالث، وفي الصباح الباكر تركنا بطل للحراسة على طرف السكة الحديدية وتحركت السريتان الألمانيتان وسريتي بمفردهم إلى تشاتشرسك، كنا نتقدم في الغابات التي بلا طرق ولا علامات وفي الآجام والمستنقعات لساعات دون أن نرى بعضًا أحيانًا، وكانت الأماكن التي عبرناها كأنما لم تطأها قدم بشرٍ منذ مئات الأعوام، كنا كمن يمر لأول مرة من هذه المناطق الساكنة، وحده الرقيب أول بوير كان يتفحص كل ما حوله كأنه يستشعر خطرًا ما في هذه الآجام الساكنة، وهذا الخواء.

فتشنا عن رجل عصابة في الغابات والأدغال والآجام حتى مساء ذلك اليوم ولم نجد أحدًا، وفي صباح اليوم التالي صدرت أصواتُ بنادق وانفجاراتُ قنابل يدوية في الطرف الأيسر، فأمسكنا بأسلحتنا واتخذنا مواقعنا فورًا، بعدها بخمس دقائق أتى إلينا جندي ركضًا:

- «النقيب ماير يستدعيك، ملازمي».

تركت محلي لأقين وركضت إلى خيمة النقيب مع الجندي

الألماني، كان هناك شخص في عمر الصبي رفيع أصلع ذو وجه نحيف أمام الخيمة قد جثا على ركبتيه في الأرض بين النقيب ماير وضابطي الإس إس والثلاثة رقباء الألمان، فوقفت أمام النقيب ماير، رنوتُ إلى الصبي بطرف عيني، كان قد أسدل كتفيه ونصب عينيه الواسعة شديدة الاحمرار على يديه المتسختين الموضوعتين على ركبتيه.

لم يصرف الضباط الألمان أنظارهم عن الصبي ومسدساتهم في أيديهم، ثم قال النقيب ماير:

- «ملازم صادق، اسأل الأسير! أين يوجد المقاومون الآخرون؟ وكم عددهم؟».

كررت أسئلته على الأسير بالروسية، فنظر إلى وجهي بعينين حمراوين، وكأنما اندهش من تحدثي الروسية، فهز رأسه مرتجفًا:

- «لا أعلم... يا ابن بلدتي، لا أعلم..».

ترجمت كلماته الروسية إلى الألمانية، فصرخ أحد الضباط المسلحين وأوقع الأسير على الأرض بركلة قوية.

قال النقيب ماير:

- «أمهلك دقيقة واحدة، أين رجال العصابات الآخرون؟ وكم عددهم؟ وما هي أسلحتهم؟ إذا لم تقل خلال دقيقة فستُقتل فورًا!».

تغير الأسير بغتة ما إن شرحت هذا فشحب وجهه وجاء أسفل قدمي زاحفًا على الأرض، ثم نظر إلى وجهي ورفع يديه، وقال بصوت متقطع:

- «في ذلك الطرف سيدي الضابط... في ذلك الطرف... على بعد نصف كيلومتر من هنا... على حافة المياة... قرابة المائة شخص... كلهم مسلحون... ببنادق آلية ومدافع هاون أيضًا... ليس معهم أسلحة غيرها... ويوجد ثمان عربات..».

دخلنا إلى خيمة النقيب ماير، وكانت السرايا الألمانية على الميمنة والميسرة على وشك التحرك، فتقدمت مع فرقة وتركت فرقتين في الخلف قليلًا، كنت سأتقدم إلى حيث تقبع قوة العدو وأعلم القوة الحقيقية للعدو ثم سأخبر النقيب ماير، تحركنا على الفور.

نسير بين أشجار جرداء بلا أوراق مثل أعمدة السفينة، لا أحد ينبس بشفةٍ في الوقت الراهن، نتقدم في صمت كالذئاب الجائعة، وحدها أوراق الأشجار يصدر عنها حفيف تحت أقدامنا، ويُسمع أحيانًا تهشمها العميق الجاف.

أقين عن يميني وموهان في الخلف وإلى جواره قيليشباي... موهان متحمس كأنه صيادٌ يستشعر صيدًا، ووجهه القديم الضاحك دائمًا قاسٍ الآن ومتجهم... أتأملهم وأشعر بعذاب داخلي، لا أرغب في سيلان دماء أبناء تركستان هؤلاء خارج الوطن، يقفون حينًا

ويستريحون حيناً، ليس هناك صوت، حتى الطيور لا تطير.

أراد أقين أن يستكشف المكان الذي نوجد فيه، وأعطيتهم الإذن فانطلقوا أقين في الوسط وقيليشباي على اليمين وموهان على اليسار، انبطح ثلاثتهم عندما ابتعدوا بمسافة ثلاثين مترًا، وبعدها بقليل أدار أقين رأسه من عندي إلى الطرف ودعاني بإشارة من يده.

ذهبت إلى جوار أقين زاحفًا على الأوراق الحمراء الجافة ومن بين الأشجار الجرداء داخل الأدغال.

- «هم هناك، صادق بك..»، ثم أكمل وهو يشير بيده:
- «هل تراهم؟ لتدعهم لي وليعد قيليشباي فورًا، ويُخبر النقيب ماير..».

أرى على بعد ثلاثمائة متر بين الأشجار شخصين بجوار القصب على حافة المياه التي تتموج قليلًا بفعل الرياح، ظهرهما مدار لنا، كانوا ينظرون إلى قصب الشاطئ المقابل العالي كثيرًا والكثيف للغاية، تفحصت الشخصين اللذين نراهما، على ظهر كل منهما ماسورة بندقية في وضعية موجهة لأسفل ويوجد معهما بندقيتين آليتين، أحدهما ضابط على الأغلب فهناك حقيبة معلقة بأحزمة عريضة على ظهره، في قدمي كلاهما حذاء وعلى رأسيهما قبعتان، أحدهما يدير رأسه بين الفينة والأخرى ويتفحص ما حوله، والآخر لا يتحرك وتوجد آجمة كثيفة وراء

المياه، ليس معروفًا أتوجد مياه أخرى وراء الآجمة أم حقل أو سهل، يصوب موهان بجانبي وقيليشباي مواسير بنادقهما إلى هذين الشخصين، بعد قليل تراجع أحد الشخصين الموجودين في الأمام خطوة فاثنين فثلاث ورفع ذراعه فوق رأسه ثم حرك يده تجاه الأجمة، اعتقدت أنه سيكون هناك أناس كثيرون لكن أين هم؟ بعدها وقف هذان الشخصان متجاورين ثانية وأشارا إلى الطرف المقابل محركين أيديهم كافة فوق رؤوسهم، حينئذ ظهرت داخل الأجمة على حافة المياه واحدة... اثنان... ثلاثة... أربعة أجل أربع عربات وبدؤوا التحرك تجاه الناس، كل العربات التي تشبه كل منها الزورق الصغير يجرها حصانان، وفي العربة ثلاثة أو خمسة أشخاص على الأكثر، نهض جميع الذين جلسوا قليلًا على أقدامهم بغتة، وولج المياه بعد العربات مجموعة أشخاص علت المياه رضفاتهم يأتون إلينا مباشرة، وبينهم ثمانِ أو عشر سيدات، رفعت السيدات تنانيرهن وشققن المياه بركبهن العارية وساروا على عجلة، في يد أغلبهن حذاء ورؤوسهن مربوطة بالشيلان وعلى أكتافهن البنادق، أكثر الرجال ذوي فرو بعض منهم على فرس وجميعهم مسلحون.

سألتُ أقين المنبطح جواري بصوت هامس:

- «لتقل كم شخصًا هم تقريبًا يا أقين؟».

- «أظن أنهم قرابة المائة، صادق بك؛ بِمَ تأمر؟ ألا نخبر النقيب

ماير؟».

- «لا أقين، لم يتبقَ وقت، لندع لهم الفرصة، إذا غاصوا في الغابات فسيصعب الأمر بعدها كثيرًا، يجب أن نُنهي أمرهم فورًا، وسنفعل فورًا هناك في تلك المياه، اذهب أنت وأحضر ثلاث بنادق آلية -أيضًا- إلى هنا، لكن أسرع! واحد، اثنان... يتقدم الرجال الموجودون في الخلف أكثر، ويتخذون مواقعهم بعيدًا عن المياه بمقدار خمسين مترًا».

- «ليكن صادق بك».

ذهب أقين ثم أتى ببنادقه الآلية وجنوده بعد خمس دقائق وتمدد بجانبي، دنونا قليلًا من المياه زاحفين واتخذنا موقعًا داخل الأدغال وترقبنا، كنت على وشك إصدار الأمر بإطلاق النار، كان الوابل سيصبح شديدًا ولن يستطيع أحد الخروج سليمًا، ننتظر والشخصان أمامنا يقفان على نفس الوضعية تمامًا، ثم خرجت عربتان وبعدها فارسان آخران من وراء المياه، أدير رأسي بين الفينة والأخرى وألقي نظرة على أقين المنبطح وراء البنادق الآلية، ينظر أقين إليَّ ويريد أن يضحك غير أن الأسى يبدو على وجهه كلما أراد الضحك، هل يخاف؟ أم يتألم؟ بم يشعر أقين؟ أو بم يفكر؟ لا أعلم؛ أنظر إلى المياه، لا يخرج من الأجمة أناسٌ كثيرون، ذلكما الفارسان هما الأخيران غالبًا، يتقدمان نحو فوهات بنادقنا بصمتٍ مثل قطيع حيوانات، أراهم الآن بشكل

أفضل، ألاحظ النجوم الحمراء الموجودة على قلنسوات الرجال وقبعاتهم وأميز بين البنادق ذوات الأحزمة التي اتصلت بعضها ببعض من عند الحزام بحبل، يقتربون من المياه دون أن يخطر ببالهم أي خطر، أنتظر اقتراب من في الخلف أكثر قليلاً.

أعلم الآن هنا للمرة الأولى في هذه الدقائق لمَ أحارب وفي سبيل مَن؛ من أجل وطني، أم من أجل القرمِ، أم من أجل تركستان! فها هم من في مقابلي هؤلاء الذين أسروا أُمتي، هؤلاء سأقتلهم!

- «النيران!.. النيران!».

ترا_تا_تا_تا.. ترا_اق.. تراق! انفجارات طويلة وقصيرة، تعزف البنادق الآلية والبنادق والمسدسات أكثر مقطوعات الموت وحشية، وتفور المياه في فقاعاتٍ كأنها صهريج ضخم تحت أقدام وصرخات الفارين برعب، يختلط صهيل الخيول بنواح النساء ونحيبهم.

- «النيران!.. النيران!.. لا تتركوا أحدًا سليمًا! النيران!».

لم تتوقف النيران لحظة، المياه تغلي وتفور وتتموج وتبتلع الناس.

- «النيران!».

بعد مدة صدر صوت من ورائي:

- «النساء سيدي القائد! توجد نساء هناك، أنقتلهم أم نتركهم؟».

لا أعلم من الصارخ أو لمن هذا الصوت غير أنه وقع عليَّ كأنما يلعنِّي، لا أعلم لِمَ أخاف الآن، أدركت بغتة أنني لم أفكر من قبل في النساء، وأخاف أن...

- «أقين!.. أقين!.. لا تقتلوا النساء! اصدر الأمر! لئلا يقتلوا النساء!».

يقفز أقين ويصرخ بين الجنود راكضًا من بندقية آلية لأخرى:

- «لا تطلقوا النار على النساء! لا تطلقوا النار على النساء!».

ثم يأتي وينبطح بجواري:

- «أمرك هذا في محله تمامًا يا صادق بك، فحتى لو كان أولئك النسوة سيُقتلن لا نقتلهن نحن.. ليصل الألمان ويقتلوهن، لا يليق بنا قتل النساء، ليفعل هذا الروس وليفعله الألمان وليفعله من يريد أما نحن فلا نفعلها..».

بعدها بنصف ساعة كانت فرقة العصابة بأكملها تسبح مثل الأجولة والخشب وراء الدخان المنتشر بكثافة فوق المياه، أما الأربع نسوة فكُن يقفن على أقدامهن في المياه وينظرن ناحيتنا وأيديهن مرفوعة لأعلى، نهضنا وتقدمنا نحوهن ببطء، أضحت المياه الخضراء بشدة سابقًا عكرة للغاية بالدماء المسالة وظل جنودي على الشاطئ ينظرون إلى الموتى بصمت ولم ترتجف يد أحد منهم...

بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة جاء الضباط الألمان الذين خرجوا من الغابات إلى جوارنا راكضين.

هل خاف الجنود الفتية من القتلة أم منَّا -لا أعلم- انسحبوا مبكرًا إلى المكان الذي كانو فيه، بقيت أنا والضباط الألمان حولي بينما كان جنودي في أرجاء الغابة وكان هؤلاء يموتون في صمت، استفسر النقيب ماير عن كيفية مباغتتنا لرجال العصابات وكتب أسماء الجنود المستحقين للمكافأة وقال إنه سيبلغ القيادة ثم شد على يدي...

رحلنا ثانية بعد ساعتين وتقابلنا مع الوحدة الألمانية القادمة لستين كيلومترًا من تشاتشرسك إلى الجنوب الغربي، وكنا سنعود إلى المكان الذي توجد فيه كتائب بطل على حافة سكة حديد غوميل في الخلف بعد أن أعطيت استراحة طويلة في مكان اللقاء.

انفجر خبر تحطيمنا لفرقة العصابة مثل القنبلة بين الجنود الألمان القادمين من تشاتشرسك فصاحوا جميعًا رافعين أسلحتهم في الهواء بغتة وابتهجوا، فقد كانت الكتيبة الكبرى تبحث في أنحاء غوميل وجلوبين عن هذه العصابة منذ شهرين، مشطوا الغابات والأدغال والآجام ولم يتركوا شبرًا؛ مع ذلك لم يستطيعوا أن يجدوهم في أي مكان.

أما أنا فوددت لو يتوقف الزهو بهذا الانتصار السهل عند هذا الحد، فما زلت أعاني ألم النسوة اللاتي قتلناهن في المياه وأريد

التسلية عن نفسي بقول كانوا مسلحين حينها ولو لم نقتلهم كانوا سيقتلوننا.

أستلقي متمددًا على ظهري، ومع أن أقين بجانبي إلا أننا لم نتحدث، يتطلع أقين إلى السحب التي اكفهرت فوق الغابة باريًا فرعًا بمطواة صغيرة في يده ورأسه تحت قناع الغاز وقدماه مستندان فوق بعضها، بعض العرفاء في الطرف قليلًا متحلقين حول موهان يناقشونه في عدة أمور، أما الجنود الآخرون فيرقدون في صفوف ويحرسون ما بين الأشجار حولنا، سكتت أصوات الجنود وقهقهاتهم شيئًا فشيئًا ومع أصواتهم التي أضحت همسًا هبط الصمت الأليم على الغابة ببطء وهذا الصمت أنا أكثر من يشعر به على الأغلب، أريد تذكر الطرق التي مررنا بها، أرغب في تأمل الطرق التي عبرناها وأريد أن أثق وأتأكد بأني أحارب داخل هذه الغابات لأجل وطني حقيقةً؛ إلا أنني لا أستطيع التفكير في الماضي برأسي المُتعب، ربما أخاف من رؤية مستقبل أمتي أسود إذا فكرت في الماضي لذا لا أريد التفكير، وكأنِّي أسمع أحيانًا صوت عبد الله أفندي القلق القائل: «هذه هي العاصفة الأخيرة، هذه هي العاصفة الأخيرة»، بعدها حزنت لأني لم أبقَ في القرم، أشعر نفسي مذنبًا كأنني قد فررت من العاصفة الأخيرة، شعرت شيئًا فشيئًا بغصة في حلقي، وتذكرت عيون زكية وأمي الدامعتين فوددت البكاء أيضًا، ومع احتياجي لرؤية أحد بجواري استدرت وبحثت عن أقين، أقين ليس جواري، فقد ذهب إلى

جوار موهان ومن معه ويشرب معهم سيجارًا، يتكلمون بصوتٍ منخفض ويضحكون بين الحين والآخر بهدوء جدًّا لئلا يوقظوا الجند، ثم أتى أقين إلى جواري واستلقى رافعًا ياقة قلنسوته:

- «يقول موهان أننا لن نعطي النساء اللاتي نأسرهم لأي أحد بعد ذلك، يحل الشتاء وستلزمنا هؤلاء النسوة في هذه الغابات الباردة يا صادق بك، هي ليست فكرة سيئة كذلك».

استغرق أقين في النوم أما أنا فظللت أفكر في العاصفة الأخيرة متطلعًا إلى السحب السوداء التي تجمعت فوق الغابة وراحتي تحت رأسي.

عادت الوحدات القادمة من تشاتشرسك إليها ثانية في الصباح التالي، ورحلنا نحن -أيضًا- قرب الظهر إلى السكة الحديدية لغوميل، لم نكن نحسب نحن ولا الألمان -أيضًا- أنه قد يأتي خطر من الغابات، وقبل أن نفترق عن الوحدات الألمانية أشار لي النقيب ماير في الخريطة على طريق جديد سنتبعه وقال إننا سنصل إلى المكان الذي تقبع فيه فرقة بطل بعد يومين ثم ذهب ومنذ تلك الدقيقة تأكد تمامًا التحاقنا بالسرايا الألمانية، خرجنا من الغابة قبيل المساء، مررنا بالأدغال والآجام والمستنقعات بصعوبة وتوقفنا على حافة رُبى واجهتنا، كانت مجموعة الآجام العريضة في الجانب الأيسر للتلال تمتد حتى الغابة، واستدار أقين الذي كان يتفحص الأطراف من إحدى التلال إلي بعد قليل

أثناء خروجي من الغابة ورفع يده ثم قال:

- «توجد مياه هنا، صادق بك! كيف سنعبر هذه المياه؟».

كنت أعلم سلفًا من الخريطة أنه توجد مياه عميقة شيئًا ما هنا، فذهبت إلى جوار أقين وقد قررت عبور المياه التي اتساعها قرابة المائة وخمسين مترًا من هنا، كان هناك أعشاب برية غريبة على سطح الماء وقطع شجيرات هنا وهناك وفروع جافة، فاستفسر أقين عن كيفية العبور، وأجبته قائلًا:

- «لن نعبر بسفينة هاه! سنعبر سيرًا، ولو كانت عميقة سنسبح! لا أظن أنه عميق جدًّا».

- «ألا يوجد طريق آخر؟».

- «لا ليس هناك طريق آخر يا أقين، تمتد المياه لخمسة كيلومترات وبجوارها الأدغال والمستنقعات».

- «حسنًا، على أي حال، هيا قيليشباي بالفرس، لأرى! هل المياه عميقة، القِ نظرة!».

ولج قيليشباي المياه، وكلما دخل المياه كانت تزداد عمقًا، وارتفعت في الوسط إلى حلق قيليشباي تقريبًا، عبر قيليشباي المياه ممسكًا بندقيته فوق رأسه واختفى بين القصب المرتفع والكثيف للشاطئ المقابل، نظرنا إلى القصب بصمت وانتظرنا ظهور قيليشباي، أما قيليشباي فلم يوجد على ما يبدو، همس

موهان الواقف جواري:

- «غرق الشقي..».

بيد أنه بعد خمس عشرة دقيقة استطاع قيليشباي أن يظهر على تل وراء القصب العالي؛ فصرخ أقين:

- «إيه... كيف؟».

- «داخل المياه كله عشب سيدي القائد! لكن يمكن عبوره!».

- «ماذا يوجد وراء القصب؟».

- «أرض مستوية! وبعدها بكيلومتر غابة!».

جلس موهان جواري على الأرض وصرخ:

- «هيا تعالَ ساعدني لأعبر إلى هذا الشاطئ يا قيليشباي!».

رد قيليشباي فورًا:

- «ها! ها!.. غُص في المياه يا صديقي!».

- «أهي باردة جدًّا؟».

- «غُص واعلم!».

لم يتحدث موهان، كان أقصرنا قامة، ويعلم جيدًا أنه لن يستطيع عبور المياه دون مساعدة، فصاح قيليشباي من الجهة المقابلة:

- «اقفز إلى المياه يا عزيزي ذا القوام الممشوق، لأراك ولو مرة

في تلك المياه!».

- «أيها القرغيزي الأسمر، لأعبر إلى هذا الشاطئ وأريك نفسي حقيقة!».

- «ها! ها! وكيف ستأتي إلى هذا الجانب؟ أمن أسفل المياه؟».

أطلق الجنود قهقهاتهم من التلال ومن الحفر وعلى حافة المياه فأحاط موهان ركبتيه بذراعيه في المكان الذي يجلس فيه ونصب عينيه على المياه ثم صمت، فجثوت بجواره ووضعت يدي على كتفه ثم قلت:

- «لا تخف يا موهان، نعبرها سويًّا».

نظر إلى وجهي بعينيه الضيقة وقال بابتسامة بدت على طرف شفتيه:

- «أعبرها بنفسي آغاي».

- «بنفسك؟».

- «بنفسي».

- «نعم، لكن كيف؟».

- «سأعثر على طريقة بالتأكيد».

ربض أقين الذي كان ينصت إلينا واقفًا بجوار موهان:

- «لا تخف «يا ممشوق القوام!» من ناحية صادق بك ومن ناحية

أنا سنجعلك تتجاوز المياه كالطائر».

بدأ الجنود في عبور المياه أخيرًا، ولم نكن نتوقع خطرًا أو شيئًا حولنا غير أنني منعت دخول أكثر من فرقة جنود إلى المياه تجنبًا لأي احتمال، وبعد ساعة كنت أنا وأقين وموهان لا نزال فوق التل على حافة المياه، وكان الجنود الذين خرجوا من المياه سيجتمعون وراء القصب ويلجوا الغابة التي وراءه بمقدار كيلومتر وينتظروننا هناك، لا زال هناك ثلاثة أو خمسة جنود من الفرقة الأخيرة على وشك ولوج القصب العالي، وقبل أن نقفز إلى المياه مرت رصاصة من فوق أذني مُحدثةً أزيزًا، وفي نفس اللحظة أمطر وابل رصاص كثيف فوق جنودنا الموجودين في المياه منذ قليل، فألقينا بأنفسنا في الحفرة وتمددنا إلى جوار بعضنا، صرخ شخصٌ من داخل القصب المقابل:

- «أُصيب شخص!.. لا ترفعوا رؤوسكم، رأيناكم..».

أصابت الرصاصات التي عبرت من فوق رؤوسنا محدثة أزيزًا القصب على الجهة المقابلة.

فصرخت قائلًا:

- «اخرجوا من هناك، قل لتختاغُل! ولينسحب الجند إلى الغابة!».

أتى الجواب من بين القصب:

- «أمرك سيدي القائد!».

صُبَّ وابل من الرصاص في خلفية حديثنا هذا فوق المياه وعلى القصب ومن خلف الحفرة التي انبطحنا فيها.

كنا نستلقي بعضنا إلى جوار بعض بلا صوت ثم رفع أقين رأسه ونظر إلى وجهي بود:

- «هل خطر ببالنا قط أننا سنسقط هنا بهذه الكيفية يا صادق بك؟».

- «الأحرى أنه لم يخطر، يا أقين..».

- «زجوا بنا في فخ محكم بشدة داخل هذه الحفرة، وسيأتون ليأخذوننا عندما يريدون، وربما يأتون الآن أيضًا..».

- «لا أظن أنهم سيتقدمون أكثر، يحسبون أن جنودنا وراء القصب المواجه، سيأتون عندما يحل الظلام..».

تدخل موهان في الحديث بصوت مرتجف:

- «كله بسببي، كل ما يجري بسببي».

- «اصمت موهان! هذه حرب!.. لا أحد يموت بسبب أحد في الحرب، كل أمر من عند الله، حتى الموت..».

- «صحيح للغاية... لو كان الله خلقني أطول قليلًا لكنا الآن جميعًا على الشاطئ المقابل».

كانت رصاصات العدو تمر واحدة فواحدة محدثةً أزيزًا فوق

رؤوسنا وكأنها تود إخبارنا بأنهم يراقبوننا، استلقينا بلا صوت لمدة طويلة، فكرت بوضعنا مرارًا وتكرارًا ولم أستطع إيجاد أي مخرج، وكان موهان لا يتحدث، أما أحمد أقين فلم تغادر عيناه عينيَّ كأنما يرغب في قراءة أفكاري، بعدها بقليل قلت بصوت هادئ للغاية:

- «أي أسلحة توجد علاوة على هذه أقين؟».

سحب مسدسه فأخرجه ووضعه جانبه ثم غرز مطواته الصغيرة في التراب إلى جانب مسدسه.

- مسدس وتسع رصاصات وقنبلتان يدويتان ومطواة، هذا كل شيء ويوجد -أيضًا- قناع غاز لكنه لا ينفع في حرب العصابات».

أتى موهان إلى جوار أقين زحفًا:

- «بندقية وقرابة الثلاثين رصاصة..».

قطع أقين كلام موهان:

- «وماذا تفعل البندقية أيضًا؟ تلزمنا غواصة لأجل الوصول للشاطئ المقابل».

كان موهان المسكين واثقًا حتى الآن من قدرته على النجاة من أي خطر بواسطة البندقية، وكان قد بنى أمله الأخير على كلام أقين هذا، انسل بصمت لائمًا نفسه بذنب وقوعنا في الفخ وغرق في أفكاره العميقة، وبعد عشر أو خمس عشرة دقيقة أتى جواري

ثانية وقال بصوت متقطع ناظرًا إلى وجهي بعينين ممتلئتين بالحماس هذه المرة:

- «وجدتها سيدي القائد! وجدتها!».

علق أقين قائلًا:

- «ماذا وجدت؟ أعقلك الذي فقدته؟».
- «سنعبر إلى الشاطئ المقابل!».
- «اعبر أنت وأنا سأشاهد من هنا، فليس في نيتي التضحية بروحي في المياه اليوم لأني قتلت عصابة في المياه أمس».

دنا موهان مني أكثر وأمسك بيدي:

- «سيدي القائد، حول القيادة لي حتى نخرج إلى الشاطئ المقابل!».
- «موهان أنت لا تعي؛ تهذي!».
- «اصمت يا أقين!.. تحدث أنت يا موهان! بِمَ تفكر؟».
- «سيعبر ثلاثتنا المياه إلى الشاطئ المقابل ونلج الأجمة».

سأل أقين:

- «أمن فوق المياه، أم من تحتها؟».
- «من تحتها».

- «وماذا بشأن رؤوسنا؟».

- «ستعبر هي الأخرى».

- «أها... اتصل بالحيثيين ليرسلوا لك غواصة».

أدار موهان رأسه إلى أحمد أقين:

- «سيدي القائد، سيكون قناعكم الغازي ذلك أكثر ضرورة لنا من كل شيء الآن».

- «يا الله! قل فكرتك بوضوح!».

- «أعطوني أقنعة الغاز!».

سلمناه أقنعة الغاز، ففتح الصناديق وأخرج الخراطيم المطاطية من داخلها ثم قطعها بالمطواة وذهب زحفًا فولج الأدغال التي على اليسار، وبعد نصف ساعة جاء إلينا زاحفًا وكان قد ربط قطعة قصب جافة بطرف كل خرطوم مطاطي.

استطعت أن أدرك وقتها فقط غاية ابن صحاري قازاقستان النبيه البسيطة لهذه الدرجة، وبات أقين كأنه قد فهم هذا -أيضًا- فظل ينظر بذهول إلى الخراطيم التي في يد موهان وإليَّ بعينين مفتوحة، وقال بينما يأخذ موهان الخرطوم من يده:

- «موهان يا حملي، عندما نخلص تركستان من الروس سأجعلك

أميرال[92]... اطرح الرتبة عن صادق بك الآن وستحول هذه الرتبة إليك قليلًا».

أخذنا الخراطيم المربوطة من أطرافها بالقصب وذهبنا زاحفين على الأرض ثم غصنا في الماء، عبرنا المياه ببطء وفي أفواهنا طرف الخرطوم وفوق المياه الطرف المربوط بالقصب ثم اختفينا بين القصب العالي وبعدها التقينا في ظلام الليل بجنودنا الذين ينتظروننا في الغابة.

لم يدع موهان قيليشباي مرتاحًا ذلك المساء أو في اليوم التالي وظل يقول:

- «أيها الفيرغيزي الأسمر! هل حسبتني سأتوسل إليك، أرأيت كيف عبرنا المياه! لا تخف إذا لم يستطع أحد قتلي فأنا لا أموت بسهولة هكذا».

أتُرى قيليشباي قد تذكر كلمات موهان هذه بعد شهرين حين وقف في مواجهة المسكين وفي يده السلاح؟

هجمت عصابة أخرى على فرقة تختاغُل في طرف السكة الحديدية بينما كنا نتخلص من العصابة في المياه وفي نهاية الاشتباك الذي استمر قرابة الساعتين انسحبوا إلى الغابات الخلفية وتركوا سبعة قتلى، كان يوجد ثلاثة قتلى -أيضًا- من

92- أميرال: رتبة قائد الأسطول البحري.

فرقة تختاغُل؛ أما الشيخ خشنود الذي تركته بجانب تختاغُل لئلا أُسَيره الطريق الطويل، كان قد أصيب في رأسه بجرح بليغ، فحملناه إلى مشفى غوميل، عاش ثلاثة أيام، وكنت أنا وأقين في الثلاثة أيام نذهب ونعود إلى غوميل، كم دعونا ليشفى خشنود! لم تتعرف علينا أبدًا عيناه اللتان بدتا بين اللفافات البيضاء على رأسه، وما استطاع أن يعرف من نحن، وقد أُغلقت تلكما العينان في ليلة اليوم الرابع تمامًا على ألا تفتح ثانية، أرقدنا فقيدنا الذي أخذناه من المشفى فوق العشب على العربة وحملناه إلى حافة السكة الحديدية في الصباح، حفرنا قبرًا جديدًا إلى جانب قبور إخوتنا الثلاثة ودفنا الشيخ خشنود ثم استقامت السرية في صف على حافة الأربعة قبور وتحدث المُلّا سيف الدين السمرقندي فبكينا، رفعت رأسي مدة ونظرت لما حولي، كان البواسل الذين يبكون منتحبين هؤلاء جميعهم جُندًا؛ بل أشجع وأقوى جندٍ في العالم! كانت الجروح في صدورهم والدماء تحت أقدامهم والنار، يسيرون لأسابيع حفاة بلا قُمصانٍ دون أن يتذمروا، يمكثون بلا خبز وبلا ماء لأيام، يواجهون دبابات العدو ومدافعه ببنادقهم دون أن يشتكوا حتى؛ لكنهم الآن يبكون وتسيل دموع أعينهم الحارة للغاية ليس مثل جنود بل مثل أطفالٍ يتامى وبلا أهل لأجل إخوتهم الذين تركوهم في هذه الأراضي الغريبة بعيدًا عن تركستان.

داهمنا الشتاء، ذات مساء هطل الثلج الذي بدأ شفشافًا[93] نُدفًا نُدفًا[94] من منتصف الليل حتى الصباح، نهضت في الصباح الباكر ثم خرجت، وكأن الثلوج على حافة السكة الحديدية قد وصلت القبور الأربعة ببعضها وجعلتها قبرًا واحدًا، عم العالم بأكمله سكون عميق وغريب، وحده القطار يعدو بسرعة نوعًا ما تجاه الشرق من بين الغابات البيضاء داقًّا صافرته باضطراب بين الفينة والأخرى، ماذا يوجد في الشرق؟ الحياة والحركة؟ وربما النصر أيضًا؟ أم هل بدأت العاصفة الأخيرة؟ لا نعلم شيئًا بعد؟

ليلة رأس السنة... تشتعل بصخبٍ المدافئ الموجودة في أكواخنا الخشبية الصغيرة مثل القن الكائنة في أطراف الغابة، ويتحدث الجنود ذوو القمصان البيضاء المجتمعون حول الضباط بصوت خافت، البرد قارس بالخارج، والحراس يدخلون إلى الغرف بين الحين والآخر ثم يخرجون سريعًا بعد أن يتدفؤوا قليلًا، لا تروق لهم رأس هذه السنة، كانوا يتمنون في العام الماضي أن يكونوا على أراضي تركستان في رأس هذه السنة، والآن تركستان بعيدة جدًّا جدًّا عنهم، لا يتهلل وجه أي منهم، ولا يرفع أحدٌ منهم رأسه أو يلتفت إليَّ، كأنما قد خاصموني جميعًا، كأني قد أخلفت عهدي بعد أن وعدتهم بشيء؛ رغم علمي بأني لم أفعل شيئًا كهذا إلا أن

93- الشفشاف هو مطر فيه برد ويرادفه قطقط وهو المطر المتتابع عظيم القطر .

94- نُدف: جمع نُدفة ونُدف الثلج ما ينزل منه شفافًا كالمطر.

نظراتهم تبعث فيَّ هذا الشعور، طلعت إلى الخارج، كل مكان أبيض وساكن، هبطت السماء واكتنفت الغابة بأكملها كأنما ترغب في احتضانها، يستلم الحراسة جنود فرقة على طوال السكة الحديدية والبنادق على أكتافهم، وينظر إليَّ جنديان على حافة الغابة بصمت، ومن بعيد قائد الفرقة تختاغُل يعود من العمل على رأس جنوده، أشعر بالأسى والحسرة في سيرهم حتى، لا يتحدثون، يَحز فِيَّ حالهم هذا، اكفهرت الأجواء رويدًا رويدًا وهبطت السحب السوداء على البياض شيئًا فشيئًا، ليس هناك قطار ولا أي صوت... جاء النقيب ماير هذا الصباح ثم ذهب، قال أنه سيرسل لنا هدايا رأس السنة من غوميل، انتظرت طوال اليوم ولم يأتِ أحد، اقترب مني قائد الفرقة تختاغُل وجنوده واجمين شاردين، ثم دخل الجنود إلى الكوخ وظل تختاغُل بجواري.

- «بردٌ يا سيدي القائد... هل تستقبل العام الجديد هكذا في الخارج؟».

- «أين كنتم؟».

- «ذهبنا حتى سرايا الألمان لكنَّا لم نصادف أي شيء في الطريق... لا يخرج رجال العصابات من الغابات ليلة رأس السنة».

- «وماذا يفعل الألمان؟».

- «يحتسون العَرَق[95] ويغنون، يستقبلون العام الجديد..».

دلفنا إلى الداخل، ترك الجنود العائدون من الحراسة أسلحتهم الباردة وتجمعوا حول المدفأة، استمر الصمت ذاته، أقين جالس على طرف فراشه مرفقاه فوق ركبتيه ورأسه على راحتيه يغني أغنية بصوتٍ مؤثر غير أنه لا يوجد من يصغي لأغنيته، رفع أقين صوته كأنه يريد إسماع أغنيته للجنود وإجبارهم على الاستماع كما لو أنه يخبرنا بصوته أنها رأس السنة، غير أن صوته لم يؤثر في أي أحد ولم يزحزح غمه، بعد قليل صمت أقين ثم نهض على قدميه وسار بخطواتٍ ثقيلة حتى أسفل المصباح الصغير المعلق في الحائط وجلس هناك.

أعادت نفسي عليَّ: «أنت قائد هؤلاء الصبية اليتامى، وكما أن حياتهم في يدك ففرحهم وسعادتهم بيدك أيضًا، لم تترك نفسك للأفكار حالكة السواد؟ قم وافعل شيئًا! تحرك قليلًا!».

اتخذت قراري المفاجئ كأنما تخلصت لتوي من حلم خانق:

- «أقين!».

دوَّى صوتي بغتة في سكون الغرفة لدرجة أني -أيضًا- فُزعتُ من صوتي هذا، نظر أقين إليَّ بعينين مذهولتين وكذلك الجنود المندهشين تطلعوا إليَّ.

95- عَرَقُ التَّمْرِ: دِبْسُهُ، أَيْ عَسَلُهُ وَتُطْلَقُ كَلِمَةُ العَرَقِ عَلَى شَرَابٍ مُخَمَّرٍ مُقَطَّرٍ مُسْكِرٍ جِدًّا فِي بُلْدَانِ الشَّرْقِ الأَوْسَطِ، يُتَّخَذُ في مصر والعراق من البلح، وفي الشام من العنب.

- «أقين!».

- «سيدي القائد!».

- «انتبه لي، هناك عمل شديد الجدية والمسؤولية».

- «تأمر سيدي».

- «خذ رجال قدر ما تريد، واذهب إلى القرية التي وراء الغابة، طُف على منزل منزل واجلب العرق الذي تجده إلى هنا، سنحتفل جميعًا بالعام الجديد، هل فهمت؟».

برقت عينا أقين الواسعتان واقترب أكثر مني فأردفتُ:

- «خذ حصانين معًا وأوضح جيدًا غرضي للقرويين، لا تستخدم القوة! ادفع ثمن العرق، إذا لم يريدوا أخذ المال فأعطهم الأحصنة وإذا لم يقبلوا بها فخذها بالقوة، افعل ما بوسعك واجلب العرق إلى هنا؛ ثم كررتُ: «لا تظلموا ولا تتصرفوا بوقاحة حتى يرفض القرويون الأحصنة؛ لكن إذا رفضها القرويون -أيضًا- فافعلوا ما تريدونه»».

تهللت أسارير أقين فاحتضنني ثم استدار إلى جنوده وسأل قائلًا:

- «أيوجد من يريد المجيء معي؟».

رفع الجميع يده فورًا فمر إلى أمامهم:

- «سمعتم الأمر هاه؟».

صاح الجميع قائلين في فمٍ واحد:

- «سمعنا، سيدي القائد!».

استدار أقين إلى الرقيب أول نصر الله بينما كان الجنود يتسلحون:

- «أنت الأولى بهذا العمل يا رقيب، ألن تأتي معنا؟».

تحدثت من الطرف قائلًا:

- «لا، دع الرقيب واذهب أنت أقين، لديه عمل هنا، هو شوربجي[96] هذه الليلة».

خرج الجنود ووقف أقين بجوار الباب ثم رجع وقال آتيًا إلى جواري:

- «كيف سأتحدث مع القرويين؟ صادق بك، يجب أن تكون دبلوماسيًّا كي تنجح في عملٍ كهذا».

تطلعت إلى وجهه بِحَيْرة:

- «ستتحدث بفمك ولسانك بالتأكيد».

96- صانع المرق، صانع الحساء، شوربجي، اسم فاعل بمعني طعّام شوربا كان يطلق في الزمن السابق علي كبراء عساكر الإنكشارية نسبة إلى قزغان الشوربة المعهود تعظيمًا لهم وفي زمننا هذا يطلقونها على من أرادوا إكرامه واعتباره من كبراء النصارى.

- «ثمة أمر لك بألا نتحدث بالروسية».

- «تحدث، تحدث بالروسية، تحدث باللغة التي تريدها!».

- «حسنًا، سيدي».

أجل، لا يمكنني نسيان ليلة رأس السنة هذه، ذهب أحمد أقين مع الرجال إلى القرية وانتقل الرقيب أول من فرقة لأخرى وأعلم جنود السرية بأمري، بدأت الاستعدادات، وكنس الجنود الغرف ونظفوا كل مكان ثم مروا إلى الطاولات وبدؤوا بانتظار الشراب الآتي من القرية حول المصابيح؛ غير أن أقين لم يستطع العودة على أي حال، كانت وجوه الجنود تتجهَّم شيئًا فشيئًا بمرور الوقت، وكنت أتمدد حينًا على فراشي ثم أنهض وأخرج وأنصت للأجواء ثم أعود لحجرتي ثانية، كان صبري ينفذ، وكان نصف الليلة على وشك الحلول وأخيرًا أتت أصوات أقدام من الخارج.

انطلق الجنود جميعهم بغتة، فُتح الباب ودخل الرقيب أول نصر الله.

- «أتوا سيدي القائد».

- «هل جلبوا الشراب؟».

- «لا أعلم أيها القائد، أقين لم يقل أي شيء، كان يطلب التحدث معك أولًا».

مرقت للخارج وأنا أفكر في أنه قد عرض عارضٌ بالتأكيد في

القرية، تبعني نصر الله وفي يده مصباح يُمسكه من فوق كتفي، كان أقين وخلفه بقليل جنوده يقفون بصمت ناكسي رؤوسهم فأخذت المصباح من يد نصر الله ثم اقتربت إلى أقين ورفعته إلى وجهه:

- «تحدث أقين!».

صمت أقين ناظرًا أمامه.

- «قل ماذا حدث؟ هل قتلتم أحدًا؟».

استطاع أخيرًا أن يقول ببطء:

- «لا سيدي القائد».

- «هاه، تحدث!».

- «دخلنا القرية ثم قرعنا باب كل منزل وطلبنا العرق وعرضنا المال، أعطونا إياه لكن رفضوا قبول المال».

- «الأحصنة؟».

- «لا المال ولا الأحصنة... أعطونا إياه بلا مقابل».

- «جيد ياه، هلم..».

قطع أقين كلامي بصوت خشن:

- «هناك مشكلة أخرى سيدي القائد».

- «ما هي؟».

- «فتيات القرية... تعقبن أثرنا وتوسلن قائلًات خذونا نحن أيضًا..».

- «ايييه؟ وماذا حدث؟».

- «أخذنا الفتيات أيضًا..».

- «وأين هن الآن؟».

- «في عربة في طرف الغابة على بعد قرابة الثلاثمائة متر..».

- «اذهب وأحضرهن إلى هنا!».

احتفلنا بالعام الجديد حتى الصباح، واحتسينا العرق حتى الصباح دون أن تنفك أذرع الفتيات الروسيات البيضاوات عن أعناق جنودنا، استقبلنا العام الجديد الذي سيجلب الحرية لتركستاننا ولنا بين أذرع فتيات روسيا البيضاء المتوهجات ذوات العيون الخضراء والوجنات الحمراء مطلقين الرصاص في الهواء وصائحين.

بدأ العام الجديد؛ بيد أن العاصفة الأخيرة كانت تقترب هي الأخرى معه بكل فواجعها.

(7)

تلقينا الأمر بالتحرك إلى الجبهة الشرقية بعد أسبوع، فتجمعت كتيبة تركستان الموجودة تحت قيادة النقيب ماير مع وحدات الإس إس للجنرال فون سكندروف، لم نكن نعلم بعد إلى أي منطقة في الجبهة الشرقية سنذهب، كنا نخمن أنها ستالنغراد بسبب علمنا بقتال التركستانيين على جبهة ستالنغراد لمدة طويلة، تحركت أولاً وحدات الإس إس بجميع مدافعها ودباباتها، وفي صباح اليوم الثالث غادرنا غوميل؛ ورغم أن الأخبار القادمة من الجبهة ولا سيَّما من ستالنغراد لم تكن جيدة جدًّا إلا أن جنودنا كانوا يبدون مبتهجين ومتحمسين لأنهم سيعودون إلى الوطن.

كان الألمان يقولون إنهم سيتعرضون لهجوم كبير عندما تستقيم الطرق في الصيف وأن تركستان ستحصل على حريتها قبل حلول الصيف، أما شبابنا فكانوا يمزحون قائلين:

- «لا حاجة لنا بمساعدتكم، سنحرر وطننا بأنفسنا».

وصلنا إلى شمال القفقاس بعد سفر لمدة أسبوع وعدنا إلى الشمال الشرقي ثم توقفنا في منتصف الليلة عند كوبرله[97]،

97- كوبرله(Kuberle): محطة قطار تقع في إقليم روستوف أحد الكيانات الفدرالية في روسيا.

كان الجند في المقصورات، نزلت من القطار وأردت معرفة أين نوجد؛ كان هناك حشد عسكري ضخم على جانبي السكة الحديدية، وكان بينهم جرحى رُبطت رؤوسهم وأذرعهم يذهبون ويجيئون مترنحين، بعد قليل صادفت بين الألمان جنديين يتحدثان التركية، لم أستطع رؤية وجهيهما في الظلام، جاؤوا بي إلى بناية، وكانت ممراتها تعج بالمحفات المتوالية، دخلنا إلى أحد الغرف، في كل مكان محفة وعلى كل محفة جنود إما بلا ساق أو بلا ذراع ووجوههم تظهر بين الضمادات البيضاء؛ عيونهم واسعة وأزياؤهم ملطخة بالدماء والطين... جميعهم يدخنون السجائر، وذوو الأذرع السليمة كانوا يمسكون السجائر لأصدقائهم المصابين في أذرعهم، كان بينهم المتأوهون بعمق والباكون والصارخون، وكانت ضمادات بعضهم المنحلة المنفكة تتدلى من صدورهم مثل حبال حمراء ثخينة ملطخة بالدماء، أضحت رائحة الجو دماء ولحمًا وجلدًا.

وقفنا أمام الباب، فنظرت إلى الجنديين عن كثب، ارتدى كلاهما بنطالًا جلديًّا فوق ساقه.

- «لأجل تركستان ها!.. افتح عينيك يا صاح».

تدخل آخر في الحديث:

- «هل يجلبونكم إلى ستالنغراد؟».

- «لا أعلم بعد؟».

خيم صمت طويل وبارد بيننا، كان الجنديان يخفيان عني الخطر الذي ينتظرني وجنودي أو أنهما لا يستطيعان التجرؤ على توضيح الفزع والرعب الذي سيحل بنا.

تحدثت كثيرًا مع الجنديين وسط الجرحى، علمت أن جرحاهم ينتظرون منذ يومين القطار الذي سيقلهم إلى الغرب وشعرت باستيائهما وحقدهما لأن الجنود الألمان حُملوا أولًا.

تحركنا صباحًا من كوبرله ونزلنا من القطارات في أرجاء كوتلنيكوفو[98] ثم التحقنا بالوحدات الألمانية.

خرجنا قليلًا في البرد القارس ليلًا تحت ضوء القمر من القرية الساكنة الخاوية، كنا نتقدم بامتداد طريق واسع، تتحطم بهشاشة تحت الكعوب الحديدية لأحذيتنا طبقة الثلج الرقيقة التي أخفت آثار الفرس والعربة، وهناك وحدات ألمانية تتقدم ربما في المقدمة بمئتي متر ومعنا على يميننا ويسارنا.

لا يتحدث أحد ولا أعلم إلى أين سنذهب، يخرج الرقيب الألماني من الظلام بين الفينة والأخرى ويبلغني بأمر النقيب ماير ثم يمتزج بالظلام ثانية، أصوات أقدامنا وحدها في الطريق الذي يتشبث به الثلج الذي تجرفه الرياح وصخب محركات الدبابات الألمانية من بعيد...

98- كوتلنيكوفو(Kotelnikov) : مدينة تقع في إقليم فولغوغراد أحد الكيانات الفدرالية في روسيا.

أشرق الصباح، وبزغت السحب الشرقية، وظهر على اليمين واليسار جند الألمان يسيرون كأنهم صفوف نمل أسفل الظلال السوداء التي انسحبت شيئًا فشيئًا عن المرتفعات البيضاء، بعد هنيهة بدت الشمس القرمزية في الأفق وكان لونها آخذًا في السطوع كلما ارتفعت، سارت الدبابات اللاتي دُهنت بخضار العشب أمام الجنود بقليل، ووراء الجنود كانت المدافع التي وجهت مواسيرها إلى السماء كأنها غابة مرعبة ذات فروع جافة متحركة، وبقيت في الآخر الشاحنات الثقيلة.

أسير أمام كتيبتنا بخمسة عشر مترًا، وبجانبي أحمد أقين، لا يتحدث هو ولا أنا، أعلم أني ذاهب إلى الجبهة ولا أخاف، أشعر أنني قوي، أفكر في الجبهة ونار الحرب وبأني سأصاب وأموت، لا يخطر في بالي أي خطر ولا أرى أي مشقة، أفكر في القرم الأخضر وعندما أتخيل وطني أرى أن الموت لي طبيعي بل إنه لازم حتى.

ندخل الآن إلى قرية، الأرجاء مليئة بالجند وبوسائل الحرب، وفي ما بينهم بعض الجرحى، أنظر إلى هؤلاء الجنود وأفكر في الأيام التي وقعتُ فيها أسيرًا ضد الألمان في صيف عام 1941، كم كان هؤلاء الجنود مختلفين وقتها! كانت أجسادهم شبه العارية التي أحرقتها الشمس في الحدائق وراء الجبهة بخمسمائة متر مثل التماثيل البرونزية، وكأنهم قد أتوا إلى روسيا مستغلين إذنًا

لعدة أسابيع ثم ما لبث أن خاضوا الحرب مع الروس بينما لا زالوا يستعدون، كانوا يركضون في الحدائق وعلى سيقانهم سراويل قصيرة، وكان الذين يرجعون منهم من الجبهة ويخرجون قليلًا من نار الحرب شديدي النظافة وحليقين حتى، يجلسون على العشب في أطراف الطريق ويتناولون الطعام باسطين فُرشًا بيضاء في الأرجاء، كان الشرر نفسه والثقة في الغد في عيني كل منهم، يا لليوم! اليوم كأن الجنود الذين عرفتهم قد ذهبوا وأتى آخرون محلهم، فما هؤلاء إلا أناس محطمون وجامدون وشاحبون ويائسون بعد ذلك، وقد لا تبقى ثقتهم إلى الغد، فما الغد لهؤلاء الجنود الواثبون في البرد حتى يتدفؤوا، والرقباء الجامدون المتطلعون بجفول، والضباط المرتجفون بشدة في أزيائهم الرقيقة الذين يلف بعضهم رأسه بشيلان النساء ما دام أن حكم العالم قد صار خيالًا بعد الآن؟!

تمكنا من الخروج من القرية بشق الأنفس ومنحنا مهلة للاستراحة في الكيلومتر الثالث غير أننا التقينا ثانية قبل مرور ساعة بحشد دبابات ومدافع وجنود ضخم، كان الجند الذين نُقلوا من الشرق إلى الغرب جوعى بائسين، والضباط الذين رأيناهم عن قرب في الأسر قبل سابق وتعرفنا عليهم كأنهم حاليًا محبطين ومخدوعين على الأغلب، كانوا يتطلعون إلى الناس بألم، ويصدرون الأوامر بين الفينة والأخرى بأصوات مبحوحة وجافة وكانت تبدو العربات والشاحنات التي تحمل الجنود الجرحى

داخل الحشد، كان الحشد يزداد كثافة وعدد الشاحنات المحملة بالجرحى تتزايد كلما تقدمنا، كان أولئك الناس الذين تمخضوا عن النظام الألماني قد صاروا لا يشبهون الألمان، فوجوه هؤلاء الناس وحركاتهم وأصواتهم وحتى أفكارهم قد تغيرت حين فقدوا النسق والنظام الألماني، عند الانتصار كان كل واحد منهم مثل البطل الذي صنع المعجزات؛ أما الآن فكانوا يبدون غرباء وضعفاء فحسب، أنظر الآن إلى جنودي القيرغيزيين ذوي القامات القصيرة والعيون الواسعة وأنا أؤمن بأن قومي أشد قوةً واحتمالًا من الجنس الألماني.

أحتسي أنا وبطل وتختاغُل وأقين العرق بجوار عربة لأجل التدفئة، ويدخن العرفاء السجائر مجتمعين في مكان، وبالنظر إلى الألمان -أيضًا- فهم يتحدثون في شيء مضحك غالبًا ويطلقون القهقهات بغتة بين الفينة والأخرى.

يمر بعد قليل من جوارنا مجددًا الجنود منهم المتعب والضعيف والكسيح والمريض والجريح ببندقية ومن دون ثم يذهبون ويتجهون مباشرة إلى الغرب، يتجرع أقين العرق بجواري ويمسح شدقيه بكم سترته ثم يقول:

- «صادق بك، أحضرنا هؤلاء إلى هنا وينسحبون هم الآن، بهذه الطريقة سنحارب نحن ضد روسيا وحدنا على الأغلب!».

- «يظهر هكذا أقين، فليعقدوا الصلح مع الروس حتى لو أرادوا،

أما نحن فليس لنا سبيل آخر، ماذا بوسعنا أن نفعل غير الحرب؟.. سنحارب..».

الشاحنات والعربات مجددًا... الجرحى المستلقيين فوق القش في العربات دون أي حديث كأنما قد انتهت الحياة بالنسبة لهم، يتطلعون إلينا بأعينهم الخاوية اليائسة الغامضة، ومع أنهم يرون لأول مرة –على الأغلب– جنود المغول هؤلاء إلا أنهم لا يندهشون، ولن يندهشوا إذا رأوا شيئًا بعد ما رأوه.

قلت لأقين:

- «اسحب الجنود إلى الطرف قليلًا، لنُفسح الطريق للجرحى..».

فأصدر أقين الأمر وتراجع الجنود إلى حافة الطريق، القافلة المتقدمة نحو الغرب تتوقف بين الحين والآخر ثم يأتي الضباط ويحملون المصابين بشدة إلى الأمام.

حل المساء، وبدأت البرودة تخف قليلًا، فتطايرت حبات الثلج في الهواء الواحدة تلو الأخرى مثل الذباب الأبيض، تتوقف شاحنة سطحها مغلق ومؤخرتها مفتوحة قبلنا بكثير، الشاحنة مليئة بالجرحى، أكثرهم مصابون من سيقانهم وأذرعهم، واحد فقط من رأسه، رأسه الضخمة المحاطة بالقماش تشبه من بعيد كرة ثلج كبيرة، لكن الجرح المحاط بهذا الكم من القماش ليس غائرًا جدًّا حيث كان المصاب يتطلع إلينا بحيرة وفضول ممسكًا طرف الشاحنة بيديه الاثنتين ويدخن سيجارة إلى جانب ذلك

ثم ينظر إلى جنودنا وجرحانا ويتحدث في ما حوله بأشياء ما، بعد قليل خرج من الصف قيرغيزي أسمر ذو عينين صغيرتين قصير القامة للغاية واقترب من الشاحنة ثم توقف أمام الجنود المصابين وسألهم بالألمانية:

- «هاي! أأنتم معسكر ستالنغراد؟».

لم يُجب الألمان الجرحى، ورفعوا أكتافهم وهزوا رؤوسهم ليظهروا عدم فهمهم لما طلبه القيرغيزي فأردف مادًّا أصبع الشهادة إلى صدر الألمان:

- «انتبهوا! أنتم معسكر ستالنغراد؟ ستالنغراد؟ أنتم بوم بوم! بوم..».

نتبادل أنا وأقين النظرات، فيضحك أقين بصورة غريبة.

- «ما عمل هذا الوغد هناك؟».

يخاطب تختاغُل العرفاء:

- «ماذا يوجد هناك؟ مِن فرقة مَن هذا الرجل؟».

تحدث أحد العرفاء:

- «تراجع إلى جنب يا حملي! ماذا كنت تريد أيضًا؟ قل هذا للقائد أولًا!».

تراجع القيرغيزي قصير القامة وأوضح بصوتٍ عالٍ لتختاغُل

قائد الفرقة:

- «سيدي! كان هؤلاء قد أسروني على حافة نهر قبل عامين، وأدخلني شخصٌ في النهر كان يغمس رأسي في المياه ثم يصرخ قائلًا: « أنت بلشفي!.. أنت روسي!.. أنت بوم بوم!.. أنت بوم بوم!» ويُنزل قبضته برأسي من ناحية أخرى..»».

خرج قيليشباي من وسط العرفاء وذهب مباشرة إلى القيرغيزي ثم أمره بصوت صارم:

- «هيا إلى صفك! مارش! دعِ الوغد... ألا ترى؟ قذفه الروس بالقنابل بوم بوم، وبالرصاص دوم دوم[99]».

نظر الجنود إلى حال القيرغيزي وقيليشباي وجنود الألمان الجرحى ثم ضحكوا مقهقهين طويلًا.

سرنا وأظلمت الأجواء بمرور الوقت، كان الجو باردًا وجافًّا، وباتت نجومٌ بلا حصر تلمع في السماء كأنها تتابعنا وتتابع اضطراب العالم عن بعد، كانت سحب كثيفة تتمدد فوق الآفاق الشرقية بلا حراك وكلما اقتربنا كلما كانت الظلال الحمراء تسود حينًا وتبيض حينًا فتصير رهيبة.

نتطلع جميعًا إلى الآفاق القرمزية كلما سرنا بوجوم أكثر كأنما القرار المتعلق بمستقبلنا يُتخذ هناك، يسير أقين ورائي بكثير

99- دوم دوم: نوع من أنواع الرصاص (المعجم الشامل).

بين موهان وقيليشباي، كنت أنصت إلى حديثهما وعيناي على السماء الحمراء.

يحكي أقين:

- «سنخوض الحرب بعد يومين، أنت يا موهان عبرت من أسفل المياه وفي فمك خرطوم لكن لنرى كيف ستعبر نيران ستالنغراد وتدخل قازاقستان؟».

- «أعبر سيدي القائد، أعبر؛ أعبر من النار -أيضًا- كما أعبر من المياه... أنا لن أتراجع بعد الآن، ولن تقطع المياه أو النار أو أي شيء طريقي، فما دام أني وصلت إلى هنا لن أتراجع قبل دخول تركستان... ليرجع الألمان أما أنا فلن أرجع..».

اقترب مني الرقيب أول بوير بعد قليل، هو -أيضًا- يتقدم بجواري في وجوم متطلعًا إلى الآفاق القرمزية المقابلة، ولا يتحدث، يُخبئ في أعماقه ما علمه من الألمان العائدين من الجبهة، حكى الجنود العائدون من الجبهة إلى الرقيب أول أمورًا سيئة للغاية لكنه لا يصدقها أو أنه لا يريد أن يصدقها، أمن الممكن انهزام هذا الجيش المهيب؟ أمن الممكن أن تتحطم آلة الحرب هذه التي يُديرها أفضل القادة اللواءات المنتقين بضربات الموسيقيين الجهلاء الثملة الجوعى الحمقى القذرين كأنها لعبة.

أجل، تتحطم؛ لكني لا أفكر في الرقيب أول بوير ولا حتى في ألمانيا، فهذه العاصفة علينا فقط، وطني القرم والقفقاس

وتركستان! ستقضي على قُرانا ومدننا وتصرع أمهاتنا وأطفالنا وتمحو حضارة ألف عام لنا من على وجه الأرض... أما الرقيب أول فسيرجع إلى بلده ألمانيا ثانيةً فيداعب شعر أبنائه ويترقى إلى رئاسة الفيلق، سيحتسي الرقيب أول بوير الشاي ويأكل كعك البابان[100] ثانيةً، يظن الرقيب أول بوير أني لا أعلم المستقبل؛ لكنني أعلم أن هذا ما سيصير.

توقفنا في الصباح على مقربة من قرية، يُلاحظ عن بعد النشاط داخل الحشد العسكري في القرية، ودبابات ومدافع في الحدائق حولها، يحل محل الدبابات التي تذهب أخرى جديدة.

كنت قد تعرفت على أصوات تلك الدبابات قبل ذلك في الجيش الأحمر والآن في جوار الألمان وتعودت كذلك على ضجيجها! لدرجة أني أشعر أحيانًا بأنها لغة الجبهة والحرب، أعرف من صوتها كم نحن بعيدين أو قريبين من الجبهة وأعرف من صوتها شدة القتال وقوة العدو ونوع عتاده وهل سيبدأ الهجوم أم لا، ظهرت ثلاث طائرات فوق القرية في حين كنا ننظر إلى الحشد العسكري في القرية عن بعد، وبدأت طقطقة البنادق الآلية الموجودة في الحدائق على الجانب الأيمن، جثا الجنود أسفل الطنوف وفي الحفر وعلى حافتي الطريق وأطلقوا النار، صدرت صرخات قائلة: «طائرات العدو! تفرقوا.. تفرقوا!».

100- بابان: قرية في ألمانيا.

ركضت الفرق إلى اليمين وإلى اليسار واتخذوا مواقعهم فورًا، ثم ظهر حاجز ناري بدا أنه يستحيل عبوره، فتراجعت الطائرات عن الاقتراب منا إلى اليمين وابتعدت عن القرية، وبعد نصف ساعة ظهرت ثماني طائرات أخرى في الآفاق إلا أنها لم تنخفض واختفت بين السحب البيضاء القطنية.

لم أكن أعلم كم من الوقت سنبقى هنا، تركت أقين مكاني وصعدت إلى إحدى العربات وتمددت بين الصناديق غير أني سمعت صوت أقين قبل أن أسدل رموشي:

- «يا سيدي القائد! أتى جندي من القيادة... يريد النقيب ماير رؤيتك».

قفزتُ من العربة فورًا وركضتُ إلى القرية المواجهة والجندي الألماني إلى جواري، دخلنا منزلًا خشبيًّا في طرف القرية ذا فناء واسع إلى حد ما وشرفة أمامية، سأل ضابط بجانب الباب عن اسمي واسم مَن أتيت لرؤيته، ثم فتح الباب وأدخلني، كان يوجد في الغرفة ضباط الكتيبة التركستانيين كلهم ومن ثمانية لعشرة ضباط ألمانيين، ولم أكد أدخل حتى بدأ النقيب ماير في شرح الوضع، كانت السرايا التركستانية ستنضم إلى الوحدات الألمانية بعد ذلك، وستقدم فرقة ألمانية إلى كل سرية تركستانية وتصبح كل سرية تحت قيادة قائد الفرقة الألماني، وسيقوم الضباط التركستانيون بوظيفة الاتصال فقط بين الضابط الألماني

والفرقة، بينما كان النقيب ماير يشرح هذا همس قائد سرية تركستاني إلى جواري بهدوء في أذني:

- «من الواضح أنه لم تبقَ لديهم ثقة بنا!».

فرد قائد آخر هامسًا هو الآخربقوله:

- «يثقون بمَن، بنا! لهذا السبب أخاف أن ينهزموا في الحرب».

لم يذكر النقيب ماير اسم الضابط الألماني الذي نُصِّب على السرايا التركستانية بصوت عالٍ فاندهشت، كنت غير مدرك أن هذه اللحظة ستشكل نقطة تحول في حياتي، خرج الضباط التركستانيون مع الضباط الألمان الذين سيترأسون سراياهم وبقيت وحدي مع النقيب ماير في الغرفة، فناداني عندما أردت أنا -أيضًا- الخروج وذهبت إليه فقال محدقًا في عينيَّ:

- «هل الجنود مُتعبون كثيرًا، يا ملازم؟».

- «متعبون، سيدي النقيب».

- «كم كيلومترًا آخر يمكنهم السير؟».

- «بكم كيلومتر تأمر؟».

- «مئتا كيلومتر».

لم أرد، لم أدرك مقصد النقيب ماير وتخيلت بغتة طريق من مئتي كيلومتر سيتم السير فوقه في برد شتاء قارس فأحنيت

رأسي بقلق، كان النقيب ماير لا زال يتطلع إلى وجهي فقلت مؤكدًا: «مئتا كيلومتر» فحسب.

شرح إلى أين سنذهب بينما كنا نخرج من الغرفة سويًّا، هناك قرابة الألفين أسير خارج القرية، فقد قررت القيادة أن تنقل هؤلاء الأسرى بواسطة السرية التابعة للكتيبة التركستانية؛ لأنها تحتاج إلى المزيد من الوحدات الألمانية وقد رأى النقيب ماير أن هذه المهمة تلائمني.

ذهبت إلى مبنى قيادة اللواء فون اسكندروف وتلقيت الأوامر الجديدة، كان الأسرى سيُنقلون من طريق محدد في مدة قصيرة للغاية ويسلمون إلى ضابط اسمه كلاپ قائد الوحدة الهجومية إس إس في كوبرله، كان عددهم ألفين وربعمائة ويُعتقد أنه سيصل إلى كوبرله قرابة الألف ومئتين فقط أو الألف وثلاثمائة مع الأخذ في الاعتبار من سيبقى من البرد والجوع والأمراض في الطريق، وكنت قد تلقيت أمرًا من القيادة بقتل من يتأخر عن الصف أو من يريد الفرار فورًا.

أودعنا القيادة أسلحتنا الثقيلة كلها ذات يوم ودبرنا خيلًا لأجل قائد الفرقة ولأجل الرقيب أول بوير ولأجلي ثم ذهبنا إلى طرف القرية مع كل جنود السرية وتسلمنا من الألمان الألفين وربعمائة أسير، حددت المكان للفرق فورًا وكان سيتم وضع تختاغُل مع فرقته في مقدمة الكتيبة وبطل في الميمنة وإرسان باغير في

الميسرة وأحمد أقين في مؤخرة الكتيبة.

سأل موهان الذي كان يتحدث بين الجنود وهو يمر من جواري:

- «هل صحيحٌ أنك ستنقل هؤلاء إلى بولندا سيدي القائد؟».

توقفت وحولت فرسي إلى موهان:

- «صحيحٌ يا موهان! ألا تريد العودة إلى بولندا؟».

- «اذهب سيادتك! وليذهب سيدي أقين!.. لديه فتاة في بولندا... ماذا لدي هناك!.. سأذهب أنا إلى أستراخان، امنحني الإذن عندما نصل إلى كوبرله سيدي القائد!».

- «وطنك أستراخان أكثر بُعدًا، والروس موجودون هناك».

ابتسمتُ لموهان وقُدتُ فرسي مباشرة إلى فرقة تختاغُل، انتظرنا حتى الصباح الأسرى المرتجفين الملتحمين ببعضهم على ضوء مصابيح الشاحنة، كان وقوف الأسرى وتلاحمهم ببعضهم هكذا وتحدثهم بصوت خافت وكافة حركاتهم تُذكرني بأيامي في الأسر.

مر عليها عامان فقط، كم كانت التغيرات في حياتي كبيرة خلال هذين العامين! أما كنت مثل أولئك الأسرى قبل عامين فقط؟ أما سرت طريقًا لمئات الكيلومترات جائعًا عاريًا؟ أما استلقيت بين الموتى في معسكرات الأسر؟ أما بقيت على ظهري آثار سوط الرقيب الألماني حتى الآن؟ والآن؟ الآن زي الألمان على جسدي

وسأسوق أنا -أيضًا- الأسرى من فوق فرسي، وسأسحب مسدسي وأصيب من يخرج من الصف أو من يتأخر، نعم تغيرت حياتي، ولكن عجبًا هل تغيرتُ أنا -أيضًا- مع حياتي التي تغيرت؟

الليلة ظلماء حالكة؛ بيد أن احمرار الليل في الآفاق الشرقية يزداد قتامة ويتلون بلون الدم أحيانًا، وكلما احمرت الآفاق أضحت الليلة أكثر عمقًا والظلام أكثر رعبًا... أصوات الألمان البعيدة أكثر غرابة ويأسًا كأنما تتواصل في ما بينها داخل الظلام.

كانت الآفاق الشرقية تشتعل غير أنني لم أكُن أعلم بعد أن ذلك اللهيب المرتفع في الآفاق الشرقية سيضيء سبل العاصفة الأخيرة التي ستقلب وطني رأسًا على عقب وتُشتت أمتي.

تحركنا في الصباح باكرًا، وابتعدنا تاركين القرية والوحدات الألمانية وخلفها السرايا التركستانية مع مدافعهم وبنادقهم وراء دخان أبيض، وبعد قرابة الساعة بدأ الثلج يهطل ندفًا ندفًا، كنت أتعجب كلما تطلعت إلى الأسرى السائرين بصمت تحت الثلوج، ولا أعلم لِمَ كنت أرى نفسي أسيرًا مثل هؤلاء بل واحدًا منهم سائرًا بينهم وليس فوق الفرس، كنت أشعر أحيانًا بأن هناك قوة خفية تقودني من خلفي مع هؤلاء، لكن لِم؟ بالتأكيد ليس جراء حزننا على الروس.

تبدل الجو بغتة قبيل المساء بينما كنا نقترب من كوتلنيكوفو، وتحول الثلج الذي لم يدع مكانًا في الصحراء البيضاء المكشوفة

مترامية الأطراف إلى عاصفة، فقررت الدخول إلى كوتلنيكوفو مع الأسرى قبل حلول الظلام حتمًا، وذهبت إلى تختاغُل السائر في المقدمة وقلت له عجِّل بالسير، ثم أصدرت أمرًا إلى فرق بطل وإرسان بتقارب الصفوف، كانت العاصفة الثلجية تخف، وعندما تقدمت أمام الكتيبة بمقدار خمسين مترًا كان يمكنني أن أرى بالكاد مئتين أو مئتين وخمسين أسيرًا، فما بال آخر الكتيبة، ألا زال يتقدم ألفان وربعمائة أسير بين بنادقنا حتى الآن؟ كان الشك داخلي يتزايد مع العاصفة، أتى عريف من فرقة أقين راكضًا بينما اقتربنا من كوتلنيكوفو بمسافة أربعة كيلومترات، فتوقفت وأمسك العريف بعنان الفرس وشرح الوضع في مؤخرة الكتيبة، فقد تأخر الأسرى كثيرًا، من سقطوا على الأرض ومن انهاروا ولم يستطيعوا النهوض موجودون وراء الكتيبة بقرابة النصف كيلومتر، نخست مهمازي ما إن علمت هذا وقدتُ فرسي إلى تختاغُل على الفور، كان تختاغُل في مقدمة الكتيبة يتحرك بنفس السرعة، أمرت بتوقفهم فصاح العرفاء بصوت عالٍ وتوقفت الكتيبة فتقدم تختاغُل:

- «ماذا هناك سيدي القائد؟».

- «توقف لنصف ساعة يا تختاغُل!».

توقفت الكتيبة فضاقت المسافات وأصبح الحشد كثيفًا، نظر الأسرى الذين يسيرون بعرج متشبثين بأصدقائهم إلى وجهي

بألم شديد، فناديت تختاغُل فانتصب أمامي على الفور وعريفه بجانبه كذلك.

- «تختاغُل! أكمل السير بالسرعة نفسها بعد خمس عشرة دقيقة، ولكن أبلغ أمري للأسرى قبل أن نتحرك، فليمسكوا بأيدي بعضهم بعضًا، ولا يترك أيٌّ منهم يد صديقه حتى ولوج كوتلنيكوفو، وسيتم إطلاق النار على من يسير بمفرده في الكتيبة! هل فهمت؟»؛ كررت: «سيتم إطلاق النار على الأسير الذي لا يمسك بيد صديقه، أخبرهم بهذا فورًا!».

- «أمرك سيدي القائد».

جرى العرفاء إلى أطراف الكتيبة وأبلغوا أمري صارخين، فشبّك الأسرى أيديهم بصمت ناكسي رؤوسهم واتحدوا بعضهم ببعض!

بعد قليل وبينما كنت أقترب من أقين كان الأسرى الذين تأخروا عن الكتيبة قد انضموا إلى القسم الكبير، سحب أقين أنفاسه ببطء فوق فرسه وأبلغني البخار المنبعث من فمه في مقابل العاصفة الثلجية:

- «سيدي القائد! موهان مفقود... بقى في الخلف مع أحد الأسرى!».

أدركت انفعال أقين وخوفه من صوته، فاستفسرت قائلًا:

- «متى غادر الكتيبة؟».

- «منذ ساعتين... لا أحد يعرف، قال أحدهم لموهان إننا سنعود بالأسرى إلى بولندا وأوضحت له أنه يكذب فلم يصدقني وقال «اذهبوا أنتم وسأذهب أنا إلى أستراخان»؛ لئلا يكون قد فر سيدي القائد!».

استدعيت تختاغُل فورًا وتركته محلي ثم أمرته بالتقدم وعدت على الفور إلى أقين، قدنا سويًّا فرسينا لأجل أن نبحث عن موهان ونعثر عليه، ركضنا بأقصى سرعة لأربعة كيلومترات، كان وجه أقين يشحب بمرور الوقت ويعبر عن اليأس شيئًا فشيئًا، وكانت العاصفة قد هدأت... وهبطت الظلال السوداء رويدًا رويدًا على القمم البيضاء، وباتت الأرجاء ساكنة وموحشة، غير أني لم أستطع أن أصدق بأي حال أن موهان غادرنا وأننا لن نستطيع العثور عليه، هل هرب؟ كيف؟ وإلى أين؟ كان هذا الصبي البسيط غير الواعي جندينا الأحب.

دنا أقين بفرسه مني، ونظر إلى وجهي بعينين لا زالتا جامدتين ممسكًا ببندقيته الآلية المعلقة في رقبته:

- «صادق بك! كنت أمزح معه قائلًا سنذهب إلى بولندا، أتراه صدق؟».

كان أقين يفهم موهان أفضل مني ويحس به ويخاف عليه أكثر مني؛ أما أنا فاستطعت أن أدرك في اللحظة الأخيرة فقط أن موهان بمفرده.

وجهنا فرسينا إلى الخلف وبدأنا التوجه إلى صفوف الأسرى، سرنا قرابة النصف ساعة وبينما كنا نعبر بجوار دغل كثيف لم تتشبث الثلوج به بسبب شدة الرياح في اليمين هز فرس أقين رأسه صاهلًا كأنما قد أحس بشيء وتوقف بغتة.

قال أقين ناظرًا إلى وجهي نظرةً ذات مغزى:

- «يوجد شيء هنا صادق بك».

نزلت من فوق فرسي فورًا ودخلت بين الأدغال، كان يوجد أسفل قدمَي أقين قناع غاز وبندقية ألمانية ومعطف عسكري مفتوح وعلى طرف رأس المعطف توجد قبعة ألمانية كذلك، نظرت إلى البندقية وقناع الغاز والمعطف مرة أخرى:

- «زيٌّ ألماني؛ يا أقين...».

فقال أقين بصوتٍ متقطعٍ وفزع قليلًا:

- «توجد جثة أسفل المعطف، سيدي القائد».

أزال أقين المعطف فظهرت من أسفله جثة منكمشة ازرق لونها لشخص هزيلٍ ذي شعرٍ أصفر طويل انكسرت خوذته، دفع أقين الجثة بقدمه وأدارها على ظهرها، كان جنديًّا قد أصيب من بطنه واتصلت يداه مع رجليه وبطنه بدماء على هيئة ثلج أحمر متجمد.

عدنا دون أن ننبس بشفة وامتطينا فرسينا ثم ابتعدنا عن هناك، وصلنا إلى كوتلنيكوفو بعد أن سرنا لساعتين في السكون

والعتمة، لم أتحدث أنا ولا أقين طوال الطريق ومع هذا كنا نعلم جيدًا أفكار بعضنا.

سلمنا الأسرى بعد يومين إلى كلاپ قائد الوحدة الهجومية للإس إس في كوبرله واستقرت السرية في مبنى في كوبرله أصبح مدرسة بمرور الوقت.

كنت وأقين نتقاسم نفس الحجرة، وبعد أن فقدنا موهان كان أقين ينكمش دائمًا في زاوية كأنما أُشبع ضربًا ولا يتحدث مطلقًا، يتظاهر نهارًا بأنه يتطلع من النافذة مديرًا ظهره إليَّ ويدخن السيجارة تلو الأخرى دون توقف، ويتمدد ليلًا في الفراش على ظهره ويتطلع إلى أضواء المدفأة التي تتراقص على السقف، ما كنت قد رأيت أقين غامضًا ومنهزمًا هكذا أبدًا، كان يخفي وجهه عني أحيانًا ويبكي سرًّا، لم يفارق نظراته الجمود الذي هبط على عينيه منذ اللحظة التي غادرنا فيها موهان، أما وجدانه فكان سليمًا، بات يستطيع تحمل فواجع أكبر وأشد هولًا بعد ذلك، تحمل ذاتًا...

علمنا بعد أسبوعين أن القوات الألمانية التي تقاتل في ستالنغراد استسلمت للروس، رج هذا الخبر كوبرله مثل الزلزال، كانت الطرق والشوارع تعج بالجنود، وتصدر كلمة ستالنغراد، ستالنغراد... من كل فِيه... وحدهم الجنود الذين تدفقوا من الشرق إلى كوبرله لم يكونوا يتفوهون بهذه الكلمة؛ لأنهم أدركوا معناها جيدًا، فقد

تراجعوا عن فكرة استحالة هزيمة الجيش الألماني الذي حقق المعجزات لمدد وتخلوا عنها وأياديهم ووجوههم وعيونهم مدماة خلال حروب ستالنغراد، كانت الشوارع يعبرها جنود كسيحون أو بلا أذرع، مسلحين أو غير مسلحين، ماذا كانت ستالنغراد بالنسبة لهم؟ ماذا قد حدث، وماذا سيحدث بعد؟ لم يكونوا يفكرون حتى، كانت ألمانيا بمفردها في قلوب البائسين المخدوعين، ألمانيا لم تخسر هذه الحرب في ستالنغراد، ضيعت ألمانيا النصر الذي أحرزته ضد روسيا في معسكرات أوكرانيا وروسيا البيضاء وفي شوارع وارسو، دُفن نصر ألمانيا في الحفر على حواف المدينة مع الناس الذين قتلتهم وحدات الإس إس الهجومية؛ كانت ألمانيا تختتم بالهزيمة حرب روسيا التي بدأتها بالانتصارات جراء عدم شعورها بأنّات القابعين تحت ظلم الروس البلشفيك في أوكرانيا وفي القرم وفي القفقاس وتجاهلها أيادي الملايين التي امتدت لمساعدتها بل ومناصبتهم العداوة وليس تجاهلهم فحسب.

بيد أن الحيثيين لم يستطيعوا التوصل بعد إلى هذه الحقيقة ولا تزال هناك دماء ستراق بغزارة.

ذات صباح وبينما كنت وأقين لا نزال في فراشينا دخل العريف قيليشباي الغرفة صائحًا مائجًا مثل جرس، كان يحاول أن يقول أمرًا منتزعًا شعره بكلتا يديه بالإضافة إلى أنه كان يبكي بحرقة أيضًا، فقفزنا أنا وأقين من فراشينا وهرولنا إلى قيليشباي.

- «ماذا حدث يا قيليشباي؟.. قل!».

- «الألمان سيدي القائد... الألمان موجودون حول المبنى... كلهم من الإس إس... أحضروا موهان... وسيقتلونه..».

بقيت لوهلة مذهولًا فارتدى أقين ملابسه قبل مني وخرج من الغرفة، قفزت وراءه أنا الآخر وكان الجنود في الممر لا خبر لديهم بما جرى ينظرون لي مندهشين بأعينٍ ناعسة.

ظهر أمامي الرقيب أول نصر الله في البداية، وكان وجهه شاحبًا ومنزعجًا لأقصى درجة، دنا مني وقال بهدوء:

- «أحضروا موهان سيدي».

- «هل موهان في الخارج؟».

- «إنه في الخارج... ربطه جنود الإس إس في عمودٍ أمام البناية... يرتدي زي جندي أحمر، أردت التحدث معه لكن الألمان لم يدعوني إلى جواره، وطلبوا رؤيتكم».

خرجنا، كانت توجد دبابة على حافة الطريق في الخارج وكان كلاپ قائد الوحدة الهجومية منتصبًا فوقها ينظر لي ضاربًا بالسوط المجدول الذي بيده طرف سترته الجلدية، وأمام البناية كان جنديان ألمانيان يُقيِّدان موهان حافيًا وعليه زي الجيش الأحمر في سارية التلغراف، وجنود الوحدات الهجومية إس إس يقفون بصمتٍ على الأطراف موجهين بنادقهم إلى موهان وإلى

البناية، ذهبت إلى جانب الدبابة وألقيت التحية على الضابط الواقف فوقها، فقفز كلاپ من الدبابة على الفور ووقف بجانبها وأشار بسوطه إلى موهان المربوط من مرفقيه في ساري التلغراف، وقف دون أن يفتح فمه محدقًا في عيني بنظرات عينيه الأكثر وحشية ربما لخمس دقائق كأنه يقول انظر إلى عينيَّ اللتين تترقبان ما ستقوله واشرح، لم أعلم ما سأقوله لقائد وحدة الهجوم فوقفتُ شاردًا، بعدها بقليل حشر سوطه أسفل مقعده ثم أخرج صحنه وأشعل سيجارة، نفث دخان سيجارته وسأل:

- «من قائد هذا؟ قائد الفرقة؟».

- «أحمد أقين، هو في الداخل..».

- «ليخرج جنود فرقة من الكتيبة إلى الخارج بأسلحتهم، ثم ليخرج جنود السرية المتبقين بغير سلاح ويصطفوا صفًّا!».

- «ما فكرتك سيدي الأوبرشتورمف[101] ؟».

- «سنطلق الرصاص على هذا الخائن أمام عيون كافة جنود السرية، وسينفذ حكم الإعدام جنودكم».

غاص قلبي بين أضلعي.

- «أمن دون محاكمةٍ؟».

101- الأوبرشتورمف (Oberşturmführer):رتبة في وحدات الإس إس النازية تعادل رتبة ملازم أول.

تعكر وجه كلاپ بغتة، فضغط فكيه أولًا ثم تغيرت نظراته وانتفخت أوداجه بسمك أصبع داخل رقبته الحمراء كأنما مس طرفُ حديدٍ مشتعل خصرَه العاري، فرفع سوطه وأسقطه عليَّ بسرعة الصاعقة ثم أمسكني من ياقتي وبدأ يرجني، ركض أقين الذي رأى ما حدث إليَّ ولكن جنود الإس إس دفعوه من صدره بمواسير بنادقهم، وقادوه للخلف إلى البناية، أما قائد الوحدة الوحدة الهجومية فظل يحرك سوطه أسفل أنفي الآن ويصرخ بصوته الأكثر وحشية:

- «أتريد حماية هذا البلشفي؟ مَن أنت لتعترض على أمري؟ كم أصبحتم رجالًا بسرعة! نحن أخذناكم من معسكرات الأسر وكسيناكم وخلصناكم من الأسر! انظر الآن إلى جنديكم هذا! زي الجيش الأحمر على ظهره، سقتم الأسرى لأربعة أيام وأربع ليالٍ والزي الألماني فوق الزي البلشفي! ما كنا هنا ننتظر ألفي وربعمائة أسير ولا نريدهم؛ لكنك فعلت ما فعلت وأحضرتهم جميعًا سالمين إلى هنا، أما كنت تود أن يفر أي أحد من هؤلاء الأسرى؟ لماذا لم تقتل؟ لماذا.. من دون محاكمة! أتظن أنك حُزت حق سؤالي سؤال كهذا بارتداءك الزي الألماني! أعطيك مهلة لعشر دقائق، لتخرج جنودك بلا سلاح، وليقتل جند الفرقة المسلحون هذا الخائن! وإن لم تقتلوه نحن سنقتله، افعل ما قلته! وإن لم تفعله فلن يكون الميت هو ذلك الخائن فحسب! ومن يبقى حيًّا فإلى معسكرات الأسر! هل فهمت

جيدًا؟ الزي الألماني ليس لك! هيا، سر مارش!

ثم أصدر الأوامر لجنود الإس إس والسوط في يده، فركض الجنود واتخذوا مواقعهم على الدبابة وعلى حافة الطريق وخلف الجدار الحجري المنخفض.

لو كان هناك أحدٌ آخر مكاني ماذا كان فعل؟ كان التركي الحقيقي سيسحب مسدسه ويقتل الألماني الخائن على الفور ويثأر لموهان؛ لأني أعلم أن موهان ليس خائنًا، فما كان موهان قد ارتدى ذلك الزي الكريه على ظهره لأنه أعجبه، كان هناك وطنًا يشتاق إليه، وقد حمل الزي راضيًا لمدة صدق فيها أنه سيوصله إلى هناك؛ لكنه قد بدأ يدرك أنه لن يستطيع الذهاب إلى وطنه بهذا الزي بعد ذلك، وقد قام موهان المهووس بهذه الفكرة بجنون لا يمكن لرجل عاقل القيام به، فما كنت أستطيع فعل هذا، أرى موهان المقيد في ساري التلغراف كل ليلة في منامي، رأسه متدلية أمامه وأحيانًا يرفع رأسه وينظر في عينيَّ بصمت..

ذهبت ودخلت المبنى، فالتف حولي قادة الفرقة بمجرد أن دخلت من الباب، وتفحص تختاغُل وجهي بدقة ثم مد يديه وأمسك بيدي الاثنتين بغتة كأنه رأى شيئًا غريبًا بشدة في وجهي:

- «نحن سننفذ ما تأمر به صادق بك، لا يمكننا أن نشاهد أولئك الديوثون يقتلون موهان... أصدر الأمر يا صادق بك..».

لم أستطع التحدث كنت كالمختنق كأنما علق شيء بحلقي،

وظل تختاغُل يحدق في وجهي بعينيه الدامعتين دون أن يترك يديَّ كأنما قرأ هذا داخلي، قرأ في عينيَّ ما كان يجري بأعماقي وأدرك كم أنا مخلوق عاجز وجبان.

- «أصدر الأمر يا تختاغُل... ليخرج الجنود أمام المبنى، وبلا سلاح... ليتركوا أسلحتهم في غرفهم، وأنت يا أقين تعالَ معي».

تركني تختاغُل على الفور، فانسحبت إلى جوار أقين، تطلع فيَّ بألم، فقبضت على يده وبدأت شفتاه ترتجفان كأنما أدرك كل شيءٍ لتوه.

قلت: « ابق قويًّا يا أقين!».

فقال مرتجفًا: «هل سيقتلونه؟».

وزع جنود الفرقة، وليأخذوا أسلحتهم... فسنقتله نحن.

جثا أقين على الأرض كأن ركبتيه صارتا لا تقويان على حمله بغتة وبدأ البكاء بصراخ مطوقًا قدماي:

- «أنا لا أستطيع أن أفعلها صادق بك! لا يمكن أن أفعلها! بالله عليك... لا يمكنني فعلها!».

انحنيت وأمسكته من ذراعيه ثم رفعته على قدميه، كان أقين يبكي مرتجفًا ويديه الاثنتين على فمه، تحدثنا بأنين:

- «ليس هذا يسيرًا عليَّ -أيضًا- يا أقين، لكن لا سبيل آخر لنا، كن متفهمًا..».

- «موهان ليس بلشفيًّا يا صادق بك».

- «أعلم، إذا لم نقتله نحن فسيقتله الألمان».

- «فليقتلوه، أنا لا يمكنني أن أفعل».

- «أقين! هذا أمر، إنه أمري، وزع جنود الفرقة وليأخذوا أسلحتهم ثم ليخرجوا أمام البناية».

أخفى أقين وجهه بيديه ثانية ثم انصرف عني باكيًا كالأطفال.

كان الجنود غير المسلحين قد اصطفوا صفًّا أمام البناية بعد عشرة دقائق، شقت الفرقة المسلحة وأقين في المقدمة الصف وتوقفوا مقابل موهان المقيد في ساري التلغراف.

كان قائد الوحدة الهجومية كلاپ فوق الدبابة القابعة على حافة الطريق يتابعنا متكئًا على مدفع الدبابة، دنوت من موهان المقيد في السارية، كانت رأس موهان قد سقطت على صدره وعيناه مغلقتان، وضعت يدي على كتفه ففتح عينيه بهدوء ونظر إلى وجهي دون أن يرفع رأسه ثم قال ببطء: «اغفر لي خطئي يا آغا»، ثم أسدل رموش عينيه ببطء ثانية، بعدها حضر أقين إلى جواري وانحنى مع دموع عينيه التي انسابت على وجنتيه ثم قبَّل موهان من جبهته، بعثت قبلة أقين الحياة في موهان فجأة، فرفع رأسه

كأنما تبادر إلى ذهنه بغته أن عدم انتصاب رأسه في مواجهة الموت سيعد عيبًا فنظر أمامه إلى أصدقائه الجنود الموجهين فوهات بنادقهم إلى صدره وابتسم، فتراجع أقين للخلف ثم رفع يده وأصدر الأمر فأطلقت البنادق كلها النيران دفعة واحدة وسقط رأس موهان ثانية على صدره وأغمض ابنٌ وفيٌّ بطلٌ آخر لتركستاننا عينيه عنا وعن تركستانه على ألا يفتحها ثانية.

ذهب الألمان... والتففنا نحن والجنود اليتامى حول موهان.

في اليوم التالي كنا نجلس بصمت في الغرفة؛ أحمد أقين بجوار النافذة وأنا على طرف فراشي مديرين ظهرينا بعضنا لبعض، دخل الرقيب أول نصر الله بظرف في يده إلى الغرفة ثم تقدم على طرفي قدميه كأنما كان يتجنب إزعاج أقين الحزين المهموم؛ وقال بصوت منخفض للغاية واقفًا أمام فراشه:

- «أتت إليك رسالة يا سيدي».
- «أَإليَّ؟».

أخذت الظرف من يد نصر الله وقرأت الرسالة القصيرة المكتوبة بالألمانية:

«سيادة الملازم صادق كمال،

بعد حديثنا في المنزل أول مرة ثم في قطار وارسو سيُدهشك بالتأكيد استلام رسالة مني الآن -من يدري- في أي ساحة حرب

روسية، هل تتذكرني؟ أرجو أن تتذكر مساء اليوم الذي استولى فيه جنديك على مالي وهرب لكي أعرفك بنفسي، أعلم أنك فكرت بأشياء سيئة في حقي في ذلك المساء، ولا أستغرب هذا، أظن أنك لا تنسى كلامي الظالم لك، تقابلنا في اليوم التالي في قطار وارسو ورددت ثانية يد الصداقة والرفقة منك، لِم؟ لا أعلم، رأيتك مرة أخرى عندما كنت أدعو جاثية على ركبتي في الكنيسة، وبينما كنت ترتدي زي أعدائك حتى؛ كنت أحس في نظراتك بمشاعر الرفقة وأشعر أنك قريب مني، إذا كان هناك شخص آخر يشعر بأنك قريب منه غيري فلا ترد على رسالتي، وإلا فاكتب عدة سطور رجاءً، وسأكتب الرد على رسائلك، سأدعو لك وأنتظرك.

وارسو- لوجيونوفا

فيلا مارية كوربينسكا.»

بعد أسبوع بالضبط، نقلنا الأسرى الذين جلبناهم إلى كوبرله هذه المرة إلى ماكيفكا[102]؛ غير أننا لم نكن بمفردنا بعد ذلك، كنا نتقدم إلى جوار صفوف الأسرى وخلفنا بمائة وخمسين مترًا

102- ماكيفكا (Makeyevka): هي مدينة تقع في إقليم دونيستك في أوكرانيا.

كلاپ ووحدات الإس إس، ذهبوا حتى ماكيفكا في الشاحنات موجهين إلى الأسرى وإلينا بنادقهم الآلية.

(8)

روما 1. 11. 1946

أعيش منذ شهرين بلا طبيب، ولا أريد رؤية الطبيب مرة أخرى، أعلم أنه لن يتمكن من مداواتي، فلا يمكنه دخول رأسي بالتأكيد! إلى متى سيستطيع جسدي تحمل ظلم رأسي، ربما هو يتحمل كذلك؛ لكن ماذا إذا لم يستطع التحمل؟ لو تُمحى كل آمالي من أعماقي ومن قلبي، أخاف كثيرًا في هذا الأسبوع الأخير من ألا أستطيع كتابة أكثر الذكريات وإتمامها، ولذا أكتب على عجلة حتى أني لا أقرأ الملاحظات الأخيرة، كانت صحتي أفضل قبل شهرين، فقبل أكثر من شهرين كنت ألجأ إلى ذكرياتي حين أهرب من الحياة، كانت الذكريات تواسيني في حياتي، وتبعث فيَّ الآمال وتُسكنِّي وتُقويني، عشت حتى الآن معها دائمًا، تهرب ذكرياتي الآن مني، وأرى كل ما كتبته وما سأكتبه -أيضًا- باليًا مثلي، لأجل مَن كتبت هذا؟ مَن سيقرأه؟ لا أحد! لا أحد مطلقًا...

روما 2. 11. 1946

لا يمكنني البقاء في غرفة هذا الفندق غير أسبوع فقط، أعطيت

الثلاثمائة ليرة آخر ما لدي لمالك الفندق ويتوجب عليَّ أن أغادر الفندق الأسبوع القادم، إلى أين سأذهب وكيف سأعيش؛ لا أعلم، ولا أفكر حتى، أشعر بأن هذا الأسبوع هو الأسبوع الأخير في حياتي، أفرغت تبغي الأخير من صُرة السيد عباس القرماني مساء أمس ولففت ثلاث سجائر رفيعة، كان رأسي يؤلمني قليلًا، أريد أن أنهي الذكريات في الأسبوع القادم هذا بأي طريقة قبل أن أخرج من الفندق، أريد إجبار نفسي على الكتابة، جلست مساء أمس لأجل الكتابة، الذكريات على الطاولة التي أمامي أما عقلي ففي مكان آخر... لم يخطر مشهد واحد من أيامي الماضية على ذهني مهما حاولت التذكر، ولم أستطع كتابة سطر واحد، أشعلت بعدها إحدى سجائري وتمددت على الفراش، ألأني لا أعيش الذكريات أم لأني أفكر كيف سأقضي الغد بلا مال وبلا طعام؟! تبسمت بيني وبين نفسي بألم، ماذا سيحدث غدًا؟ سأستلقي في الغد مثل كل يوم أسفل هذا اللحاف الأطلسي[103] الأحمر هذا وأبكي، غدًا؟ الأسبوع التالي؟ يا ربي! كيف سأعيش؟ أنا لست كأي مهاجر آخر، ولا يمكنني أن أذهب وأطلب طرد أمريكي من

103- نسبة للمحيط الأطلسي (الأطلنطي).

U. N. R. R. A.[104]. فأنا كنت أحارب ضدهم وضد حلفاء أمريكا وعلى ظهري الزي الألماني حتى العام المنصرم، وبالنسبة لهم أنا خائن للوطن، فالناس الذين يمكنني التعويل على مشاعرهم الإنسانية تجاهي وتجاه وطني يعتبرونني عدوًّا، ولا يمكنني الذهاب وترجي المساعدة منهم.

هدأت بعد أن بكيت طويلًا، فنهضت من الفراش وأردت أن أكمل الذكريات، لكن هم الغد كان أشد ألمًا من الذكريات، ففكرت فيه حتى منتصف الليل، كل الأبواب مغلقة أمامي وكل الأضواء باهتة أمامي...

نهضت وأشعلت سيجارة أخرى، ثم جلست على حافة فراشي وفكرت في الغد ومرفقَي على ركبتيَّ ورأسي بين راحتيَّ، لا أستطيع الذهاب إلى جانب أبناء وطني القابعين في معسكرات اللاجئين النمساوية، لا مال لدي لأستطيع الذهاب؟ أبناء وطني هناك قد علقوا رايات الترك في معسكراتهم، ويقولون نحن أتراك، ووطننا تركيا، هم بالتأكيد أتراك! ولا يمكن لأي أحد أن يأخذ منهم حق العيش تحت أعلام الترك، كان ينبغي عليَّ أنا -أيضًا-

---

104- إدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل: أسست إدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل (UNRRA) في نوفمبر/تشرين الثاني 1943 بمشاركة 44 دولة لمساعدة اللاجئين من عدوان دول المحور، والغرض منها التنسيق للتخفيف عن ضحايا الحرب في المناطق الخاضعة لسيطرة الأمم المتحدة من خلال توفير الطعام والشراب والدواء وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، عملت إدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل (UNRRA) على مساعدة ملايين اللاجئين الذين شردتهم الحرب وتوابعها.

في أيامي الأليمة هذه أن أكون بينهم ومعهم! لا تنسانا تركيا، ولا يمكن أن تنسانا، ليتني أذهب إلى القنصلية التركية مباشرة وأشرح لهم مشكلتي؟

ظهرت لي هذه الفكرة ليلة أمس كأنها طوق النجاة الوحيد، وكأنها كانت ترقد داخلي منذ يوم ولادتي ثم نشطت فجأة ليلة أمس وسيطرت على كل كياني، أحسست للمرة الأولى أني إنسان مهم في الحياة، فأنا -أيضًا- ابنٌ لذلك الوطن! ولدي جسد مفعم بالنشاط وذراعان سليمان أيضًا، سأعمل في مصانع تركيا الحديثة وفي مناجم الفحم والمعادن كتفًا بكتفٍ مع إخوتي الأتراك على أراضي الأناضول وأقدم مساهمة بسيطة بذراعيَّ هذين وبيديَّ هاتين لأجل نقل تركيا من نجاحٍ لنجاح، فأنا معهم وواحدًا منهم، وعندما يواجه وطن الترك أي خطر سأرتدي الزي التركي على ظهري وأصير أخيرًا في ذلك الزي صادق طوران الحقيقي!

لم أنم حتى الصباح، فكرت حتى الصباح في كيفية مقابلة القنصل التركي وماذا سأقول.

بزغ الصباح وكان الجو ممطرًا، وكنت متحمسًا، لمَّعتُ حذائيَ القديم وبسطت ملابسي مثل عاشق يستعد للذهاب لحبيبته، اغتسلت وارتديت ملابسي ثم نظرت في الساعة، كانت لا تزال السابعة، فدخنت سيجارتي الأخيرة بينما أحفظ ما سأقوله مجيئًا

وذهابًا في حجرة الفندق طولًا وعرضًا، ثم خرجت من حجرتي أخيرًا في تمام التاسعة، وبعد نصف ساعة كنت أسفل رمز الهلال والنجمة الكائن أعلى باب القنصلية التركية، لم أكن قد شعرت أبدًا أني سعيد لهذه الدرجة في حياتي، يتطلع لي ذلك الهلال فوقي بفخر، كان يقول إني -أيضًا- إنسانٌ مهم في الحياة، ضغطت الجرس ففتحت الباب سيدة ذات مئزر أبيض نظيف وتفحصتني من رأسي حتى أخمص قدمي كأنما تعجبت من مجيئي في ساعة مبكرة، ردت بالإيطالية على سلامي بعد أن نظرت إلى قدمي طويلًا كأنما رأت شيئًا في حذائي القديم، لم ألتفت إلى نظراتها الباردة مطلقًا، كنت أعلم أن هنا أرضًا تركية ويُتحدث بلغتي، لم تدخلني المرأة للداخل لكنها ذهبت دون أن تغلق الباب وعادت بعد خمس دقائق مع شابٍ أسمر طويل القامة، سلم عليَّ، ثم أمسك بيدي وأدخلني للداخل، عبرنا ممرًا نظيفًا ثم توقفنا أمام باب وسأل الشاب عن سبب مجيئي إلا أنني قلت إني أريد مقابلة القنصل مباشرة، طرق الشاب الأسمر الباب الذي توقفنا أمامه ودخل الحجرة وانتظرت لعشر دقائق، ثم فُتح الباب مرة أخرى وخرج شخصٌ طويلٌ ذو شارب مسنٌ بعض الشيء وسألني في إيجاز بعد أن تفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي هو الآخر:

- «من أين حضرتك؟».

- «أنا تركي سيدي، تركي قرمي..».

- «حسنًا».

لا أعلم لِمَ شعرت وقتها بتحطم آمالي وبانهزامي شيئًا فشيئًا وبخروج الجمل التي أعددتها ليلة أمس لأقولها للسيد القنصل كلها من رأسي وبأني مخلوق ضعيف، فالآن وربما للمرة الأولى أدرك أنه لا يكفي أن أكون تركيًّا، قال القنصل محدقًا في عينيّ:

- «أنت من الرعايا الروس، أليس كذلك؟».

لم أستطع أن أرد، كانت الكلمات التي حفظتها في غرفة الفندق ليلًا قد مُحيت من ذاكرتي وتركتني مهزومًا مشوشًا، لم أكن أعرف ماذا سأقول للرجل الذي أمامي.

- «هل لك أقارب في تركيا؟ لوكان لك أقارب في تركيا فاكتب لهم رسالة وليكتبوا هم -أيضًا- لي، وربما نفعل شيئًا في المستقبل ونحاول إرسالك إلى تركيا، فلم يتخذ قرارًا لأجل استقبال اللاجئين في دولتنا بعد، سيتخذ بإذن الله، أنت الآن افعل ما قلته واكتب لأقربائك..».

تراجعت واتجهت إلى الباب، كانت المرأة ذات المئزر النظيف تتبعني، خرجت وتطلعت مرة أخرى إلى الهلال والنجمة اللذين على الباب، ذلك الهلال والنجمة أبكياني من أعماقي مرة أخرى، أغلقت الباب خلفي وبقيت بمفردي وحيدًا مرة أخرى في دنياي البائسة المعتمة، عبرت طريق الحديقة القصير فمست يدٌ كتفي عندما كنت على وشك الخروج إلى الشارع:

- «توقف أخي!».

عرفت من صوته أنه الشاب الذي تحدث معي في ممر القنصلية، فأدرت رأسي كي أخفي دموع عينيّ، مد يده وأمسك بيدي ثم ضغط على شيء في راحتي.

- «خذ هذه البطاقة، لو ليس هناك أحد آخر تعرفه في روما فاذهب إلى العنوان المكتوب في البطاقة، فهناك مطعم إيطالي، حدِّث صاحبه عني وربما يعطي لك عملًا..».

ليس ثمة منهك ولا خائف بقدري بين الناس الذاهبين والمتدفقين عن يميني ويساري!

رجعت إلى غرفتي في الفندق، وعندما بسطت يدي لأمسح دموع عينيّ أمام النافذة وجدت البطاقة بين خمسمائة ليرة إيطالية تجعدت وتكورت من ضغطها آنفًا.

روما 3. 11. 1946

بحثت هذا الصباح عن المطعم الإيطالي المكتوب عنوانه في البطاقة فوجدته، أتت بي امرأة ذات فستان خفيف جسدها يابس مثل الخشب وساقاها رفيعتان مثل العصا إلى المطبخ في آخر المطعم، كان رجل سمين صدره ووسطه عاريين وذراعاه مشمرتين حتى مرفقيه يقشر البصل على منضدة في المطبخ، تحدثت المرأة مع الرجل الذي رأيته بصفته صاحب المطعم،

فأظهرت له بطاقة الموظف الموجود في القنصلية، نظر الرجل إلى البطاقة ثم قال للمرأة عدة أشياء صارمة بصوت عالٍ فخرجت على الفور، وبعد أن تفحصني صاحب المطعم مطولًا أوضح لي وهو يفرز البصل من ناحية أنه لن يعطيني نقودًا لكني إن أردت العمل مقابل إشباع جوفي فيمكنني البقاء معه.

روما 6. 11. 1946

يهطل المطر اليوم مجددًا، والجو بارد في الخارج، غرفتي الرطبة معتمة وساكنة مثل أعماقي... كل عظامي تئِنُّ، جلست مساء أمس دون أن أغادر الفندق وأردت كتابة مذكراتي وإتمامها؛ ولم أستطع فعل أي شيء، ليس لي ذكريات بعد الآن ولن أستطيع اللوذ بذكرياتي بعد ذلك، أشك حتى في ذكرياتي التي كتبتها هذه، لكن ما أهميتها فالواقع أنه لن يقرأها أي أحد حيث إن...

روما 6. 11. 1946

دفعت في يد صاحب الفندق الخمسمائة ليرة التي أعطاها لي صباح أمس الشاب التركي الموجود في القنصلية، ثم ذهبت إلى مطعم الإيطالي قبيل الظهيرة، دلفت إلى الداخل لكني لم أستطع القول بأي حال أني قد أتيت لإشباع جوفي، يعرف الشاب التركي الأسمر أني روسي، أو إيطالي، لو يعلم أني تجندت في الجيش الألماني في تلك الحرب...

تجولت في الشوارع طوال اليوم جائعًا وغريبًا، وقبيل المساء

كنت أعبر فيا_جرجورينا[105] لأجل العودة إلى فندقي فصادفت معسكر لاجئين على المنحدر أمام باب بناية عتيقة اكفهرت جدرانها، كان أغلبه لاجئون بولنديون وأوكرانيون، نظرت إلى لوحة أعلى الباب، وقرأت المكتوب عليها "comite international de la Croix Rouge"[106]، كان المهاجرون يلجون إلى الداخل ثم يخرجون، بحثت بينهم على وجهٍ رؤوف، واقتربت من شخص نحيف ذي قامة قصيرة وسألته قائلًا:

- «ماذا يوجد هنا يا صديق؟».
- «جمعية الصليب الأحمر... يعطون وثيقة للمهاجرين الذين بلا هوية، ويساعدون من يريدون الذهاب إلى أوطانهم البعيدة».

دلفت إلى الداخل وانتظرت في صف بين المهاجرين، دعاني الموظف بعد ساعة إلى حجرته، ثم أشار لي الموظف الذي مر إلى المقعد الموجود وراء طاولته في الغرفة الواسعة إلى مكان مقابله، عُقد حاجباه وهو ينظر إلى وجهي وكنت أرتجف خوفًا من أن يسألني أسئلة كثيرة، ثم أحنيت رأسي على الورق المفتوح الموضوع أمامه، فأمسك قلمه وكتب عدة أشياء ثم نظر إلى وجهي مطولًا من جديد وقال بعدها:

105- فيا-جرجورينا(Via Gregoriana): شارع يقع في روما في إيطاليا.

106- الهيئة الدولية للصليب الأحمر.

- «ما لقبك؟[107]».

- «طوران».

- «اسمك؟[108]».

- «صادق».

- «ما محل ولادتك؟[109]».

- «القرم».

- «روسيا؟».

سكتتُّ.

- «الجنسية؟[110]».

هززت رأسي بمعنى لا وأردت أن أشرح أنني لست من رعايا أي دولة، فنظر لي الموظف مرة أخرى طويلًا وفي النهاية كتب بالحبر الأحمر الذي أمامه بحروف ضخمة كلمة «بلا جنسية» أجل فأنا بلا جنسية، كنت إنسانًا بلا وطن وبلا أهمية؛ لكن الشخص الجالس مقابلي لم يكن قاسيًا وبلا رحمة كما يبدو، كان الخط المستقيم الكائن وسط حاجبيه قد تلاشى الآن، كأنه قد حزن علي

107- "Nome di familge?"

108- "Nome?"

109- "Luago di nastita?"

110- "Nacionalita?"

بسبب كوني بلا وطن وبلا دولة، ترك قلمه على الطاولة فوق الأوراق، ثم نظر إلى وجهي مثل صديق وشرح لي أن الاستقرار على أرض في الدنيا حتمي.

ثمة شيء كان يحز في حلقي كلما أردت الرد على موظف الصليب الأحمر بأني أريد مغادرة إيطاليا.

- «إلى أين؟».

حفظت في قلبي القرم دولتي الجميلة الخضراء وأردت الذهاب بعيدًا بعيدًا.

- «إلى أين؟».

- «ليكن إلى أي مكان؟».

- «إلى أين؟ الأرجنتين؟.. البرازيل؟.. الأرجواي؟».

قلت:

- «الأرجواي».

خط في الوثيقة بأحرف حمراء من جديد أسفل «بلا جنسية» جملة «يريد الاستقرار في الأرجواي»، وكأن ما يوجد بيده كان فأسًا وليس قلمًا، كأنه يقطع شجرة خضلة من جذرها.

(9)

بقينا في ماكيفكا أسبوع، لم نكن نعرف بعد إلى أي جهة سنتحرك من هنا، وذات صباح تم استدعائي إلى مقر القيادة العامة، ورأيت في مقر القيادة بين الضباط المجتمعين في الممر قائد الوحدة الهجومية كلاپ الذي أصدر الأمر بقتل موهان، حدق في وجهي بقسوة ثم دخل إلى غرفة القائد العام مارًّا من جواري دون أن يقل شيئًا، خرج شخص من الغرفة التي دخلها كلاپ ودعاني -أيضًا- للداخل بعد أن انتظرت نصف ساعة في الممر، فدخلت وكان كلاپ قائد الوحدة الهجومية يقف منتصبًا على قدميه مثل العمود أمام القائد الألماني ووجهه شديد البياض كالجير، كنا في صمت مخيف، في رأسينا يجول الخطر؟ نهض القائد على قدميه ما إن دخلت وصرخ كأنما هو وكلاپ أمامه بمفردهما في الغرفة أو أنه يريد أن يُعلِّمني خاصة بهذا:

- «من أعطى لك الحق بإطلاق الرصاص على هذا المذنب؟ قرار كهذا يمكن أن يصدره ديوان الحرب فقط لا أنتم ولا أنا، أولئك جنودنا، ولهم علينا حق، رأيتم أحدهم فر من الجيش؛ لكن كم منهم ضحى بحياته من أجل ألمانيا؟ هل تعلم سيد الأوبرشتورمف! أخشى أن تحاسب على فعلتك هذه أمام

القيادة العليا».

لم أرَ قائد الوحدة الهجومية بعد اليوم، ولا أعلم هل قال القائد هذا لكي يُنسيني ما سمعته ولا سيَّما كلمات كلاپ هذه ووفاة موهان بغير حق هكذا أم بنية تحميل المسؤولية لكلاپ حقيقةً لأنه بالفعل غاضب من فعل ضابطه غير القانوني.

علمت ذلك اليوم أن صلتنا بسرايا النقيب ماير التركستانية المتقدمة تجاه ستالنغراد قد قُطعت تمامًا، وأن جميع السرايا التركستانية الموجودة في أوكرانيا وعلى المناطق الأخرى للجبهة ستنسحب إلى بولندا وتتحد بفيلق تركستان الموجود في لجيونوفا ثم سيتم نقلها إلى أوربا الغربية، غير أنني لم أعلم السبب، كنت سأتحرك من كييف إلى الشمال بعد أن أصل إليها من ماكيفكا بالقطار ومن ثَم كنت سأتلقى الأوامر الجديدة ثانية من القيادة العسكرية الألمانية في غوميل.

تحركنا من ماكيفكا صباح الأول من مايو عام 1943 ووصلنا إلى غوميل في الثالث عشر من مايو، كانت غوميل قد أضحت منطقة خطيرة للغاية بسبب حرب العصابات الجارية في أطرافها بعد الهجوم الضخم للجيش الروسي عليها، فكانت كل وحدة عصابة بقوة كتيبة مستقلة ذات زي مسلحة كلها بالكامل تستطيع أن تختبئ في الغابات لأسابيع وتلحق أضرارًا بالغة بالنقاط الهامة استراتيجيًّا وبمطارات الألمان وبمخازن مؤنهم

وبالقرى، علمت أنه سيتم نقل فيلق تركستان في غوميل من لجيونوفا إلى فرنسا في حوالي ثلاثة أشهر، وبقينا خلال الثلاثة أشهر هذه في غوميل وكنا نعاون الوحدات الألمانية التي تقاتل رجال العصابات المحيطين.

تحركنا على الفور وقاتلنا مع السرايا الألمانية رجال العصابات بين غوميل-جلوبين لستة أشهر، قدمنا خمسة عشر قتيلًا في ستة أشهر ووضعنا ثلاثين جريحًا تقريبًا في مشفى غوميل، وفي الثالث عشر من أغسطس تلقيت الأمر بالعودة فورًا إلى غوميل مع المائة وثلاثين فرسًا والثمانية وستين عربة وبعض الأسلحة التي استولينا عليها من رجال العصابات.

أُمرنا في العشرين من الشهر بالتحرك مع جنودنا المرضى والجرحى وكل حيواناتنا إلى لجيونوفا.

كان الثلج يهطل ندفًا ندفًا عندما خرجنا من غوميل، وكان أقين الذي يتقدم على فرسه بجواري يبدو مسرورًا كأنما نسي الأيام الأليمة التي قضاها بعد وفاة موهان، وكان وجهه يبتسم لأول مرة، لم أكن أعلم جيدًا سبب شعور أقين بالسعادة هكذا، لكني لم أستطع قول شيء حتى دخولنا الأراضي البولندية، وبينما نعبر من كوفل[111] فتحت الحديث مع أقين عن رسالة مارية للمرة الأولى، فبرقت عيناه فجأة وأخذ الرسالة من يدي ثم قرأها.

111- كوفل (Kovel): هي مدينة تقع في مقاطعة فولين غرب شمال أوكرانيا.

قال:

- «لِم لَم تقل شيئًا حتى هذا الوقت صادق بك؟».

- «ماذا كنت سأقول، تلقيت هذه الرسالة مساء اليوم الذي قتلنا فيه موهان، ما كنت سأنهض واحتفل لأني تلقيت رسالة من حبيبتي بينما يبكي جميع الجنود بسبب وفاة موهان!».

- «لكن بعدها؟».

- «بعدها ظللنا نقاتل... لو أنت اليوم سليم فالغد ميت... هذا نصيب، من يعلم؟».

- «وماذا ستفعل الآن؟».

- «لا شيء..».

- «ماذا تعني بلا شيء؟».

شحب وجه أقين بغتة واستمر في كلامه:

- «تلك الفتاة تحبك يا صادق بك».

- «لا يُعقل؟».

- «تحب،أجل تحب!».

- «وماذا بمقدوري أن أفعل؟».

انتابني الخوف حقيقةً مع دخولنا أراضي بولندا من أن يكون

أقين سيهرب إلى حبيبته، واستحضرت فاجعة موهان بكل رعبها فكنت أريد التأكد من أنه لن يفعل شيئًا كهذا، فقد ظهرت إشاعة في كتيبة أقين بين الجنود تقول إن قادتنا سيتزوجون في بولندا وستذبح في أعراسهم الحمال التي سنحملها في عربات وستحل البهجة والتسلية، جذبت أقين إلى مكان خاوٍ عندما وجدت الفرصة سانحة وقررت أن أفصح عن أفكاري، وأعد أقين نفسه لهذه الفرصة، فتهيأ مجددًا من يرغب في التحدث عن مارية وعندما أراد أن يتحدث عن مارية ثانية قاطعت كلامه فورًا بقولي:

- «أقين! أنا أعلم تلك الفتاة أفضل منك».

فاعترض أقين في التو قائلًا:

- «أنت لا تعرف تلك الفتاة، أنت تعلم أنها تحارب ضد الروس، وتعلم أعداء تركستان، وتعلم استقلالها؛ لكن لا يمكنك فهم النساء! تلك الفتاة تكره الألمان أعلم هذا جدًّا، ألا تدرك أنها تبغض الألمان صراحةً؟ أتريدها أن تحب الألمان؟ وهل تحب أنت الروس؟ بالطبع لا؛ لماذا؟ لأن الروس استولوا على وطننا وأسروا أمتنا، ودولتهم كذلك تحت سيطرة الألمان، فهل من الممكن أن يحبوا الألمان؟».

سكت أقين لوهلة فأوقف فرسه واعتدل فوق سرجه ثم نظر في عينيّ مباشرة:

- «اعذرني صادق بك! أنت قائدي أعلم لكننا أصدقاء في الوقت

ذاته وأريد أن أنصحك بشيء كصديق».

توقفت أنا الآخر وحدقت في عيني أقين:

- «أقين! تحدث».

- «خسرت ألمانيا هذه الحرب، وتركستان أسفل حذاء روسيا كما كانت في السابق، أضرت ألمانيا قضية استقلالنا كثيرًا في هذه الحرب ولم تنفعها، وبعد أن بات حصول تركستان على استقلالها بعد ذلك خيالًا بمرور الوقت؛ ماذا بقى ليربطنا بألمانيا؟ لتفكر ألمانيا بالألمان أنفسهم، فأنا واثق من أنهم يستطيعون التفكير أفضل مني ومنك، والتفِتْ أنت -أيضًا- إلى عيش حياتك!».

أجل، كان أقين يتحدث بأمور مفزعة ومرعبة فسألته دون أن تغادر عيناي عينيه كأنما أود قراءة كل أفكاره:

- «وضح هذا أكثر قليلًا يا أقين! يعني هل تريد القول لي اهرب؟».

- «ليتك لا تنسحب حتى برلين ولا تدافع عن جيوش حلفاء رايخستاغ[112] هاه!».

- «نعم، لأهرب؛ لأهرب أنا، وأنت اهرب؛ وليفر الآخرون لكن إلى

112- رايخستاغ (Rayhştag): اسم مبنى البرلمان الألماني الذي كان يجتمع فيه هتلر بالبرلمانيين.

أين؟ انظر إلى أولئك القيرغيز الذين تبعونا وانظر إلى إخوتك الأوزبك، شهدنا ألف فاجعة مع هؤلاء والتحقنا بقوات مختلفة، قتلنا موهان ودفنا الشيخ خشنود، كم من الدمع ذرفنا لأجل إخوتنا الذين تركناهم على حواف الغابات! كنا جميعًا معًا في معسكرات الأسر، والآن في الجندية أيضًا... إنهم لا يختلفون عنا، كم مرة أطلقوا النار بجانبنا ومعنا ولأجلنا؟ كم مرة وكم يومًا بقي الذين بلا ذراع أو بلا ساق والعُمي والعرج بلا ماء وبلا خبز؟ هل خرجت كلمة شكوى وحيدة من أفواههم؟ ظلوا إلى جوارك يدعونك ويدعونني بـ«آغاي» في أحلك أيامنا سوادًا وأشدها رعبًا، أعلَيَّ أن أتركهم وأهرب الآن ها! أستطيع الهرب بالطبع ولولا توجد مارية فهناك أخرى، أوَلا يوجد في بولندا من يرغب في الرجال ياه، فأنا شاب وقوي، فحتى لو اقتحم الروس إلى هذه الدولة سأختبئ تحت تنورة امرأة، انظر لوجهي مرة! ألا أشبه التركستانيين؟ أنا قرمي، دخلت منزلًا في أوكرانيا بينما كنت أحارب الألمان، وكانت هناك فتاة مع أمها في المنزل وكان اسم هذه الفتاة -أيضًا- مارية، صاحت أمها فور أن رأتني: «مارية! مارية!.. جاء إيوان!.. جاء إيوان!» بعدها أتت الفتاة وقالت إني أشبه زوجها، فكما أشبهت إيوان الأوكراني يمكن أن أشبه بولندي -أيضًا- على أي حال، ثم يذهب الروس كما أتوا، وحينئذ أخرج من تحت تنورة المرأة وأعيش في هذه الدولة كبولندي، ألا يمكن؟ لِمَ

لا يمكن؟! يالهؤلاء القيرغيز! انظر مرة إلى خطوط وجوههم! إلى أين سيفروا؟ لا يعرفون لغةً ويجهلون الكتابة، إلى أين يهربون! أي عاهرة ستقبل أن تُخفي واحدًا منهم بعد أن تأخذ منه نقوده! لا أقين؛ اهرب أنت لو ترغب!... لا تظن أنني خُفت مما حل بموهان، البتة! ولو كنت حقًّا صديقي فلا تنصحني بهذا، لا يمكن أن يشير عليَّ صديق بهذا الطريق بل عدو، أنا سأبقى مع هؤلاء لآخر قطرة في دمي ولآخر نفس، أما أنت فافعل كما تريد وما تعلم أنه الصواب! أقول لك هذا ليس كقائد بل كصديق.

المسكين أقين! شحب كأنما لم تعد قطرة دماء واحدة في وجهه بينما كنت أقول هذا، ولم يتحدث معي مرة أخرى لا عن مارية ولا حتى عن الفتاة ذات المشمع المتسخ التي رأيتها في المحطة ونحن نغادر لجيونوفا.

توقفنا بعد أسبوع في لوبلين[113]، وسقينا خيولنا على مشارف المدينة ثم أشعلنا النيران وسهرنا، في الصباح أتى ثلاثة ضباط برتب عليا مع مدنيَين ألمانيين من قياديي المدينة، أعلمنا الضباط أن الفيلق التركستاني انتقل من لجيونوفا إلى فرنسا، وأبلغوني أن آخذ سريتي إلى قرية كونسكيا[114] في مكان قريب من مدينة

113- لوبلين(Lublin): هي تاسع أكبر مدينة في بولندا وهي المركز الإداري لمحافظة لوبلين.
114- كونسكيا (Konski): مدينة تقع في محافظة شفينتوكشيسكي في بولندا.

رادوم[115] واستلم الحراسة على خط السكة الحديدية في ما بين رادوم وكونسكيا هناك حتى يصدر أمر جديد، ثم قال أحد المدنيين بعد أن تجولنا معهم ساعة بجانب الخيول ألا نرسل عشر عربات إلى لوبلينولا نأخذ طعامًا للحيوانات وننتظر أمرهم الجديد بعد أن نجلب حيواناتنا إلى كونسكيا ونتركها، تحركنا قبيل الظهر ووصلنا إلى كونسكيا قبيل الصباح، وكانت سرية الألمان تغادر القرية بينما كنا نلجها، كانت المنازل قد دفنت في سكون عميق أسفل الدخان المنتشر من مداخنها في الأرجاء، إلا أن رجالًا ذوي لحى بيضاء ونساء كن قد باعدن ستائرهن وتطلعن في دهشة وفضول إلى الجنود الخارجين من القرية والداخلين إليها...

مر الجنود الألمان من جوارنا وأسلحتهم في خصورهم وصحون طعامهم معلقة في أحزمتهم محدثين قعقعة واختفوا عن أنظارنا داخل أصوات الصباح، نزَّقَ تختاغُل السائر في مقدمتنا فرسه وأتى إلى جواري:

- «هل رأيت المكان الذي سنستقر فيه سيدي القائد؟ إنه مكان مثل القلعة!».

- «أهو بعيد؟».

- «لا، بعد القرية مباشرة، مبنى ذو طابقين، كان محطة في

115- رادوم(Radom) : مدينة تقع في محافظة مازوفيا في بولندا.

السابق لكن ليس هناك مكان إيواء للحيوانات... ستتجمد الحيوانات».

- «ليفكر أقين بهذا».
- «وأين أقين؟».
- «وراءنا بخمسة عشر كيلومترًا؛ آتٍ مع الحيوانات».

قدت الفرس جنبًا إلى جنب مع تختاغُل ومررنا من الطريق الواسع الذي يفرق بيوت القرية إلى قسمين ثم خرجنا إلى السكة الحديدية، وظهر على بعد مئتي متر بناء المحطة الخشبي، كان تختاغُل محقًّا، فالسرية الألمانية التي خرجت من القرية أحاطت البناء بجدار دفاع من أجولة الرمل عالٍ وسميك إلى حد ما، وفتحوا الأطراف ومشطوها قاطعين أشجار البلوط خلف الغابة بعمق نصف كيلومتر، وجدنا في البهو في الطابق الأسفل للبناية الفرش نظيفة ومغطاة ببطاطين، أعطيت الغرف المربعة الكبيرة الموجودة في الطابق الأعلى للعرفاء، وكنت سأنام أنا في الغرفة الصغيرة التي بجوارهم مع قادة الكتائب الأربعة، استقررنا سريعًا، مع حلول الظهر اكتنف غبار إعصارين شديدين أبيض المنازل وجرف الثلوج من على جدران كونسكيا بينما كنت لا زلت أنتظر كتيبة أقين مع الخيول، وكي أعلم على أي مسافة من كونسكيا يوجد أقين أمرت بامتطاء ثلاثة لخيول في الحال والذهاب إلى أقين، ذهبوا ثم عادوا بعد ساعة وجلبوا خبرًا بأن

أقين ينتظر مع جميع الحيوانات في الطرف الآخر من كونسكيا، ذهبت معهم، كان أقين يبدو متعبًا ساهدًا مرهقًا، ورغم هذا كان يفكر بالخيول أكثر من نفسه، نظر تختاغُل إلى الثلج الموجود على أعراف الحيوانات وإلى الثلوج المتكتلة على ذيولهم وإلى الجنود الذين ظلوا يثبون على الأرض كي يتدفؤوا قليلًا وقال:

- «أضحت هذه الحيوانات عبئًا علينا، سيدي القائد، متى سيأتي الألمان ونسلمها لهم؟».

- «لا أعرف يا تختاغُل..».

أمسك أقين بسيجارة بين أصابعه المنقبضة من البرد وأتى بها إلى شفتيه ثم قال بعد أن تنهد:

- «لو كان الأمر لي، لا يجب أن نعطي الخيول للألمان».

- «وهل سنصبح فرسانًا؟».

- «ربما».

ضحك تختاغُل فأكمل أقين كلامه:

- «الخيول لنا، لم نسرقها، أخذناها من رجال العصابات، ولو خرجوا من هذا الشتاء سالمين يعني أنهم سيعتنون بأنفسهم صيفًا، فالمراعي حولنا..».

- «حسنًا، فيم ستفيدنا الخيول؟».

- «كثيرًا يا تختاغُل، فإذا انتصر الألمان في الحرب فسنعود فوقها إلى تركستان، وإذا وصلوا إلى هنا فهي من نصيبهم، لا نية لي للقتال ضد دبابات البلشفيك وصواريخ «الكاتيوشا» وهذه البنادق فقط في يدي».

- «وهل ستحارب فوق الخيل؟».

- «لا، غير أن فراري أمام الدبابات فوق فرسٍ أفضل من فراري ماشيًا».

ولو أني لم أهتم كثيرًا بفكرة أقين هذه إلا أنني كنت -أيضًا- غير مؤيد لتسليم الحيوانات إلى الألمان عن طيب خاطر، فمن يعلم ربما تلزمنا الخيول في المستقبل...

أنهيت الحديث بين تختاغُل وأقين:

- «أقين محق في قوله يا تختاغُل، بيد أنه كيف ستمضي الحيوانات الشتاء؟».

رفع أقين رأسه ونظر إلى منازل كونسكيا الموجودة في المقابل:

- «إذا أعطيناهم عشرة خيول، سيمضي المائة وعشرون خيلًا المتبقين بالطعام الذي سنأخذه في المقابل ليس شتاءً واحدًا بل خمسة أشتية».

فعلنا كما قال أقين، فبقي تختاغُل على رأس جنود أقين

والحيوانات وذهبنا نحن إلى القرية، بحثنا عن بيت العمدة ووجدناه، كان منزلًا بسيطًا بشرفة أمامية داخل حديقة، فُتح الباب على إثر نباح الكلب وظهرت على العتبة امرأة بشال وبفرو، فتحدث أقين بجانبي بالبولندية:

- «هل هنا بيت العمدة؟».

- «هنا».

- «أين العمدة؟».

اختفت المرأة وراء الباب دون أن تجيب، انتظرنا خمس عشرة دقيقة في البرد، ولم يخرج أحد من المنزل، قفز أقين إلى باب الحديقة غير مبالٍ بنباح الكلب المستمر وبهجومه ثم سار إلى الباب، فتح الباب ودلف للداخل ثم خرج بعد قليل وناداني فذهبت، قال أقين بينما نلج المنزل:

- «هؤلاء ليسوا أناسًا سيئين، صادق بك، لكنهم يخافوننا قليلًا».

كان العمدة رجلًا نحيفًا ذا قامة طويلة يقف على رأس طاولة في وسط الغرفة، وبجانب الموقد كان هناك طفلان صغيران ملتصقان بتنورة السيدة يتطلعان لنا بدهشة، اقترب أقين من العمدة وشرح بعضًا بالروسية وبعضًا بالبولندية:

- «نحن لسنا ألمانًا يا عمدة، تركستانيين... أتراك... نريد أن نحيا مع البولنديين كالإخوة، نحن نحارب الروس فحسب،

والروس أعداؤكم أيضًا..».

قبض العمدة على أيدينا وأثار دهشتي حديثه بعدها معنا كأبناء بلدته، كنت للمرة الأولى أصادف بولنديًّا يتحدث معنا بمودة وألفة رغم الزي الألماني على ظهورنا.

بعد ذلك استأنف أقين تغذية مشاعر الود المرهفة تجاه بولندا والبولنديين أكثر، يعقد آمالًا كبيرة على بولندا، لم يقل لي هذا غير أنني فهمت من نظراته أنه يحب كل البولنديين بقدر حبه لحبيبته.

حكى لنا العمدة أنه يصعب إخفاء مائة وثلاثين فرسًا في القرية لكنه خلف كونسكيا بكيلومترين يوجد مبنى في مصنع خاوٍ ذي باب مرتفع وجدار قوي سميك كان قد بدأ إنشاؤه قبل الحرب وظل نصفه مع نشوب الحرب ويمكن لخيولنا قضاء الشتاء هناك، ذهب ثلاثتنا أنا وأقين والعمدة ورأينا البناء الذي ظل نصفه، كان المكان يفي بالغرض، فوضعنا الخيول هناك مساء نفس اليوم.

جاء الألمان من رادوم في اليوم التالي، وحكوا أن الغابات المحيطة بكونسكيا مليئة بالمخاطر، وعلمنا أي النقاط سنقوم بحراستها على السكة الحديدية، ذهبوا بعد أن أضافوا إلى كلامهم أن نذهب مرة كل أسبوعين إلى رادوم وأن نأخذ طعامًا لأجل الحيوانات وطعامًا لأجلنا أيضًا، استقررنا في كونسكيا وبعد أن تصدى الحراس للنقاط الخطيرة في سكة حديد رادوم توقفت

هجمات العصابات على القطارات بغتة، قيل في قيادة رادوم الألمانية أن عصابات بولندا خافت من جندِ المغول ولهذا أوقفوا هجماتهم، لكن ماذا كان السبب الحقيقي لتتركنا العصابات البولندية القوية جدًّا المتحركة في غابة سفنتوكشيج[116] قرب لوبلين على خط سكة جديد رادوم في أمان؟ لم يكن هذا بالتأكيد لخوفهم من جند المغول كما قال الألمان، عرفت السبب الحقيقي عام 1944، كانت عصابات بولندا تعلم أننا نقاتل في سبيل استقلال وطننا فلم يهاجمونا حتى نستطيع التكيف مع أهل القرية...

أتى العام الجديد، وذهبت مع أقين في ليلة رأس السنة إلى بيت العمدة، فجلسنا حتى منتصف الليل واحتسينا العرق واستمتعنا، كان العمدة يعاملنا جميعًا بحميمية، فبت أشك في إخفائه مكرًا وراء هذه الصداقة...

بعد أن عدنا من بيت العمدة ليلة رأس السنة جلست جانب النافذة في غرفتنا بينما ينام أصدقائي وكتبت رسالتي الأولى إلى مارية أسفل ضوء المصباح، ترقبت بنفاذ صبر الرد على جوابي خلال أسبوعين ولم يأتِ فبدأت بعدها في نسيان مارية شيئًا فشيئًا.

حل الصيف، واكتست الغابة الموجودة وراء المحطة بالخضار،

116- Sevento Kşıj

فأخرجنا الحيوانات من مبنى المصنع الخاوي إلى مراعي الغابة، كانت فرقة أقين ترعى الخيول أما فرق تختاغُل وبطل وإرسان فتقوم بالحراسة على حافة السكة الحديدية، كان وضع الجيش الألماني الموجود في أوكرانيا يسوء يومًا بعد يوم، ولم يعد جنودنا يتحدثون عن استقلال تركستان بعد، فقد أضحى دخول تركستان والقتال في سبيل استقلالها خيالًا، وفي أوقات الفراغ لم يكونوا يفعلوا شيئًا آخر غير الأكل والشرب، فبدأ ظهور حوادث في القرية بسبب الشراب، وصار صديقنا العمدة حتى يشتكي من هذه الحوادث، فجمعت كل قادة الفرق في غرفتي عشية يوم وأصدرت تعليمات مشددة لهم، كان الجنود سيمكنهم الذهاب إلى القرية بعد ذلك بإذن قادتهم فقط، والعرفاء سيدربون الجنود في الوقت المتبقي من الحراسة، فقد أقلقني وقوع الجيش الألماني الموجود في أوكرانيا في وضعٍ سيء من جهة ومن جهة أخرى مغادرتنا الفيلق، كنت أفكر في المصائب التي تنتظرنا مستقبلًا، شرحت الوضع في بداية مايو للمقدم إرنيك الموجود في فرنسا دون أن أفصح عن مشاعري لأقين الذي لم يكن مؤيدًا للخروج من بولندا، وجاء الرد بعد أربعة أسابيع، لكنه لم يقدم شيئًا آخر غير أنه تم إبلاغ المقدم إرنيك بأن سريتنا تتبع القيادة الألمانية الموجودة في لوبلين، وظهرت مجددًا الحوادث التي أفسدت علاقتنا بسكان القرية على الرغم من وضعي الجنود تحت نظام صارم.

وتسلمت رسالة مارية إثر انقطاع أملي من مقابلتها ثانيةً.

كانت في رسالتها تكتب عن رغبتها في مقابلتي في محطة رادوم يوم الأحد القادم دون أن توضح أين توجد ولا سبب عدم ردها على رسالتي حتى هذا الوقت، تعجبت من تحدثها قليلًا لهذه الدرجة عن نفسها ومن رغبتها في رؤيتي، ثم لماذا رادوم الآن أيضًا؟ لماذا بعد عدم إجابتها على رسالتي لهذا الوقت...

رسالة مارية هذه لا تشبه رسالتها التي تلقيتها عندما قتلنا موهان، كانت رسالتها هذه موجزة وبسيطة وفاترة نوعًا ما، كأنما قد افترقت عني منذ يوم ونسيت شيئًا ما وتريد أن تذكرني بهذا الشيء الذي نسيته يوم الأحد القادم... ترقبت بعقلي وبقلبي مارية ويوم الأحد...

كانت المحطة مزدحمة، وبينما أبحث عن مارية بين النساء ذوات الشيلان والمعاطف السميكة الجالسات فوق اللفائف جاء شاب أشقر ووقف أمامي ثم قال بالألمانية مبتسمًا:

- «تبحث عن السيدة مارية على الأغلب».

رددت:

- «نعم، هل أرستلك مارية إلى هنا؟».

- «أجل».

- «وأين هي؟».

- «في مكان قريب من هنا، تعال معي وسأوصلك إليها».

تعقبت الشاب، فمررنا بين السيدات ذوات اللفائف وخرجنا إلى الشارع الممتد من المحطة حتى مركز المدينة، كنت أفحص الشاب السائر بجواري، كانت عيناه السماوية تبتسم دون أن تفارق وجهي كأنما يعرفني منذ زمن، من هو يا تُرى؟ هل هو صديق مارية؟ أم أخوها؟ لماذا لم تأتِ مارية بنفسها وتقابلني؟ كان حشد الجنود والضباط يلفت النظر أكثر من السكان المدنيين في الشوارع، وكان الجنود يتجولون جماعات جماعات ويجهزون بنادقهم للإطلاق كأنما يترقبون الخطر في كل خطوة، وكان البولندي الشاب كلما سلم علي جنود الألمان المارين من جواري يبتسم ناظرًا لوجهي بدقة أكثر، وحاول أن يتحدث معي بالروسية عندما ابتعدنا كثيرًا عن المحطة، كانت روسيته ضعيفة جدًّا فقلت كي لا يُرهق نفسه أكثر:

- «أنا لست روسيًّا».

قال:

- «أعلم، أنت تركي».

- «من أين تعلم أني تركي؟».

- «السيدة مارية قالت، أنت من أتراك القرم، أليس كذلك؟».

لم أكن قد قلت لمارية أني قرمي أو تركي، كانت قد علمت هذا

من أقين على الأغلب.

- «القرم في يد الروس ثانية... بدأت الأيام الأشد سوءًا لأمتك هناك من جديد... أليس كذلك يا ملازمي؟».

صرت أشعر من نظراته إلى وجهي ورغبته في التحدث معي بحرية بصلة مجهولة نجمت وربطتني أنا والبولندي الشاب بعضنا ببعض كما الصلة التي ربطتني بمارية، وكنت أود على الأغلب التباهي قليلًا بالزي الألماني عليَّ أمام البولندي الشاب بإلقائي السلام عن يميني ويساري بين الجنود المارين، وأسير أحيانًا غير مصغٍ لكلامه وأحيانًا أخرى أرد على أسئلته بجواب مقتضب وبسيط وغير مُجدٍ، مع أنني كنت قد بدأت في الوقت نفسه أشعر أن هذا الشاب قريب إلى قلبي، من كان؟ كان سيغمرني بأفضاله الكثيرة بعد أربعة أشهر، لكنني لا أعلم أكان قد فعل هذا من أجلي، أم من أجل مارية؟! وصلنا أخيرًا إلى المكان الذي انتظرتني فيه مارية، كان أمامها مقهى نظيف ذا مرآة، توقفت قبل الولوج للداخل وأغلقت عينيّ لوهلة ثم حاولت أن أتذكر وجه مارية، فمرت أمام عينيّ ثلاثة وجوه لمارية، أجل؛ رأيت مارية بثلاثة وجوه، وأحسست بالثلاثة، أولهم مارية الغاضبة التي رأيتها لأول مرة في منزلها بينما كنت عائدًا مع أقين إلى لجيونوفا فوق الفرس، ومارية الفاتنة التي في قطار وارسو القريبة مني حينًا والبعيدة عني حينًا، ثم مارية المرهفة التي تبتهل جاثية في

الكنيسة، والآن مارية التي تنتظرني في المقهى، أي مارية؟ لم أستطع أن أخرج وجه مارية التي تنتظرني في الداخل من بين وجوه مارية الثلاثة اللاتي في مخيلتي.

دلفنا إلى الداخل والشاب البولندي في المقدمة وأنا في الخلف، كان هناك من ثلاثة لخمسة مدنيين يحتسون القهوة في مكان بقرب الباب، وكانت مارية تجلس في البهو الداخلي بجوار نخلة خضراء أسفل ضوء خافت لمصباح كهربي بظلَّةٍ صفراء على الحائط، كانت مارية؛ إلا أنها لم تكن تشبه أيًّا من الثلاثة المبهمين الغامضين الذين مروا بخيالي قبل ولوجي المقهى، كان وجه مارية الموجودة أمامي واضحًا وجديدًا للغاية، كانت جميلة، غاية في الجمال بكل نضوج وجهها كما لو أن كل مشاعرها الرقيقة تجلت على وجهها! تسمرتُ لوهلة ربما لأني رأيت مارية الحالية الجديدة التي تبتسم بكل حنان ورقة وجهها الجميل في حين كنت أظن أنني سأرى مارية القديمة الغامضة التي عرفتها، كنت أرتجف من الانفعال والسعادة، وبدت مارية الجالسة أسفل النخلة الخضراء في هذه اللحظات مثل طائر ذهبي داخل قفص ذهبي أُعطي هدية لطفل مسكين، كنت لا أصدق أنها أصبحت لي وأخاف كذلك من أن تمس يدي، رأسي كان يدور فكنت أسير متمسكًا بالطاولات التي على جانبي، من حسن الحظ أن حالي هذا لم يدم طويلًا، نهضت مارية ومدت يدها فانبعثت بداخلي قوة بغتة وتمالكت نفسي، جلسنا فألقت مارية بشعرها الغزير

الحريري المنسدل على كتفيها إلى الخلف بحركة يديها المألوفة وضحكتْ بابتسامة زينتْ وجهها كأنها تريد القول انتظرتك.

- «مضى يومان على استلامي الرسالة التي بعثتموها قبل ثلاثة أشهر، فأنا انتقلت من لجيونوفا إلى لوبلين... كنت قد كتبت لك رسالة السنة الماضية، ولم تجب، أم أنك لم تستلمها؟».

تركنا البولندي الشاب بمفردنا مع هذه الحديث كأنما فطن إلى أننا نريد أن نفصح عن مشاعرنا العميقة وربما الخاصة لبعضنا وذهب ليجلس بين من يحتسون القهوة جانب الباب.

- «كنا نحيا حياة مليئة بالمخاطر عندما استلمت رسالتك ولم أكن أعرف أننا سنعود إلى بولندا، فكرت فيكِ كثيرًا بعد أن غادرتُ وارسو ولم أود الظهور أمام عينيك وهذا الزي عليَّ كما قلتِ في منزلك».

نظرت مارية وقالت بابتسامة مُتكلفة: «آمل أن تكون قد غيرت رأيك»، ثم اتسم وجهها ببعض الجدية وربما –لا أعلم– بدا كأنه قسا بعض الشيء:

- «لو أتينا إلى زيك... فما زلتَ عند رأيي تمامًا، لكن لا ضرورة لمناقشة هذا هنا الآن، كنا بعيدين جدًّا عن بعضنا يوم مقابلتنا الأولى، أليس صحيحًا؟ لكن الزمن قربنا أكثر وربما سيقربنا أكثر من ذلك، هل ذهبت إلى القرم بعد أن غادرت وارسو؟ انظر كم أعلم أمورًا كثيرة، لم تسأل من قال لي هذه الأشياء؟».

- «قالها أحمد أقين».

- «كيف حال أحمد أقين، ألا زلتما معًا؟».

أومأت برأسي مؤمنًا... جلسنا كثيرًا في المقهى نتحدث هكذا، وكلما طال الحديث كنت أدرك شيئًا فشيئًا أن هناك أمورًا عند مارية لا تتصل بي مطلقًا، كنت أشعر أحيانًا أن القضايا الأكثر أهمية وجدية مني تضعني في المرتبة الثانية في قلبها، لو لم تكن مارية –مارية القديمة– هي مارية التي تحقد على الألمان وتبغض الزي الألماني فهي ليست مارية التي تخيلتها عيناي المشتاقة عندما استلمت رسالتها في كوبرله، وكان هذا يستحيل –أيضًا– لأنني كنت شرقيًّا ومرتبطًا بالشرق كذلك، كنت أريد أن تكون المرأة التي أحبها والتي أشعر بقربها مني أسيرة أفكاري حتمًا وقوتي، وأظن أن مارية كانت تدرك قوة إرادتي وتريد أن تهتم بي بشعور أختٍ أو أمٍّ تعتني بصغيرها العاجز قبل أن يشق طريقه بنفسه، كنت أشعر باحتياجي لها في كل شيء ولم أستطع معرفة لأي درجة تحبني، كنت كأنما أرى بريق الحب في عينيها أحيانًا لكنه لم يكن يستمر إلا عدة ثوانٍ فحسب، كان الشعور الخاص هذا يختفي بسرعة بعد أن يبدو لوهلة، كنت أظن وقتها أن مارية تحبني أو تُظهر أنها تحبني لأجل أغراض أخرى في حين أنها لم تكن تراني جديرًا بها، وهكذا صرتُ أشعر بفتور تجاهها مع مرور الوقت، فكانت زكية ابنة العمدة صبري تحضر

إلى مخيلتي وتبكي بدموع فتاة قرية بريئة: « خدعتني يا صادق آغا!».

لكن كم تبعد عني زكية! وإلى أين قذفتها العاصفة الأخيرة، لا أحد يعلم!

بِتُّ أعجز عن استبصار مستقبلي، وكانت مارية تبصره أفضل مني ومن أي شخص وتترقب، وتقول إن الوقت سيحين وسيقرب الزمن بيننا، أكانت تحب؟ إذا كانت تحب فلِمَ تصمت؟ لماذا تنتظر؟ وماذا تنتظر؟

كان جليًّا في نظرتي لكل وجه أن هناك شعورًا جديدًا داخلي، بيد أنه كم مرة خدعتني مشاعري، ألن تخدعني ثانيةً يا ترى؟

سرنا إلى المحطة ذلك اليوم بعد أن خرجنا من المقهى، كان البولندي الشاب بجوارنا ولم يفارق مارية للحظة، غرِتُ منه بعض الشيء؛ مع أنه لم يكن هناك سبب واضح وصريح لغيرتي، كان زميل مارية في المدرسة واسمه بارتوش، حدثته مارية عني عندما كنت في جبهة روسيا وأحبني هو -أيضًا- قبل أن يراني، في الواقع كان يحمل حبًّا لأتراك القرم ولكل الأتراك.

ودعنا بارتوش أمام المحطة، واقترحت مارية أن نسير إلى مكان خاوٍ كأنما تريد أن تقول لي أمرًا سريًّا فسرنا، وبينما كنا نتجول بمفردنا سَرت في جسدي رجفات دافئة من عطر مارية الموجودة بجواري فدارت رأسي مثل ثملٍ، وكانت مارية كذلك

مغتبطة، فاتحدت أيدينا في نفس اللحظة، وأدركت الحقيقة فورًا، كنت أحب مارية ليس اليوم بل منذ سنوات، كنت قد أغرمت بها وهي تسبني وتسب زيي وتكيل لنا اللعنات ليلة لقائي الأول بها، وكنت أحبها في القطار، كما أحبها -أيضًا- وهي تدعو جاثية في كنيسة وارسو.

عدت إلى كونسكيا ذلك اليوم كأغنى وأقوى وأسعد وأصح إنسان في العالم، وكانت مارية لن تعود إلى لوبلين ولا إلى وارسو وستمكث في مكان قريب مني في رادوم بينما أنا على رأس جنودي في كونسكيا، وكانت ستأتي إلى كونسكيا مع بارتوش مرة أو مرتين في الأسبوع وسنتقابل في بيت العمدة.

القرم والقفقاس وأوكرانيا تحت العاصفة الأخيرة، والجيش الروسي عبر حدود بولندا واقتربت وحدات الدبابات الأمامية من وارسو، كنت مستغرقًا في حلم عشق مارية ولا أستطيع رؤية الخطر القادم، وكانت مارية تحس بما سيصيبنا أفضل مني وتفكر في سلامتي أكثر من حُبي ونصحتني في مقابلتنا الأولى في بيت العمدة أن أفر إلى لوبلين واختبئ بجوار أصدقائها هناك، فأوضحت لها صراحة أنه لا يمكنني أن أخذل جنودي وأخونهم لكي أنقذ نفسي، وكانت تعلم أنها لن تستطيع إقناعي بسهولة على أي حال فلم تصر أكثر؛ غير أنها أرادت أن أعدها بأن أفر عندما تكون حياتي بخطرٍ، ووعدتها.

لم يتأخر هذا الخطر عن الظهور في بدايات أغسطس، فلم يعد القطار بين رادون- كونسكيا يعمل، وبعد أن أقامت وحدات الإس إس فرقة «هيرمان غورينغ[117]» ثلاث ليالٍ بجانب المحطة انسحبت في النهاية شيئًا فشيئًا تجاه الشمال، وبقينا بمفردنا ثانيةً على حافة السكة الحديدية، كنا جميعًا في مبنى المحطة، وتركت فرق بطل وإرسان -أيضًا- أماكن حراستها وانضمت إلينا، وبدأ قرويو كونسكيا يجتنبوننا شيئًا فشيئًا ولا يتحدثون معنا، فقد ظهرت رواية تقول إن البلشفيك سيسوقون القرويين الذين يعاملوننا جيدًا إلى سيبريا عندما يأتون إلى هنا وكانوا يخافون من هذا غالبًا، وكانت تمر وحدات أخرى غير «هيرمان غورينغ» أيضًا، وتتحرك ليلًا الدبابات والشاحنات إلى الشمال، وذات صباح دخل عدة جنود ألمان إلى مبنى المحطة الذي نمكث فيه فجأة، ثم أخذ ضابط إس إس منهم قادة فرقي وطلبوا أن آتي معهم، ركب أقين وإرسان وبطل وتختاغُل وضابط الإس إس وضابط آخر العربة وخرجنا من القرية.

لم يكن وجه الضابط يبتسم، وكان يتفحص ما حوله بعينين خائفتين كأنه في مواجهة خطر قريب، في النهاية توقفت العربة بعدما ابتعدنا عن كونسكيا قرابة الكيلومترين، فصعدنا التل،

117- هيرمان غورينغ(1893-1946): هو سياسي ألماني وقائد عسكري وعضو قيادي في الحزب النازي، ومؤسس جهاز البوليس السري «جيستابو» عام (1933)، وتقلد عدة مناصب في ألمانيا النازية منها وزير الاقتصاد وبعدها القائد العام لسلاح الطيران (1935)، وكان أعلى رتبة تمثل أمام المحكمة بعد الحرب العالمية الثانية وحُكم عليه بالإعدام ومات منتحرًا في سجنه.

وكانت توجد أمامنا مزرعة كبيرة وعن يميننا غابة وعن يسارنا السكة الحديدية، نظر الضابط الذي بجواري إلى الغابة وإلى السكة الحديدية مطولاً ثم قال مشيرًا بيديه إلى الأماكن التي نظر إليها: «هنا» فحسب.

كان رقيب آخر قد أتى مع عدة ضباط إلى التل الذي نوجد عليه واجتمعوا كلهم في مكان وتحدثوا حول أمر ما مطولاً، ووقفنا نحن في طرف، كانوا جميعًا يبدون منهمكين في مسألة هامة، فلم يكونوا يلتفتون لنا حتى، وبعد قرابة نصف الساعة دعانا أعلاهم رتبة إلى جواره وأوضح أنه سيتم حفر خندق بطول خمسة كيلومترات بين الغابة والسكة الحديدية في مقابل الدبابات، كان سيتم إخراج كل سكان كونسكيا مع نسائهم وأطفالهم إلى هنا لأجل حفر خندق وسيعمل القرويون تحت تهديد نظراتنا وأسلحتنا من الخامسة صباحًا حتى يحل ظلام الليل، رجعنا إلى كونسكيا فورًا وحاصرنا القرية ثم اقتحمناها صباحًا في الرابعة تمامًا، وبدأنا نُخرج القرويين مع أطفالهم من منازلهم، أتى إليَّ العمدة المسكين أشعث غير مهندم وقد ألقى فروه فوق منامته راكضًا حافيًا قبل أن يفهم ما يجري أو ماذا يريد الجنود من القرويين، كان وجهه شاحبًا مثل ميت وكان ينظر إليَّ جاحظًا، فقبضت على ذراعه وقلت:

- «لا تخف يا عمدة، لن نقتل أحدًا، يوجد أمر... ليأخذ كل

القرويين معاولهم ومجارفهم وليخرجوا إلى خارج القرية، فسيتم حفر خندق ضد الدبابات».

هدأت كلماتي العمدة قليلًا، فسرنا جميعًا إلى منزله، وعندما أتينا أمام باب الحديقة أمسك يدي وقال:

- «ستندهش كثيرًا يا ملازم عندما تدخل المنزل».

- «لماذا؟».

لم يجب، ونظر إلى وجهي كأنه يريد القول ادخل المنزل وانظر بنفسك، فقبضت على ذراعه وسألته كأنما أريد تأكيد ما وضحته:

- «من يوجد بالداخل؟ تكلم!».

فقال العمدة بصوت خافت للغاية:

- «مارية، هيا ادخل... لكن لتتركها، إنها فتاة المدينة، رقيقة، لن تجعلها هي -أيضًا- تحفر الأخدود ها! لا يمكنها الاحتمال».

تركت العمدة بجوار الباب وركضت ودخلت البيت، كانت الغرفة ذات السقف المنخفض مضاءة بالأشعة الخافتة الأولى للصباح، وكانت مارية تجلس على طرف الفراش عليها رداء نوم حريري أحمر ويداها على ركبتيها، نهضت على قدميها فور أن رأتني وأغلقت أعلى ردائها، دخل العمدة إلى الغرفة قبل أن تكون هناك فرصة لأفتح فمي.

- «يا سيدة مارية نحن سنذهب لحفر خندق ضد دبابات الروس خارج كونسكيا، وأنتِ..».

نظر إلي قبل أن يتم كلامه:

- «أظن أن صادق سيوضح لكِ»؛ قالها وفتح بابًا داخليًّا للغرفة ثم ولج إلى الغرفة الثانية، نظرت مارية إليَّ ثم أدارت عينيها فجأة إلى باب الغرفة التي ولجها العمدة كأنما رأت شيئًا سيئًا للغاية في وجهي، وأتت أصوات زوجة العمدة وأطفاله من الغرفة الثانية؛ وسُمع صراخه:

- «أنت كذلك وأطفالك وأمك وأبيك وأنا أيضًا! أمر الألمان!.. ألا تفهمي! لن يظل أي أحد في القرية، لا العمدة! ولا القسيس!».

أردت أن أقترب من مارية وأمسك يدها، فتراجعت للوراء ودلفت إلى الغرفة التي يوجد بها العمدة وأطفاله دون أن تنظر إلى وجهي ثم أغلقت الباب خلفها.

خرجت من بيت العمدة ثم ذهبت، وعندما عدت بعد نصف ساعة كانت مارية تتحدث مع أطفال العمدة جاثية ويداها على أكتافهم وعليها المعطف الذي ترتديه نساء القرية وفي قدميها حذاء قروي، أدارت رأسها ولم تنظر حتى، لكنه ليس خصامًا أشد من خصامها لكل جنودي، فأنا -أيضًا- كنت أحد الجنود الذين يقذفون القرويين من منازلهم وفي أيديهم الأسلحة، كنت أشعر من نظراتها أو بالأحرى من عدم نظرها أنه لم يعد لي مكانٌ في

قلبها بعد الآن، بيد أني كنت مخطئًا، كنا نجلب قرويي كونسكيا بعد ذلك اليوم ولثلاثة أسابيع خارج القرية لحفر خندق بين الغابة والسكة الحديدية ضد دبابات الروس؛ ومع أني كنت أريد كثيرًا التقرب إلى مارية ورؤية نظرة العفو في عينيها إلا أن هذا لم يحدث، كانت تحفر الخندق مثل نساء القرية الأخريات وفي يدها المعول وعلى جبهتها تتساقط قطرات العرق، وعندما كنت اقترب منها في دقائق الراحة كانت تنظر إلى وجهي بابتسامة باردة كأنها بكماء ثم تذهب دون أن تفتح فمها وتنشغل بأطفال العمدة.

تم حفر الخندق الكبير لمواجهة دبابات الروس، وعاد القرويون إلى منازلهم، لكن كونسكيا أضحت ساكنة ولم تعد الطرق مزدحمة مثل السابق، ووفقًا لخبر فقد بات الجيش الروسي على مسافة ثمانين كيلومترًا من رادوم، لا أعلم إن كان هذا صحيحًا ولم أقلق أيضًا، ليس في رأسي غير مارية، ولم أستطع أن أفكر في شيء آخر غير كسب قلب مارية الذي ظننت أنِّي فقدته، ذهبت إلى بيت العمدة قبيل المساء، فخرج بارتوش مقابلي وقال مارية مرهقة ولن تستطيع أن تتحدث معي، تحدث معي بمجاملة مصطنعة خمس أو عشر دقائق أمام الباب، ثم عدت إلى مبنى المحطة البارد.

تعجبت من عدم مرور الجنود على كونسكيا، كان مرور الجنود

والجرحى العائدين من الجبهة من هنا حتميًّا إذ إن الجبهة خلف رادوم بثمانين كيلومترًا، غير أن الطرق ساكنة ومهجورة ما من آتٍ ولا عادٍ... والسكة الحديدية تمتد صادئة... والقرويون يختلقون أخبار الجبهة بأنفسهم على الأغلب.

ذات يوم وبينما أتناول طعام الغداء في الغرفة قفز أقين الدرجات اثنتين اثنتين وظهر مع صخب على السلم الخشبي ثم دلف إلى الداخل، وقال بصوت منفعل:

- «هل تعلم من يوجد بالأسفل يا صادق بك؟».
- «من؟».
- «الرقيب أول بوير!».
- «هل الرقيب أول بوير؟».
- «نعم، ويوجد بجانبه -أيضًا- الرفيق فون».
- «كان قد بقي في لوبلين... ما عمله هنا؟».
- «لديه عمل هام! يريد الخيول مني آتيًا إليَّ قبل أن يراك أو يأخذ إذنك»، وصرخ بوحشية عندما قلنا «إننا كنا سنحضر الخيول مع جنود الفرقة إلى لوبلين فاذهبوا إلى قائد سريتنا أولًا»، قائلًا»: ومن يكون قائدكم؟! هنا يسري أمر الألمان».

كان وجه أقين قد شحب بشدة، وأدركتُ لأول مرة من نظراته

أنه يمكن أن يصير شخصًا خطيرًا، سار إلى النافذة وقبضتاه مشدودتان، ثم كرر عدة مرات محدثًا صريرًا بأسنانه: «أمر الألمان يسري! أمر الألمان يسري!» ثم استدار فجأة وتحدث إليَّ:

- «طفح الكيل، فإلى متى سيسوقوننا مثل الخراف يا صادق بك؟».

نهضت وذهبت إلى جوار أقين ثم قلت واضعًا يدي على كتفه:

- «اهدأ يا أقين ولا تقلق!».

فرجع إلى الخلف كأنه أستاء مني.

- «انظر إليَّ يا أقين!».

فلم يجب، كنت أشعر أن أقين غاضب عليَّ كثيرًا بسبب الرقيب أول بوير ولهذا كنت في موقف صعب أمامه، فقلت:

- «الخيول ضرورية لنا يا أقين! ولن نسلمها للألمان، سأتحدث أنا مع الرقيب أول بوير، وسأدعي أن العصابات هاجمتنا وأخذت الخيول وفرت».

تطلع أقين إلى وجهي بيأس ثم زفر وذهب فجلس على طرف الفراش.

- «عثر عليَّ الرقيب أول على رأس الحيوانات في المرعى داخل الغابة، فلن يصدق هذا، وإذا لم نسلم الخيول للألمان

فسيحاصرنا غدًا السيد الأوبشتروف كلاپ التابع لوحدات إس إس «هيرمان غورينغ» بدباباته مرة أخرى مثلما جرى في كوبرله، لكننا لا نستطيع تسليم الخيول للألمان صادق بك، فجيوش الروس تقترب من رادوم وستصبح الحيوانات لازمة لنا، نحن بالخيول..».

صدرت صرخة للرقيب أول بوير مع أصوات أقدام على الدرج في الخارج قبل أن يتم أقين كلمته، فضحك أقين ضحكة غريبة، كان يضحك على كوني عاجزًا وربما جبانًا أيضًا، ثم قال بنظرة فاترة:

- «إنه آتٍ إلى هنا، تحدث أنت يا صادق بك».

فُتح الباب على مصراعيه ودخل الرقيب أول بوير محدثًا طقطقة بمهمازيه وكان بجواره رقيب آخر، ووقفوا أمام أقين دون أن يلتفتوا إليَّ وصرخ الاثنان بالألمانية بغتة:

- «إلى الخارج يا هذا! إلى الخارج!».

هجوم الألمانيين على أقين هذا كان كأنما أدمى داخلي من جديد كل الجروح الحادة التي فُتحت بموت موهان، فتحدثت أنا مكان أقين:

- «ماذا تريد يا رقيب أول بوير؟».

- «الخيول! هناك أمر، ستسوقون الخيول فورًا إلى لوبلين، فهي

تلزم الألمان لكن جنديك هذا يعترض على الأمر».

- «حسنًا، سنسوق الخيول إلى لوبلين؛ لكن أمر قائد لوبلين لا يأتي إلى أقين قائد الفرقة أولًا بل كان يجب أن تبلغني أنا».

لم يرد الرقيب بوير على كلامي هذا، وظل أقين ينظر إليَّ مستغربًا قولي سأسلم الخيول للألمان.

- «تعالَ معي الآن يا رقيب أول بوير من فضلك! وتسلم الخيول! متى تريد الرحيل».

- «في الحال».

- «كم جنديًّا تحتاج؟».

- «فرقة واحدة تقريبًا».

- «جيد جدًّا».

عدت إلى أقين بينما يغادر الرقيب أول الغرفة وأمرته سرًّا:

- «أقين! تعالَ ورائي مع ثلاثة أو خمسة جنود، واقبض على الاثنين واستولِ على سلاحيهما قبل أن يخرجا من مبنى المحطة واحبسهما في حجرة بالأسفل، وإياك أن يهربوا..».

تلاشى الخط المستقيم الذي بين حاجبي أقين المنعقدين فورًا وارتخت شفتاه وانفرجت، وأضيء وجهه كله بابتسامة ثم قال:

- «أمرك سيدي القائد».

بعد قليل كان أقين يفعل كما أمرته بينما كنت أخرج من بناء المحطة مع الرقيبين الألمانيين.

لم أخرج من غرفتي طوال ذلك اليوم، فقد وتر أعصابي بشدة وجود الرقيبين الألمانيين محبوسين، وفتور مارية تجاهي وأخبار الجبهة، ومع كل مشاكلي هذه فكرت في سبل إخراج جنودي سالمين واتخذت قراري الحاسم بحلول المساء:

- «سننتظر في كونسكيا أسبوعًا آخر، وإذا داومت جيوش الروس هجومها على رادوم بنفس الوتيرة سنمتطي خيولنا ونتحرك إلى الجنوب، وسننضم إلى العصابات البولندية التي تحارب في غابات سفنتوكشيج في الجنوب ضد الألمان وضد الروس لأجل الاستقلال الحقيقي لبولندا، وأظن أنهم سيقبلون بنا بينهم ثم نستمر في انسحابنا إلى الجنوب».

كنا نضع نصب أعيننا احتمالات دخولنا رومانيا واستقرارنا بين أتراك الدبورجه(118) أو ربما عبورنا إلى تركيا، كنت أعلم كل مصاعب هذا الطريق الطويل، غير أنه لا يبدو أمامنا سبيلًا آخر للنجاة.

شرحت خطتي بكل تفاصيلها لقادة الفرق مساء نفس اليوم،

118- دوبروجا: هي مدينة تاريخية تقع ما بين البحر الأسود ونهر الطونا ويعيش عليها أتراك تركمان في ما بين محافظة كونستانتسا وتولسيا في رومانيا ومحافظة سليسترا ودوبريتش في بلغاريا. وقد تأسست في هذه المنطقة إمارة دبروجا التركمانية (1281-1299).

وأمنوا هم كذلك على عدم وجود طريق آخر للخروج مع اعترافهم بالصعوبات التي ستواجهنا.

جهزت هذه الخطة مع قادة الفرق غير أنه واجهتنا حادثة دامية بعد ثلاثة أيام تمامًا من المساء الذي أمضيناه؛ فصباحًا في ساعة مبكرة وبينما كان الجندي في نوم عميق في الأسفل أدار الرقيب أول بوير مع صديقه سلك في قفل باب الحجرة المغلقة وفتحوا الباب ثم أخذوا الحربة من خصر جندينا وطعنوا المسكين، فسمعهم ڤيليشباي وهم يفرون فقفز من الغرفة وجرى خلفهم ثم طرحهم أرضًا صرعى برصاصتين من مسدسه قبل أن يصلوا إلى السكة الحديدية.

دخل ڤيليشباي إلى غرفتنا ذلك الصباح ومسدسه في يده وفي عينيه بريق قاسٍ لكن وجهه بارد وهادئ وحكى هذا مثل صياد ماهر، لوهلة ظننت أن ڤيليشباي قد فعل هذا انتقامًا لموهان من الرقيبين الألمانيين، لكنِّي عندما هبطت إلى أسفل ورأيت جندينا الجريح أيقنت أنه محق، كانت رؤوس وأزياء جنودنا الذين رفعوا الجريح من الأرض دامية، ولم يكن بيدنا جميعًا أي شيء غير التطلع إلى صديقنا الجريح بعجز، ظل يضغط بيديه الدامية على صدره الأحمر القاني قرابة الساعة ويصدر حشرجةً طويلةً بصوتٍ أقرب للحيوان منه للإنسان ثم صمت شيئًا فشيئًا وأغمض عينيه عن الدنيا بهدوء.

كان أحمد أقين سيضع جثتَي الرقيب أول بوير مع الرقيب الآخر في العربة وسيحملهم إلى لوبلين في اليوم التالي باكرًا وقبل أن تشرق الشمس وسيأخذ معه ثلاثة جنود -أيضًا- وكأنهم ألمان منسحبون من القتال مع العصابات ولكي نبعدهم عنا، وكان سيقول هناك للألمان أن الاثنين قُتلا في مكان قريب من كونسكيا من قِبل العصابات وكان سيمُر على بيت العمدة وهو عائد ويوضح لبارتوش أننا ننوي الانضمام إلى العصابات التي تتحرك ضد البلشفيك وضد ألمانيا في أرجاء لوبلين فقد كنت أريده أن يبلغ هذا للعصابات التي يعرفها في لوبلين.

وضعنا الجثتين فوق قش في العربة عند منتصف الليل وغطيناهم بخيش ورحل أحمد أقين مع الجثتين إلى لوبلين قبل بزوغ الفجر.

داهمنا الشتاء بغتة قبل زوال الخريف، ثلجٌ في كل مكان وبردٌ قارسٌ في الخارج... نترقب جميعًا أقين في حزن وسكون، لم ينم أحد، ولا أحد يتحدث، كل شخص يخرج بين الفينة والأخرى ويذهب إلى الغابة فيغير الحراس ويطمئن على الخيول ثم يأتي إلى جواري مرة أخرى، تختاغُل يذهب ويجيء من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر ويداه خلفه، أصوات قدميه في الصمت تَؤز داخلي، سأسير إلى كونسكيا، لِمَ خرجتُ من الغرفة؟ وإلى أين سأذهب؟ أأريد البحث عن أقين أم أريد رؤية مارية؟ مضى أسبوعان منذ أن

غادرنا أقين، لماذا لم يعد إلى ذلك الوقت؟ أين ظل؟ هل قبضت عليه العصابات؟ أم هل عرف الألمان كل شيء؟ ستأتي وحدات هجوم الإس إس صباح الغد بل هذه الليلة بل في أقل من ساعة تلك أينما تكون وتحاصر مبنى المحطة بالدبابات وتقيدنا في سواري التلغراف وتقتلنا بالرصاص كما قتلت موهان...

يا لحلم انسحاب السرية الكبيرة إلى الجنوب؟ ألم يكن هذا الحلم جنونًا؟ دبورجا... تركيا... الكلام سهل... كيف الوصول إلى هناك؟ ثمة كم دولة هناك سيتم اجتيازها، كما لو أن كافة الطرق كانت مفتوحة أمامنا...

لكن التراجع -أيضًا- غير ممكن بعد الآن، الأماكن التي نام فيها الرقيب أول بوير لا زالت حتى الآن دامية، كيف سنخفي الجريمة؟ أتختبئ الحربة في غرارة[119]؟ يوم، أسبوع، أو حتى شهر... وذات يوم سيظهر كل شيء فجأة، وحتى لو اقتنعوا بكذبتنا فلا نستطيع البقاء في كونسكيا أكثر، تنحصر الآن الحركة على الجبهة، لكن إلى متى، لو يبدؤون الهجوم الكبير على الفور؟

التهمني التفكير، ولم أستطع أن أتناسى هواجسي البتة، حتى مارية! كنت أسير إلى بيت العمدة هكذا دون أي شعور بالبهجة، وأثناء اقترابي من البيت فكرت في ابتعاد مارية القابعة في الداخل بإحساسها بعيدًا للغاية، لِمَ وبأي غرضٍ أذهب إلى هناك؟

119- مثل (Mızrak çuvala sığmaz (girmez : يقال ليدل على استحالة إخفاء شيء ما.

أكانت هناك ضرورة لإظهار الزي الألماني الموجود عليَّ لمارية؟

توقفت لحظة قرب بيت العمدة ثم تراجعت وتوجهت إلى المحطة؛ الأجواء معتمة بعد أفول القمر، والمطر يهطل مصحوبًا بالثلج الشفشاف، ليس ثمة صوت...

صدر صوت حارس فجأة من داخل الظلام في مكان قريب من مبنى المحطة:

- «قف!».

- «لم أجب، ألا يعرفني ذلك الجندي؛ أنا قائده؟».

- «قف! من القادم؟ سأطلق النار!».

- «وقتها فقط استطعت أن أدرك أن الأجواء معتمة وأنِّي أسير في الظلام».

- «قائدك... هل عاد سيدك أقين؟».

- «لا سيدي القائد، لم يعد بعد».

صعدت الدرج الخشبي بهدوء فالجنود نائمون وولجت غرفتنا، كان بطل وإرسان قد استلقوا على الفرش وعليهم أزياؤهم وأحذيتهم في أقدامهم وناموا، لكن تختاغُل يقف أسفل الضوء البسيط للمصباح الخافت ذي الفتيلة المعلق على الحائط، سرت ومسست حافة فراشي، لم يفتح تختاغُل فمه، ومع أني كنت أريد

محادثته كثيرًا إلا أنني لم أستطع أن أبدأ الحديث قط، وبعد قليل تمدد هو على الفراش وقال وعيناه على سقف الغرفة:

- «أين كنت يا سيدي القائد؟».

- «خرجت للتجول هناك كي أستنشق قليلًا من الهواء النقي، أين الرقيب أول؟».

- «خرج ليبحث عنك».

لم نتحدث أكثر، أيفكر تختاغُل في أقين؟ أم في الطرق التي سنجتازها؟ أم في موت الرقيب أول بوير؟ أم أنه يفكر بي؟

تحدثت بعد قليل:

- «تختاغُل!».

- «ماذا هناك يا صادق بك؟».

أطبق صمت قصير وعميق ثم سألت:

- «ألا تخاف؟».

- «لا سيدي القائد».

- «بم تفكر؟».

- «تركستان».

صمت عميق من جديد.

- «ما أكثر شيء تحبه في الدنيا يا تختاغُل؟».

- «تركستان».

- «لكن الآن، هنا... ما أكثر شيء تريد أن تمتلكه في تلك اللحظة، ماذا تريد أن ترى، أترغب في الحب يا تختاغُل؟».

- «تركستان، صادق بك؟».

لا أتبين وجه تختاغُل جيدًا في الضوء الخافت لكن صوته يعكس أفكاره وما بأعماقه بشكل كافٍ...

- «استلقِ الآن ونم يا تختاغُل، ليكن خيرًا في الصباح..».

صمت كلانا، تركستان في خيال تختاغُل أما أنا فليس في خيالي تركستان ولا القرم ولا أقين ولا حتى مارية... استلقيت على ظهري واستغرقت في النوم محدقًا في سقف الغرفة.

دلف الرقيب أول نصر الله إلى الغرفة وأبلغني الخبر بينما كانت أشعة الصباح الأولى تمحو عتمة الليل من على النوافذ:

- «عاد جنودنا من لوبلين يا سيدي القائد».

- «متى؟».

- «منذ أربع ساعات... لم أرِدْ أن أوقظك، ننتظر أقين».

- «هل بقي أقين في كونسكيا؟».

- «نعم، زار بيت العمدة وهو يمر من القرية لكن مضت أربع

ساعات..».

ارتدينا أزياءنا وذهبت على الفور مع تختاغُل إلى بيت العمدة، انتظر تختاغُل في الخارج وعبرت أنا ممر الحديقة ووقفت على العتبة ثم طرقت الباب بهدوء، وبعد ثلاث أو خمس دقائق فتح العمدة بقميصٍ داخلي الباب وشعره أشعث وعيناه جافلة.

نظر ناعسًا في وجهي بعينيه مندهشًا من زيارتي في وقت غير مناسب؛ فسألت:

- «هل أقين في الداخل؟».

- «لا».

- «كيف لا؟».

- .....

- «ألم يأتِ إليك بالأمس؟».

- «جاء وتحدث قرابة العشر دقائق مع مارية ثم تحدث مع بارتوش كذلك وخرج، لم تستمر كل هذه المحادثات أكثر من عشر دقائق».

- «أما قال لك أين سيذهب بعد خروجه من عندك؟».

- «قال فقط إنه منهك ولم ينم وسيذهب إلى المحطة وينام هناك يومًا وليلة».

عدنا إلى مبنى المحطة في قلقٍ وما كان قد أتى بعد، فأنفرتُ كافة الجند عندما أدركت أن أقين ليس في مبنى المحطة ولا في بيت العمدة وأخرجتهم للبحث عنه في منازل كونسكيا وفي الغابات المحيطة، درت طوال الليل ذهابًا وإيابًا في مبنى المحطة وانتظرت خبرًا من الجنود الذين يقومون بالبحث، وعندما أظلمت الأجواء بدأت جمع الجند في مبنى المحطة دون الحصول على نتيجة.

انطلقت صرخة من وراء السكة الحديدية المقابلة في هذه الأثناء، وركض ثلاثة أو خمسة رجال رافعين فوهات بنادقهم لأعلى تجاهنا بصرخات وصيحات ألم، فالتف الرجال حولنا فجأة ولمع بريق أسود في عيني تختاغُل وأمسك يدي بانفعال ثم قال:

- «وجدوا أقين على الأغلب يا صادق بك».

توقف الجنود الذين ركضوا تجاهنا خلفنا بقرابة المائة وخمسين خطوة، ظلوا في محاولة شرح أمر صارخين بلهجة القيرغيز ومحركين أسلحتهم وأيديهم وأذرعهم، وما لبث جنودي أن امتزجوا ببعضهم كأنهم فهموا المأساة التي وقعت، نظرت إلى تختاغُل، لِمَ يصمت؟ ولماذا يصرخ هذا القيرغيزي هناك؟ ارتجفت يداي وتجمعت قطرات العرق الباردة على جبهتي، كان القازاق والقيرغيز والأوزبك والتركمن مختلطين ببعضهم يصرخون جميعًا ويبكون بغتة محركين أسلحتهم بقعقعةٍ

وفوهاتها إلى أعلى، من كل رأس يصدر صوتٌ ومن كل فم كلمة، ولا داعي لمعرفة كل هذه اللهجات لكي تفهم هذه الكلمةً، فهي واحدة في كل اللهجات التركية:

- «مات! مات! مات!.. قتلوه! قتلوه!».

- «قتلوا أقين، شنقوا أقين».

امتزجنا بعضنا ببعض ثم هرولنا جميعًا إلى كونسكيا يجر بعضنا بعضًا صارخين منتحبين وأسلحتنا في أيدينا، أنا في المقدمة وبجانبي تختاغُل والرقيب أول نصر الله وإرسان... وخلفنا أصوات أقدام جنودنا المرعبة على الطريق المثلج... ولجنا كونسكيا بأجيج جهنم، وكأن خبر موت أقين سكينة مغروزة في قلبي، فلم أدرك أن عاقبة خروج الجنود جميعًا تحت قيادتي واشتياطهم غضبًا ستكون وخيمة، لكن لم يعد هناك مجال للتردد، المنزل الأول! تم تكسير زجاجه، أصوات البنادق والسباب والصرخات والآهات متتالية في الأجواء، سحب قيرغيزيان امرأة من شعرها وجروها خارج المنزل، ثم ارتفع إلى السماء دخان أسود من سطح المنزل ومن ركام القش الذي وراءه، أدركت أنني إن لم يكن لدي شيء قوي ينسيهم ألم أقين وإن لم أستطع فرض النظام على الجند فهولاء القيرغيز والقازاق سيحرقون كل القرية ويدمرونها في ساعتين ولن يتركوا حجرًا في موضعه، وسيقتلون كل سكان القرية من أجل أقين، حاول إرسان وأنا وتختاغُل إيقاف

هؤلاء الجنود المتوحشين الذين جُنّوا وخرجوا عن نطاق البشرية، بعضنا يصدر الأمر بالتركية والبعض الآخر بالألمانية، نرجوهم:

- «انتبهوا! انتبهوا!.. احذروا! احذروا[120]!.. توقفوا! إلى الخلف!.. إلى الخلف!».

هدأت كتلة الغضب شيئًا فشيئًا، واستدار الجميع إليَّ وإلى قادة الفرق ببريق وحشي في عيونهم، فتقدم تختاغُل وصرخ بصوت أجش محركًا السلاح في يديه:

- «سأطلق الرصاص على من لا يصغي للأمر! هل يصح لكم وللمسلمين التعدي على النساء والصبية؟ أنتم قوادة لا تخجلون، أوغاد... هل ستفعلون ذلك في الغد عندما أموت أنا أو قادتكم! من الأفضل أن تقتلوني أنتم وليس أعداؤنا قبل أن تفعلوا شيئًا كهذا! حتى لو كان الصبية والنساء غير مسلمين فمن يعتدي ومن يطلق الرصاص إنما هو يبصق على دولته وعلى تركستان وعلى الاستقلال».

هدأ الجنود سريعًا جدًّا مع كلمات تختاغُل هذه! واصطفوا جميعًا فأصدر تختاغُل أمره بصوت عالٍ:

- «للأمام، مارش!».

120- (Stillgestanden! Freeze!) : تعبير ألماني يعني (Aufgepaßt)أي انتبه ويستخدم في الأغلب من القيادة العسكريين للتنبيه والتحذير.

تقدم الجنود بعيونٍ دامعة، ورفعوا بهدوء أحمد أقين المعلق بحبل في لفافة البئر الموجود في طرف ميدان واسع وسط كونسكيا وأرقدوه فوق معاطفهم التي بسطوها، ثم تقدم تختاغُل وبطل وإرسان والرقيب أول نصر الله فشقوا حلقة الجنود وجثوا حول أقين وأمسكوا جسده العزيز بين أذرعهم ثم رفعوه، عبرنا شوارع كونسكيا الباردة الساكنة تمامًا نحن في المقدمة والجنود في الخلف باكين جميعًا وذهبنا به إلى مبنى المحطة.

(10)

مضى أسبوعٌ مذ وارينا أقين التراب، أذهب كل يوم إلى قبره، فأجلس على حجرٍ وأكتب اسمه «أحمد أقين» على الثلوج أمامي بطرف عود بيدي، هذا سلوان لي على الأغلب، أمكث لساعاتٍ فوق ذلك الحجر وأدخن سيجارة ثم أنهض وأعود إلى مبنى المحطة، يهطل الثلج ليلًا، ثلج مستمر هكذا على غرار عاصفة كما لو أن في نيته مواراتنا ومواراة كل الحياة معنا كما وارى أقين، في اليوم التالي أذهب مجددًا لأقين فأجلس على نفس الحجر وأَخطُّ نفس الكتابات في نفس المكان، ليس هناك أحمد أقين بعد الآن! أرى الآن الطرق التي مررت بها حتى الثلوج التي أسفل قدمي والأذربيجاني ومصطفى وموهان والآخرين في تلك الطرق أكثر من أحمد أقين.

تختاغُل أقوى مني، يعرف أنني ضعيفٌ وعاجز ويدرك الفاجعة التي ألمت بي وأنني لن أفيد في أي شيء بعد الآن على الأغلب...

علمنا قبل يومين ببدء اشتباكات دامية بين الروس والألمان

لأجل بولوي[121] التي تقع على نهر فيستولا[122] على بعد ثلاثين كيلومترًا شرقًا، سنفر إلى الغابات وننسحب إلى الجنوب يوم تعبر الجيوش الروسية النهر، وسنحاول أن نبتعد عن العصابات والقرى والوحدات الألمانية، ربما ينجينا هذا مع شجاعة تختاغُل، ربما! وإذا لم ينجِّنا؟ وإن حاصرتنا جيوش الروس بينما ننسحب إلى البلقان، لم أنم، تمددت في الفراش على ظهري ويدي على غمد مسدسي، أفكر كيف أسحب مسدسي وأي نقطة في رأسي أسند عليها ماسورة المسدس وكيف أغرس الرصاصة في رأسي وكيف سأموت.

ذهبت ذات صباحٍ إلى قبر أقين مجددًا، فرأيت وأنا جالس على الحجر مارية وبارتوش يقفان ويتطلعان إلي مطولًا من التل الموجود وراء السكة الحديدية، ثم رجع بارتوش إلى كونسكيا، وسارت مارية إليَّ بخطواتٍ ثقيلة، كان عليها معطفها القروي السميك القطني، ورأسها مغطى بشال أسود ذي شرابة، ووجنتاها مصطبغة باللون الأرجواني والوردي والأحمر من البرد، كانت شبيهة بالفتاة القروية، أتت لمواساتي، فأنا في حاجة لكل شخص، فعلى الرغم من قتل البولنديون لأقين وعدم حب مارية لي لا أضمر حقدًا لأحد، ولا حتى لقتلة أقين! فقد ارتدينا هذه الأزياء لأجل الموت على أي حال، وتسلحنا لأجل القتال حتى الموت،

121- مدينة بولوي: هي مدينة تقع في شرق بولندا بين نهري فيستولا وكوريكا.
122- نهر فيستولا: هو أطول نهر في بولندا.

غير أننا كنا نعتقد أننا سنموت في سبيل استقلال تركستان فحسب، أدركنا خطأنا، أفكان السبيل الذي سلكناه لأجل استقلال تركستان صحيح؟ وهل يمكن أن يصبح فناؤنا عبرة لشباب القرم وأديل أورال[123] والقفقاس وتركستان؟ سيجيب على هذا شباب تركستان الأفضل منا الذين سيأتون خلفنا.

نظرت إلى «أحمد أقين» المكتوبة على الثلوج أسفل قدميَّ وبكيت ورأسي بين راحتيّ، فانحنت مارية عليَّ، وبصوتها الحاني الذي هدأ روعي ويداها على كتفيّ:

- «انهض يا صادق، قم..».

نهضت، لا أعرف أأفرح أم أشعر بالقلق ورأسي على كتف مارية، أريد أن أقضي دقائق عمري الأخيرة وأختم عمري ورأسي على كتف مارية.

بدأت أتمالك نفسي بعد اليوم الذي التقيت فيه مع مارية، وكان قادة الفرق يدركون هذا غالبًا، فكان بطل مع فرقته على رأس الحيوانات وثلاثتنا تختاغُل وإرسان وأنا نختلي بعضنا ببعض لساعات ونكمل خطتنا للانسحاب من كونسكيا إلى الجنوب.

بعد أسبوعٍ تمامًا من لقائي بمارية بدأت تظهر دبابات قليلة ذاهبة إلى رادوم ومجموعات من ثمانية لعشرة جنود ملطخين

123- أورال ألتاي هي مدينة تاريخية في غرب أوربا وتقع الآن داخل روسيا ودولة أورال ألتاي هي جمهورية تتارية قصيرة العمر كان مركزها قازان.

بالوحل، وتنشط المدافع في أرجاء بولوي في الشرق ليلًا، كنا نشاهدها أنا وتختاغُل من النافذة، فقد كانت فوهات الجبهة التي تنشر النيران بهدير في السماء أعلى كونسكيا، هذه النيران الشديدة لأي طرف؟ هل للألمان، أم للروس؟!

صدرت في أطراف السكة الحديدية بالأسفل أصواتٌ وصرخاتٌ وسبابٌ تمتزج بضجيج الدبابات والمحركات قبيل منتصف الليل فركضنا إلى أسفل، وكانت كل كونسكيا وأطراف السكة الحديدية وكل مكان مكتظًّا بالخيول والعربات والدبابات والجنود، وكأن كل جنود ألمانيا ومدافعها وبنادقها قدمت إلى هنا وتحاول التقدم إلى رادوم الآن، وكأن الفوهات التي أطلقت النيران منذ قليل في سماء كونسكيا اجتمعت كلها الآن وأسدلت الستار على النار واللهيب الأكثر رعبًا ودموية.

سألت تختاغُل الواقف بجواري واضعًا يدي على كتفه:

- «أهذه النهاية؟».

- «يبدو هكذا يا صادق بك».

- «إذن لنتحرك».

- «برأيي لننتظر قليلًا يا سيدي القائد، ليخف الزحام قليلًا وننسحب متأخرين في إثر الجنود المنسحبين لئلا نختلط كثيرًا بالألمان وتستطيع عصابات بولندا أن تقبلنا».

انتظرنا حتى حل الصباح وعبر الجنود وذهبوا كما أتوا مثل موجة ضخمة وخفَّت أصوات المدافع خلف كونسكيا قليلًا، الخيول والعربات مجهزة وجنودنا المسلحون ينتظرون أمري، لا يمكنني رؤية أي جندي ألماني آخر في الخارج، هل كانت الوحدات التي مرت ليلًا عائدة من الجبهة يا ترى؟ أم أنه توجد وحدات أخرى تتولى الجبهة؟ لا أرى أي جندي آخر، أم أنه لم يظل جبهة ولا غيرها؟ أو هل تتجه هذه العاصفة الأخيرة إلى أوربا؟

جمعت القادة حولي.

- «بطل! لتتحرك فرقتك!.. حاول ألا تخرج من الغابة وانتظر ليلة قبل عبور الأراضي المكشوفة.. خذ عشر عربات».

- «أمرك، سيدي القائد».

- «إرسان! فرقتك الثانية، حاول أن تحافظ على مسافة بقدر خمسمائة متر من فرقة بطل ولتسر مجموعة جنود دائمًا في المسافة التي بينكم كي تؤمن التواصل، إن صادفتم عصابة أو مثلها فلا تطلقوا النار إلا دفاعًا عن أنفسكم».

صدر دويٌ من خلف كونسكيا قبل أن أتم كلامي.

- «طائرات الروس!».

ظهرت طائرتان مقاتلتان على ارتفاع ثلاثمائة متر تقريبًا فوق السكة الحديدية.

- «انبطحوا أرضًا!».

انبطح الجنود على الأرض في التو كأنهم زرع حصده مِنجل، كانت رصاصات البنادق الآلية تمر فوق رؤوسنا وأجسادنا باعثة أصواتًا أشبه بالصوت الصادر عن تمزق القماش، ثم ظهرت طائرات أخرى خلف الطائرات التي أهالت علينا وابل الموت قبل أن أجد وقتًا لرفع رأسي... دوي وانفجارات وأزيز... تراب وحديد ودماء ودخان ممتزج ببعضه؛ أنّات وآهات وصرخات...

- «إلى الغابة!.. اركضوا إلى الغابة!.. ولا تتركوا الجرحى!».

لم أستطع أن أرى أي طائرة في السماء عندما رفعت رأسي، لكن ضجيج المحركات الثقيل والعميق لا يزال في أذني كما لو أنه يأتي من تحت الأرض، كان هناك سكون عميق في السماء وكأن أصوات جهنم التي كانت في الهواء منذ قليل قد توارت تحت التراب ثم عادت لنا الآن ثانية من تحت الأراضي بكل رعبها: قير- قير- قير- قير... أشعر بهذه الأصوات داخلي، هذه الأصوات هي لغة الحرب، أعي ما تريد التعبير عنه جيدًا، الدبابات! يقولون إننا نقترب... أتى تختاغُل إلى جواري زاحفًا:

- «في المقابل سيدي القائد، وراء السكة الحديدية... هل تراهم، هم في ساحة البرج فقط».

- «ضمِّدْ جروح المصابين يا تختاغُل، كم جريحًا يوجد؟».

- «لا أعلم سيدي القائد، أظن أنهم أكثر من عشرين».

- «استطعت الآن فقط أن أنظر إلى وجه تختاغُل، كانت هناك دماء على وجهه وزيه وأزار زيه وحتى على السلسلة البادية من الساعة التي في جيبه إلى عروة جيبه».

- «أأنت مصاب؟».

- «لا يا صادق بك، إنها ليست دمائي، فقد حملت ثلاثة أو خمسة جرحى إلى الغابة... جراحهم عميقة للغاية... لا يمكننا البقاء هنا أكثر، أنا سأذهب إلى الجرحى وأنت..».

- «اذهب أنت يا تختاغُل، وأنا -أيضًا- سآتي..».

تراجع تختاغُل زاحفًا ثم ظهرت دبابة أخرى من وراء السكة الحديدية، ولم يكد تختاغُل يقل من بعيد للغاية:

- «انسحِب من هناك سيدي القائد! فستفتح الدبابات نيرانها!»، حتى زمجرت مدافع الدبابات.

- «انسحب يا صادق بك!».

- «اذهب أنت يا تختاغُل! اذهب! ولا تدَعِ الجرحى!».

قصفت المدافع ثانية واختفى تختاغُل تحت الدخان والغبار الذي ارتفع في الخلف.

تقدمت تجاه الغابة تحت نيران المدافع، وبينما أزحف فوق

الدماء في المكان الذي قصفت فيه الطائرات جنودنا قبل نصف ساعة سمعت آه عميقة من بين عجلات عربة بلا حصان على اليسار، فاندفعت إلى ذلك الجانب فورًا، لكن قبل وصولي إلى العربة صدر صوت صفير مرعب وصوت طقطقة! أمام عينيَّ ستار أسود فأرجواني فأحمر فوردي.. وأنا جاثٍ علي ركبتي، لم أفقد وعيي بعد، لا أشعر بألم في رأسي غير أني ضغطت براحتي على أذنيَّ -لا أعلم لمَ- وكأني أصبت في رأسي، تنساب دمائي أسفل يديَّ ورسغيَّ، وزيي كأنما يضيق على صدري، والقميص ملتصق بصدري مثل خرقة مبللة، بللٌ ما تحت صدري وفي بطني وفي ساقيَّ وفي كل مكان بأعماقي... حارٌ حارٌ ثم دافئ بمرور الوقت، ثم بقيت الحرارة في صدري فقط نهايةً، برد أسفل صدري والبلل حولي في كل مكان وحاليًا قفصي الصدري فقط حارٌ، يداي وقدماي وساقاي مثل الثلج، أرتجف وليس ثمة صوت ولا حس حولي ولا حتى آهة وأرى الآن العربة وجندينا المنبطح بين عجلاتها جيدًا، تهاويتُ ولم يبقَ ولو حتى قليل من القوة في أي محلٍ في جسدي، ومع هذا أذكر كل شيء في مكان ما في رأسي، لف صمتٌ عميق السماء والأرض ومبنى المحطة وكل مكان، مرت دبابة وذهبت على الأغلب والصمت مستمر...

اعتقدت أن الجنود الروس سيأتون من خلف الدبابات وبدأت ارتجف من الخوف، سيعود تختاغُل قبل أن يأتي الجنود الروس فيحملني إلى الغابة ويرقدني فوق إحدى العربات، ليته فقط

يُعجل قليلًا! ألن يستطيع تختاغُل أن يحملني إلى الغابة قبل مجيء الروس؟ انبطحتُ أرضًا ثم أخرجت مسدسي ووضعته بجانب رأسي وانتظرت تختاغُل في هذه الوضعية، ولم يك في البادين، لا أعرف لِم لا يأتي! أمات؟ أأصيب هو الآخر؟ أم أنهم جميعًا تركوني هنا وذهبوا؟ انكمشتُ من البرد، أحاول ألا أرى الدماء التي على يديَّ وصدري ولا زال الهدوء حولي مستمرًا، كل الأراضي ساكنة، وحده جسدي المُدمى يرتجف، أهي نهاية حياتي؟ لا أصدق، بل لا أريد أن أصدق، لا تحل نهاية حياة الإنسان بهذه السهولة وفجأة هكذا، فما زلت أرغب في الحياة.

كأنما ترنو إلى أذنيَّ أصواتٌ من وراء مبنى المحطة، إنه صوت عربة على الأغلب... أم أني أتخيله هكذا، لا، إنها أصوات... أصوات أناسٍ وهم يتحدثون بهمس، أهم روس يا ترى؟ مددت مسدسي، سأموت لكنني لا أخاف، ولأقتل ولو روسيًّا واحدًا قبل أن أموت، ربما هو ألماني! من هناك؟ صديقٌ أم عدو؟ بصرت من وراء عجلات العربة قدمًا بحذاء مدني بجانب غرارة الرمل، بعدها بقليل زحفت إلى العربة ببطء بقدمين لا تتحركان، فظهر وجه بارتوش الأشقر مقابلي قبل أن أصل إلى العربة:

- «بارتوش! بارتوش! أهو أنت؟».

مرق كالسهم وأتى بجواري ثم جثا وأمسك بكتفي:

- «لا تخف يا صادق.. لا تخف! فأنت حي.. مارية! مارية تعالي..

بسرعة!».

تأثرت بشدة ما إن سمعت صوت مارية، أتت مارية مهرولة فجثت على ركبتيها وقبلت بشفتيها الدافئة جبهتي ووجنتي المتسختين الداميتين.

- «لا تخف يا صادق.. لا تخف.. لن يأتي بلشفيك آخرون، هما دبابتان فحسب.. وذهبتا أيضًا، البلشفيك وراء كونسكيا، ولن نسلمك لهم، فلا تخف..».

رفعتني مع بارتوش من على الأرض بعدها وأرقدوني في العربة، رأسي فوق ركبتي مارية ويدها اليمنى على جبهتي ويدها اليسرى في راحتيَّ، وبارتوش يرجع بالعربة إلى كونسكيا.

أنا في بيت العمدة منذ أسبوعين، أرقد على فراشٍ مصنوع من قشٍ جاف في السندرة، وكونسكيا في يد البلشفيك، يبدأ الآن خوف الحرب عندي غالبًا، لكن لا؛ فهذا الخوف ليس خوف الحرب، بل هو من نوعٍ مختلف هو الخوف القديم هذا! فسيدخل القازاق الروس ذوو الحرب بيت العمدة اليوم أو غدًا في أي ساعة وفي أي دقيقة، وسيقلب جنود N. K. V. D[124]. بيت العمدة رأسًا على عقب ويفعلون بهذه القرية ما فعلوه بقرى قِرمِنا ويقتلونِّي،

124- N. K. V. D: هي اختصار لـ (Narodnyy Komissariat Vnutrennikh Del) المفوضية الشعبية للشؤون الداخلية وهي مؤسسة سوفييتية جمعت بين أنشطتي الشرطة والشرطة السرية عملت على التنفيذ المباشر للإرادة السياسية السوفيتية خلال عهد جوزيف ستالين.

وأخاف من أن يسوقوا العمدة وزوجته ومارية وبارتوش إلى غابات سيبريا السحيقة الموحشة، سيبريا... سيبريا أسوأ من الموت! أولئك المساكين لا يعلمون هذا، أما أنا فأعلم، رأيتهم بعينيَّ يقذفون الناس الأبرياء بلا ذنب إلى الطرق المثلجة القارسة ضاربين خصورهم بكعوب بنادقهم، رأيتهم بأم عينيَّ يسوقون الأطفال الذين لم يبلغوا سن النطق إلى سيبريا.

تسند مارية وبارتوش سلمًا إلى سقف الغرفة ثم يصعدان إليَّ نهارًا، في يد بارتوش الشمعة ومارية تنظف جروح صدري بالقطن والكحول وتغير ضماداتي على ضوء الشمعة، يا لوجه مارية الأبيض الجميل الرباني هذا! كان اهتمامها وعنايتها هذه يحزان في نفسي، فأنا حزين لأنني لن أستطيع قط رد دين الفضل لمارية، شغلها الشاغل أنا وجروحي، تضمدها وتربطها وتعتني بي مثل أم أو أخت.

- «دعيني هنا يا مارية، سأرقد لثلاثة أو أربعة أسابيع آخرين فتشفى جروحى ثم ألوذ بالغابة، اهربي أنتِ فأنتِ لا تعرفين الروس... اهربي ولا تتوقفي».

لم تنبس مارية بشفة فجروحي في هذه الدقائق أهم من كل شيء عندها.

- «اهربوا أنتم فأنتم لا تعرفون الروس..».

ردت مارية في النهاية بهدوء:

- «نحن -أيضًا- نعرف الروس».
- «إن كنتم تعرفونهم فلِمَ تراوغون؟ اهربوا..».

قال بارتوش:

- «اسكت يا ملازم! إذا كنا سنفر فسنفر معًا جميعًا، هل تظن أننا سندعك هنا بمفردك؟ فنحن أمة فقيرة ولا تحبنا الأمم الأخرى كثيرًا لكننا لا ننسى أصدقاءنا القدامى، أتعلم يا ملازم أن صُبحان غازي آغاكم[125] كان قد أتى مع جنوده من القرم حتى روسيا البيضاء لنجدة ملكنا يان كازيمير[126]، اسأل مارية فهي -أيضًا- تعرف، أليس كذلك يا مارية؟

لم تنبس مارية بشفة وابتسمت ابتسامة عذبه فحسب.

- «حاربت سيوفكم أنتم القرميون مع سيوفنا متحدة الموسكويين في صحاري أحمدوف وكاناتوب، فلم يقدم أي ملك مسيحي المساعدة التي قدمها مقصود غراي في حرب فتح السويد)127(، تاريخ قديم لكنه حقيقي! فالأصدقاء القدماء أفضل من الأصدقاء الجدد، ما رأيك يا مارية؟».

ضحكت مارية، وعلت ابتساماتها الدافئة شفتيها ووجهها

125- (صبحان غازي أغا: هو قائد القرم من الإنكشارية الذي أرسله محمد خان الرابع للمشاركة مع الجانب البولندي ضد الغزو السويدي.

126- (هو يان الثاني كازيمير فاسا ملك بولندا من عام 1648إلى عام 1668.

127- مملكة السويد (İsveç): هي إحدى الدول الإسكندنافية الواقعة في شمال أوربا. وهي ثالث أكبر دولة في الاتحاد الأوربي من حيث المساحة.

الحنون...

لن تلتئم جروحي أبدًا، يوجد بداخلي ألم أبدي، أفكر في مارية أكثر من نفسي، وكأني خائف من جمال مارية ونضجها، أتمنى لو كانت امرأة قبيحة، فلم يرَ جنود الروس مارية بين نساء القرية بعد، آهٍ لو يروها!

ذات يوم صعدت مارية بمفردها إلى السندرة، فجثت بجواري وأحاطت عنقي بذراعيها، كانت تريد تخفيف نار صدري الحارة بدفأ صدرها اليافع والتفريج عني.

ظلت مارية بجواري ذلك اليوم وأمسكت بيدي ولم تدعها أبدًا طوال اليوم، جاء بارتوش قبيل المساء، فضمدوا جروحي مجددًا وكان بارتوش يقدم أخبارًا جديدة واقترح على مارية أن تخرج من السندرة، فقد دخل الجنود الحمر المنازل ليلًا وأخذوا الفتيات الشابات وحتى السيدات المتزوجات وذهبوا بهن، ليس هناك سوء لم يقترفوه، أخرجوا بعض العائلات من القرية وساقوهم إلى الشرق، وقد خاف العمدة كثيرًا... هو -أيضًا- يريد ترك أطفاله وزوجته والهروب... فالألمان يتعرضون لهجوم مضاد في أرجاء ساندوميرتس[128] وقد انسحبوا في عدة مناطق للروس.

بعد شهر بالضبط من يوم إصابتي قررنا الفرار من كونسكيا

128- ساندوميرتس (Sandomej): هي مدينة تقع في جنوب شرق بولندا.

والانضمام إلى عصابات بولندا التي تتراجع من أمام الجيوش الروسية إلى تشيكوسلوفاكيا[129] في الغرب، كان العمدة يخشى الروس حقيقة، وكان خطرًا بشدة بقاؤه في كونسكيا بالنسبة له أو لزوجته وأبنائه، وبأمل ألا يسوقوا زوجته وأبناءه وأن تترك الروس دولته بعد الحرب قرر هو -أيضًا- الفرار معنا، كنت لا أزال ضعيفًا ومرهقًا غير أني ما كنت أخاف من ضعفي بين مارية وبارتوش في العربة، كانت مارية تقول إنها لاحظت التئام جروحي وأن ضعفي ناجم عن رقودي لمدة طويلة وأني أحتاج إلى الهواء النقي.

أطلقت لحيتي، ولفت مارية جروحي بضمادات نظيفة ثم ارتديت قميص العمدة القديم على جروحي وارتديت ثيابًا قروية ثم هبطت من السندرة.

خرجت أنا ومارية وبارتوش والعمدة بالعربة من كونسكيا قبل أن يبزغ الصبح، ووصلنا إلى شيدلوفيتش[130] مع حلول المساء، كانت فرق الجيش لا زالت تتحرك على الطرق اتجاه الجنوب، فخرجنا إلى حافة الطريق ببطء وأفسحنا الطريق لشاحنات الجيش ودباباته ومدافعه الثقيلة، لم يلتفت لنا أحد، غير مجموعات مؤلفة من ثمانية إلى عشرة جنود ببنادق آلية

129- تشيكوسلوفاكيا (Çekoslavakya): هي جمهوريت شُكلت كاتحاد بين جمهورية التشيك وجمهورية سلوفاكيا بين أعوام 1918 - 1939 و1945 1992-. ومن هنا يأتي اسمها.

130- شيدلوفيتش (şıdloviç): هي قرية تقع في مدينة أوباتوف جنوب بولندا.

ومسدسات أمام المنازل كانوا يريدون أن يعلموا إلى أين سنذهب بينما نمر من القرية، وأثناء اقترابنا إلى هذه المجموعات دفع بارتوش إلى كل منَّا بزجاجة عرق، ونحن -أيضًا- تظاهرنا بالثمالة، وأمسكنا زجاجات العرق التي في أيدينا على رؤوسنا ومدحنا الروس بلغة هي خليط بين الروسية والبولندية وكِلنا السباب للألمان والحثِّيين، وهكذا كنا نستطيع أن نجتنب الخطر صارخين وسابين تارة ومصفقين تارة أخرى، أدرك الآن أني كنت مخطئًا عندما قلت لمارية وبارتوش في كونسكيا أنتم لا تعرفون الروس، فالبولنديون يعرفون الروس مثلنا، فقد عملت بلطة الروس الدامية في بولندا كذلك، يعرفونهم ولذا يقولون لي اشرب العرق، يقولون لتكن رائحة كل كلمة تخرج من فمك كالجيفة، فإذا كانت أمنيتك النجاة من الروس فاثمل وسب.. سُب بلا توقف، كنا نكيل السباب وجنود الروس يظنوننا نبتهج لفرار الألمان، يظنوننا نصفق لهم ولم يوقفونا.

أمضينا الليلة في شيدلوفيتش، ثم رحلنا مجددًا في الصباح الباكر، ووصلنا بعد يومين إلى استرويش[131]، وقبل أن نعبر شاطئ النهر المقابل ونتحرك إلى ساندوميرتس اقترح العمدة أن نتوقف في أوباتوف[132] ونبقى عدة أيام عند أنسبائه، ووافقنا نحن أيضًا، كان تحركنا بحرية حتى ذلك الوقت ذاته ينتهي هنا

131- استرويش (ostrowiec): هي مدينة تقع في جنوب بولندا.

132- أوباتوف (Opatów): هي مدينة تقع في جنوب بولندا.

على الأغلب، وكنا نشاهد سكانًا مدنيين في الطرق كثيرًا، وكان الجنود الروس يوقفونا في بداية كل كيلومتر ثم يسألوننا إلى أين نذهب ويفتشون عن سلاح أو ما شابه في عربتنا، وما عادت زجاجات العرق وأدوار الثمالة تفيد مثل سابق، فكنا نبحث عن حيل جديدة ونحاول أن نختلق أكاذيب جديدة، كانت مارية زوجتي أما أنا فكنت زوجها المريض، وكانت مارية تقوم بهذا الدور جيدًا للغاية، وأنا مريض حقًّا، فكنت أبدأ التوجع بحزن ورأسي على ركبتيَّ مارية بينما نقترب من عربة الروس، وكانت مارية تمسك بجبهتي وتتظاهر بالبكاء، والحمد لله أن حيلتنا هذه نفعت حتى استرويش، لكن في اليوم التالي؟

المسكينة مارية!

لا يمكنني أن أنسى قط، أوينا إلى مرآب خرب محترق في استرويش ونمنا في العربة، كانت جروح صدري تئن بشكل سيء، وكنت أشعر أن ضماداتي تفككت عندما تحركت وفُتحت جروحي في عدة مناطق، لكنِّي قررت ألا أتحدث عن جروحي قبل الوصول إلى أوباتوف لأني لا أريد أن أثقل على مارية وأصدقائي بآلامي وأوجاعي، لم أستطع أن أنام حتى الصباح، وبت أنصت بخوف لما حولي حتى الصباح، كانت تأتي أصوات الجنود الحُمر من الشارع، وتمر الشاحنات والدبابات من جانب المرآب وتذهب، وفي كل طقطقة قدم كنت أظن أنهم جنود يفتشون عني وسيأتون

لأخذي، وحين أغمض عيني يتراءى أمامي الضباط ذوو الوجوه المختلفة كثيرًا والأماكن المرعبة المتنوعة الكثيرة وجدران الإن كا دي N.K.D.V الخرسانية والغرف الملطخة بالدم ومعسكرات سلافكو(133) وكوابيس أخرى مختلفة كثيرًا، لم أكن أخاف الموت بيد أنني لم أكن أريد الموت بجانب مارية بينما أنا قريب منها لهذا الحد.

طلع الصبح أخيرًا، وكان هناك برد قارس، نهض العمدة أولًا ولف سيجارة ثم نزل من العربة وخرج كي يعرف ما يجري في الشوارع... ثم عاد بعد خمس عشرة دقيقة وقال إنه يوجد مواطنون مدنيون بين الجنود الموجودين في شوارع المدينة فرحلنا على الفور وكنا خارج استرويش بعد ساعة، عبرنا الجسر غير أنه كان هناك حشد عسكري في بداية الجسر فخفنا من الاقتراب وتوقفنا بعيدًا وترقبنا، كان الجنود الذين يبدون بلا نهاية وفرق الذخيرة تتقدم خلفنا بقرابة مئتي متر على اليمين، فقررنا أن نذهب إلى الشمال خمس عشرة كيلومترًا تقريبًا ونعبر إلى الشاطئ المقابل من جسر آخر.

خرجنا من المدينة وتبعنا الطريق الذي يمر من طرف الغابة ووصلنا إلى أرض جرداء، وقبيل الظهيرة كنا قد اقتربنا من الجسر، فبدأت غابة أخرى على بعد كبير من الجسر على الطرف

133- سلافكو (salovka): هي مدينة تقع في إقليم بنزا في روسيا.

الأيمن من شاطئ النهر، نظر العمدة الذي أوقف العربة قبل الوصول إلى الجسر إلى باراتوش وإلى مارية ثم إلى الثلاثة جنود الروسيين الذين يتجولون ذهابًا وإيابًا في بداية الجسر ببنادقهم ذات الحرب الطويلة وقال بصوت هامس كأنما يحدث نفسه: «إذا عبرنا هذا الجسر فيعني أننا وصلنا إلى الأمان».

أحاطت مارية يدي براحتيها وابتسمت كأنها تقول انظر داخل عيني ولا تخف يا صادق فأنت معي.

أخذتُ يد مارية في راحتي وقبلتها بينما كان باراتوش والعمدة ينظران إلى الجنود الروس الذين في بداية الجسر، ثم سألتها بهدوء كأنما أرغب في مرور مشاعر قلبها الدافئة إلى قلبي:

- «أتحبينني يا مارية؟».

دنت بوجهها من وجهي وترقرقت الدموع في عينيها ثم قالت بنفس الهدوء:

- «بلا شك يا صادق».

فى تلك اللحظة تمامًا تحدث العمدة الذي رأى أحد الجنود الثلاثة الموجودين في بداية الجسر يسير في اتجاه العربة موجهًا بندقيته لنا:

- «ارقد أنت سيد صادق... ولا تتحدث، واعتني به أنتِ يا سيدة مارية»، ثم قاد العربة في الوقت نفسه إلى الجندي الآتي إلينا.

كانت مارية تصمت منحنية عليَّ وعيناها في عينيِّ ومن ناحية أخرى تداعب شعري.

لم ينبس العمدة بشفة، أما بارتوش فكان يسب الروس بقدر المستطاع لكن بصوت يمكننا نحن فقط سماعه «الموسكويون الجبناء!».

سمعت صوت الروسي من بعيد:

- «توقفوا! من أنتم؟ وإلى أين تذهبون؟».

فأوقف العمدة العربة وأجاب بصوت مرتفع:

- «نحن من أوباتوف يا صديق، استولى الألمان على منزلنا! وطردونا!.. والآن نعود لمنزلنا».

أتى صوت روسي من قريب قليلًا:

- «ألديكم هوية؟».

- «ليس معنا هوية لكن الكل يعرف أننا من أوباتوف، فاسمح لنا لنعبر الجسر، من فضلك... فلدينا مريض».

حل صمت طويل وعميق لمدة، ومارية لا تزال منحنية عليَّ تنظر في عيني وتبتسم بعذوبة، لكن ابتسامة مارية هذه كانت متباينة كثيرًا، كان تعبير عينيها في هذه اللحظة أنها لن تذهب من أمام عيني حتى نهاية عمرها، ثم ماذا حدث؟ تراجع الجندي

الروسي وتحدث مع أصدقائه!

- «يريد هؤلاء الرجال عبور الجسر؟ أندعهم؟».

انتظرت الجواب وقلبي في صدري يخفق أسفل جروحي، ولم يأتِ الجواب، كان الجنود الروس قد بدؤوا يلتفون حول العربة بعد خمس عشرة دقيقة وفي النهاية اعتلى أعلاهم رتبة إطارات العربة ونظر إلى وجهي ثم إلى وجه مارية:

- «من يكون المريض؟».

- «زوجي».

- «هل هو زوجك؟»، ثم وضع ذراعيه على عنق مارية قائلًا: «ما فائدة زوجك المريض لك؟»، ثم وثب بعيدًا عن إطارات العربة وقال عائدًا للعمدة:

- «لأرى هوياتكم مرة».

العمدة:

- «ليس معنا هوية يا رفيق، نحن من أوباتوف وكل الدنيا تعلم أننا من أوباتوف، اتركنا بعد إذنك نعبر الجسر».

- «يجب أن أعلم من أنتم ومن أين تكونون؟ يجب أن تظهروا هوياتكم وتثبتون، فما يدريني ربما أنتم جواسيس للألمان».

صمت العمدة، وما زالت عينا مارية تضحكان إلى الآن لكنها

هذه المرة ضحكة غريبة عجيبة، كانت تريد ألا تظهر قلقها على الأغلب بابتسامتها هذه، وأقلقني الصمت الذى بدأ بصمت العمدة، فتذكرت فجأة أنه لا يوجد سلاح بجانبي، فارتجفت يدي وقدمي، ستحل بنا مصيبة أخرى، فأنا في يد البلشفيك! أدركت مارية خوفي على الأغلب، فأدخلت يديَّ بين راحتيها وهمست بأذني:

- «لا تتنبس بصوت يا صادق... احذر أن تتحدث بالروسية، سيشكون بنا..».

اجتمع الجنود خلف العربة بخمس عشرة خطوة وخلوا ببعضهم وظلوا يناقشون أمرًا في ما بينهم.

ثم اقترب أعلاهم رتبة من العربة ثانية:

- «أوباتوف على الجبهة، ولا يوجد معكم تأشيرة للعبور، فما أدراني ربما تريدون الهروب إلى الألمان!».

العمدة:

- «ليس لدينا أى نية للهروب، يا صديقي نحن نذهب إلى أوباتوف إذا كان ممكن فاتركنا لنعبر الجسر وإن وجد مانعًا فسنعود إلى استرويش».

هبط صمت ثقيل وعميق ثانية ثم صاح الروسي:

- «لتأتِ زوجة هذا الرجل المريض معي، فيكتب قائدنا داخل الغابة التأشيرة لكل واحد منكم ثم تعبرون الجسر».

فهمت الشيء الذي يريده الجنود من مارية، فاتسعت عيناي من الرعب، ولم تعرف مارية المسكينة ما الذي يريدونه، فهي لا تعرف هذه الأشياء المرعبة، دار رأسي أنا لن أترك مارية!

صاح الجندى مجددًا:

- «لتنزل هذه السيدة من العربة!».

عانقت مارية بشدة:

- «لا تذهبي يا مارية.. لا تذهبي، إذا كنت تحبيني فلا تذهبي..».

سأل الروسي مرة أخرى:

- «هل ستأتي تلك المرأة؟».

أجاب العمدة:

- «لآتي أنا معكم يا رفيق، فزوج هذه المرأة مريض للغاية ولا يمكن ترك المريض..».

- «لا يمكن أنت يا وغد، يجب أن توقع المرأة بنفسها تأشيرة زوجها المريض، ألا تفهم! إما أن تأتي المرأة أو نحملكم جميعًا إلى القائد».

انحنت مارية عليَّ وقبَلت شفتيَّ ومسحت دموع عينيَّ التي انسابت على وجنتي إلى لحيتي.

- «لأجلك أنت يا صادق... لأجل سلامتك... كم مرة عاهدتك بألا

أتركك، فأنت أهم عندي من نفسي ومن روحي..».

أثر فيَّ صوتها المرتجف من الألم، وشعرت أني مهزوم وعاجز كما لم أكن في عمري، لا أستطيع فعل شيء حاليًا إلا تقبيل يدي مارية والتوسل قائلًا:

- «لا تذهبي، لا تذهبي!».

اعتلى الجندي الروسي إطار العربة ودعا مارية إلى الغابة لكي تأخذ التأشيرة من القائد، وضعت مارية صرتها أسفل رأسي ونهضت ثم نزلت بصمت من العربة.

بدأت البكاء بحرقة بينما هي تبتعد بين الجنود فأتى بارتوش إلى جواري وجثا عند سمت رأسي وتوسل مثل أخ ويديه الاثنتين على كتفي.

- «لا تبكِ صادق... لا تكن طفلًا، نجاتنا جميعًا متعلقة بهذا، ولا تعرف حتى الآن ماذا يوجد في الغابة».

أنا أعلم، أعلم جيدًا!.. لكن مارية لم تفهمني! لم تفهمني مارية أبدًا! رأتني شابًّا بسيطًا لذا اعتنت بي كما تعتني بطفل يحتاج إلى المساعدة والحماية دائمًا، وفكرت في سلامتي فحسب!

العمدة بجواري هو الآخر لكنه لا يتحدث، ينتظر بصمت وأنا -أيضًا- أنتظر، فربما أكون مخطئا أيضًا، ربما ذهبت مارية إلى الغابة لتأخذ تأشيرة العبور من القادة بالفعل، وستعود على أي

حال بتلك الورقة في يدها وسنعبر الجسر كلنا... وقوف العمدة بصبر هكذا ووجهه الساكن لا يجعلني أصدق حدوث شيء كهذا.

اختفت مارية وإن عادت حتى من تلك الغابة فلن تصبح مارية القديمة ثانية.

كم هو شاق كتابة ما سبق! خرجت مارية من الغابة وسارت بخطوات ثقيلة إلى العربة والجنود الروسيون يقفون وراءها ببنادقهم ذات الحرب الطويلة على أكتافهم ويراقبون مارية السائرة نحونا ثم بدؤوا هم -أيضًا- بالسير.

لف الأجواء صمت حداد عميق واقتربت مارية ببطء من العربة ثم قفز بارتوش والعمدة وأحضروا مارية إلى العربة، جلست جواري بلا صوت كأنها جامدة، فمددت يدي وأمسكت يدها، كانت عيناها الخضراوان متسعتين أكثر من كل وقت ولكن بريقها باهت مثل ضوء مصباح متقطع بادٍ من وراء الزجاج، وكانت هناك ثلوج ناصعة البياض على شعرها الأصفر المبعثر، ذكرني صمتها بالسكون المرعب لساحة الحرب التي تتركها الجيوش خاوية.

لم يتحدث أحد قط لكن ثلاثتنا كنا نتمنى لو تتحدث مارية وتقول لنا إنها غير غاضبة ولا ساخطة على الحياة لكن مارية مثل أي امرأة بعد هذه الفاجعة ستبقى صامتة وتدفن قلقها داخلها، ظلت غارقة في قلقها وصامتة وساكنة ذلك اليوم وما تلاه.

قاد العمدة العربة قبل اقتراب الجنود القادمون إلينا من الغابة

إلى الجسر، وبينما كنا نعبر الجسر أتى إلينا من الناحية الأخرى هذه المرة جنود روس آخرون وأحاطوا العربة وقفز أحدهم على العربة وأمسك بمارية من كتفيها غير أن أحد القادمين من الخلف صرخ:

- «اتركهم ليعبروا!».

فأجاب الجندي الموجود على العربة:

- «أنتم استمتعتم! ونحن أيضًا؟».

- «ستجدون أخرى... هذه العربة الأولى... وهناك قادمون آخرون بعدها».

قفز الجندي من العربة وعاد إلى جوار أصدقائه ثم اجتمعوا كلهم طويلًا وأطلقوا الضحكات.

عبرنا جميعًا وبيننا مارية الجسر ناكسي الرؤوس مثل أطفال يتامى ووصلنا إلى أوباتوف مساء نفس اليوم.

نزلنا في مبيت أقرباء العمدة في أوباتوف وكانت الأخبار القادمة من الجبهة تناقض بعضها بعضًا، ودعنا العمدة عند أقربائه وبدأت أدرك شيئًا فشيئًا أنه لم يكن في نيته الذهاب إلى ساندوميرتس[134]، لم أستطع أن أحرز أفكار بارتوش، وكانت مارية تبدو صامتة على الدوام منطوية على نفسها، كنت أفكر

134- ساندوميرتس((sandomierz: هي مدينة تقع في جنوب شرق بولندا.

أنني تسببت في الحزن الذي هم فيه ولا سيَّما مصيبة مارية وسيذوب قلبي أسى بعذاب الضمير الذي أشعر به من صمتها ونظراتها لي.

صرت أكثر قوة قليلًا وأصبح بإمكاني السير في الطريق، وبعد أن أتينا إلى أوباتوف بأسبوع كامل قررت أن أتسلل دون أن يراني أحد وأرحل فورًا خفية، كنت أظن أنني بهذا سأنسى مارية، لكنه لم يحدث، فإلى أين كنت سأذهب وأترك مارية هكذا؟ أما كنت سأصير أوضع إنسان في الدنيا لو فعلت هذا! لم أستطع أن أفر، عدت وناديت مارية للخارج وحكيت لها أني كنت أنتوي الفرار وحدي وسألتها عن رأيها، فعانقتني فجأة وبدأت البكاء مقبلةً شفتيَّ وعينيَّ، غير أنها لم تكن ضد قرار فراري، حتى أنها شددت عليَّ قائلةً اهرب.

ذهبت مع مارية وشرحت فكرتي لبارتوش والعمدة، فاقترحوا عليّ أن أبقى في أوباتوف أكثر قليلًا، وألحوا عليّ قائلين لا تفر، ابقَ معنا، قررت الرحيل صباحًا وكان العمدة سيعطيني فرسه وعربته، وأوضح أن الذهاب سيرًا في الطرق شديد الخطورة، ثم شد على يدي مثل أخ وقال إننا سنتفق بعد الحرب على مسألة ثمن الحصان والعربة رابتًا على ظهري.

نهض العمدة قبلي في الصباح وجهز العربة على الطريق، ثم دخل إلى الغرفة التي أرقد فيها وأيقظني، ودَّعت صاحب المنزل

وزوجته وخرجت إلى الفناء وجواري العمدة وبارتوش.

أدركت بغتة في تلك الدقائق ماذا كانت تعني مارية بالنسبة لي والمكانة التي تمثلها في حياتي والتي ستحوزها، فمارية ليست صديقة تفكر في سلامتي فحسب وليست صديقة تريد أن تنجيني، فهي تعيش لأجلي وتعلق كل وجودها بي وما كانت تتردد في إلقاء نفسها في الخطر لأجلي، ولهذا كانت مارية تجلس في العربة إلى جوار صرتها.

كانت مارية لي، وكنت لها، ركض بارتوش نحو العربة، واقتربنا نحن -أيضًا- ببطء، تطلع بارتوش بأعين متسعة ومذهولة إلى مارية:

- «إلى أين يا سيدة مارية؟ أم هل سويًّا؟».

بدت ابتسامة خفيفة وغامضة على طرف شفتي مارية:

- «أجل بارتوش، أنا وصادق..».

ثم أسدلت رموشها وأعادت بصوتٍ خافت للغاية كأنما تحدث نفسها:

- «أنا وصادق..».

مرت رحلتنا بين أوباتوف وساندوميرتس بسلام، صادفنا عدة مدنيين بعربة مثلنا أو من دون عربة، كانت الأغلبية راغبة في العودة إلى منازلها بعد انسحاب الألمان، وبعض منهم كانوا

فاريين إلى أراضٍ أخرى لخوفهم من البلشفيك، بقيت ثلاثة كيلومترات على ساندوميرتس وأصبحت الطرق يستحيل عبورها بسبب الجنود ووسائل الحرب، كان الجنود ذوو الحرب والقرويون يدورون على رأس كل جسر وفي كل مفترق طرق.

قررنا أن نبيت في القرية القريبة من ساندوميرتس، فتوقفنا أمام منزل خشبي صغير ذي حديقة على حافة الطريق، وبقيت أنا في العربة ودخلت مارية المنزل ثم خرجت بعد نصف ساعة وإلى جوارها صاحب المنزل وزوجته، ودعوني إلى الداخل.

كان منزلًا شبه مظلم رطب رائحته عفنة ذا أرضية ترابية، جلسنا على طرف فراش مغطى ببطانية سوداء بالية، وظلت مارية تنفخ في أطراف أصابعها ولم تستطع أن تدفئها بأي حال، خرجت المرأة إلى الحديقة وأشعلت الموقد بأخشاب أحضرتها وجلب صاحب المنزل زجاجة عرق كي ندفئ جوفنا، ودعانا حول النار، فتربعت فوق أجولة أمام الموقد ونظرت إلى وجه مارية ثم قلت بهدوء:

- «لا يبدو أنهم أناس سيئون».

ضحكت مارية:

- «لا تتعجل واشرب، لا يشعلون النار من محفظتهم ولا يقدمون العرق بلا مقابل..».

علمت بعدها، إذ كانت مارية المسكينة قد أعطتهما الخاتمين الذهبيين اللذين كانت تخبئهما عند صدرها أسفل فستانها لليوم الأسود، وافقا لهذا على استضافتنا لأسبوع.

علمنا من القروي شيئًا فشيئًا عن الحروب التي جرت هنا، وأن نصف سكان القرية هربوا، وأن القرية قد انتقلت مرتين من يد ليد، ولا يزال الجنود الألمان في ساندوميرتس، ولكن في هذين اليومين الآخرين، لم تُسمع أصوات المدافع، وهناك من يقول إن الألمان أخلوا ساندوميرتس لكن لا أحد يعلم الحقيقة.

نامت مارية في تلك الليلة على الفراش تحت الفرو وانكمشتُ أنا مثل القطة أمام النار، لم أتمكن من النوم لمدة طويلة، فلم تدفأ قدماي بأي حال، وكانت النار قد انطفأت، ولف صمت عميق الحجرة، وكان يصدر سعال القروى الراقد في الخارج على الباب جافًّا متقطعًا بين الفينة والأخرى، انتابني الخوف شيئًا فشيئًا داخل الظلام والسكون، ولم أستطع أن أفكر حتى بمارية الراقدة تحت الفرو، كنت أخاف من سعال القروي ومن الظلام والسكون، كنت كأنما أرقد في قبو بئر عميق ومغلق، وكانت وجوه أمي وأبي وبكير وزكية تمر أمامي، لكن لم يكن أيٌّ منها يضحك لي، كانوا جميعًا مثل أناس بكم جامدون مخيفون ثم كأنني غفوت، فرأيت رؤيا غريبة، كنت على شاطئ البحر الأسود ولم تظهر قرية

درمن[135] ولا قيزلتاش[136] ولا جورزوف[137]، وكان جبل آيي كالبيضة قاحلًا بلا شجر ولا عشب، وكانت الحدائق والبساتين وكل الأطراف جافة، كل البقاع ميتة، حتى البحر الأسود كان بلا روح وكأنه قد تكتل مثل قار أسود وتجمد، وبينما أنا أفكر جالسًا على شاطئ البحر الأسود هكذا إذ بالسماء تُظلم بغتة وتزمجر ثم محيت أراضي القرم الجامدة الجافة الخاوية تمامًا من أمام ناظري، عندما استيقظت كانت مارية عند رأسي تضع ذراعيها على صدري وترتجف، وفي الخارج كانت المدافع تزمجر وطقطقات البنادق الآلية تثقب سكون ظلام الليلة وتخترق الظلام الحالك داخل الغرفة شيئًا فشيئًا، استمرت النيران حتى الصباح ثم انقطعت رويدًا رويدًا مع بزوغ الصبح على النافذة، كنت أنا ومارية قد جلسنا حتى الصباح على الموقد المنطفئ ممسكين بيدي بعضنا بعضًا، نهضت المرأة كذلك مع بزوغ الصبح وجلبت جبنًا وخبزًا، وبعد أن شبعنا قليلًا نظرت مع مارية من النافذة الصغيرة، وكان هناك حشد عسكري كبير أمام المنازل على الطريق وتصدر أصوات القنابل العميقة مجددًا، كانت الآفاق المقابلة حمراء، تأملت مارية الآفاق وتطلعتُ أنا إلى الجنود وبعد

135- قرية درمن (Dermen köy)

136- قيزلتاش (بالتتارية: Kızıltaş والآن: Krasnokamianka) هي قرية تقع في بلدية فيودوسيا (Feodosiya) في جزيرة القرم. وهي القرية التي قضى في جنكيز داغجي طفولته.

137- غورزوف (Gurzuf) هي مدينة تقع في بلدية يالطا على الساحل للبحر الأسود في جزيرة القرم. وهي المدينة التي ولد فيها جنكيز داغجي.

قليلٍ قالت ببطء وبحزن وخوف بعض الشيء:

- «بِمَ تفكر يا صادق؟».

كانت الشاحنات تمر من الطريق أمام الحديقة بسرعة كبيرة وتذهب، ويحاول الجنود المنهكين الشُعْث المرور بسرعة من اليسار وملء هذه الشاحنات، فالشاحنات تقف قليلًا وحينئذ كان الضباط والجنود يثبون فيها على الفور، كان الجند وكل وسائل الحرب لا غير يتدفقون مثل سيل لكنه محافظ على استقامته على الدوام، نظرت طوال اليوم مع مارية من النافذة، وقبيل المساء استأنفت النيران الشديدة مجددًا، كانت نيران الجبهة مع صخبها الهائل تزداد مع مرور الوقت وتدنو من القرية؛ إلا أن أصوات القنابل انقطعت فجأة مع اكفهرار الأجواء، وأطبق صمت عميق على الأرض والسماء فارتديت أنا ومارية فراءينا وخرجنا أمام البيت، كانت القرية خاوية ولم يبقَ جندي وكأن صمت القبور قد هبط على كل مكان.

رجعنا إلى البيت ومررنا إلى أمام الموقد فأخبرنا صاحب البيت أنه لن يشعل النار لأنه لم يتبق حطب وعرض علينا أن نحتسي العرق كي نتدفأ، جلسنا حتى وقت متأخر وأتى القروي إلى جواري قبل النوم وقال:

- «إن كنتم تفرون من الألمان ولا تريدون الوقوع في أيديهم فخططوا للهروب من هنا على الفور، فأنا أظن أنهم سيعودون

مجددًا، تصمت الأجواء هكذا دائمًا قبل مجيئهم، أخرجوا القرويين كافة من منازلهم عندما أتوا في المرة السابقة وأجبروهم جميعًا على إفراغ الذخائر من الشاحنات».

وافقت النجاة التي ننتظرها منذ أيام ليلة نويل، أيقظتني مارية في الصباح الباكر بينما كنت نائمًا ورأسي على ركبتيها، وكانت أصوات الشاحنات تأتي من الخارج، فنهضت مارية ونظرت من النافذة ثم ركضت إلى جواري وأمسكت بيدي وخرجنا من المنزل، وكانت القرية قد تَعَبَّت بالألمان ذوي الأزياء الخضراء.

تركت مارية في منزل القروي وذهبت إلى القيادة الألمانية مباشرة، كان القائد في عمري مُتفَهم، أخذني بالسيارة ما إن علم أني ضابط ألماني مصاب وحملني إلى السرية الطبية، فاعتنى طبيبان بجروحي وضمداها ثانية ثم خيطاها وأعطوني حقنة، ثم رحلت من هناك إلى ساندوميرتس ثانية مع الضابط الشاب، وارتديت الزي الألماني مرة أخرى بعد أن قدمت توضيحًا للقيادة العليا بشأن افتراقي عن سريتي.

ليس هناك أي خبر عند الضباط عن فيلق تركستان الذي يحارب في فرنسا، أما أنا فكنت سأتحرك إلى فيينا وأتلقى التعليمات الجديدة من هناك.

تحدثت عن مارية في القيادة وحكيت لهم عن مساعدتها لي في المواقف الصعبة وعن رغبتي في إرسالها إلى مكان آمن وبعيد

عن الجبهة إذا أذن القائد، فضحك القائد ومع الإذن الذي طلبته كتب مذكرة كذلك كي تستطيع السفر معي بحرية في القطار حتى فيينا وأعطاها لي.

عدت مع الضابط الشاب إلى القرية التي تركت فيها مارية وكنت أظنها ستفرح عندما تراني بالزي الألماني ثانية لكني أدركت خطئي مع استقبالها الفاتر، غير أني لم أتعجب، فلم تكن هذه المرة الأولى التي تبتعد عني مارية فجأة في حين أنها تحبني للغاية! كانت رؤيتي قويًا حرًّا تقلص حبها دائمًا، ليس في عينيها نظرات مفعمة بالكره بقدر تلك التي كانت في المساء الأول حين رأيناها في منزلها لكن لم تظل هذه العذوبة التي كانت في عينيها الخضراوين المتطلعة إلى عيني بينما كنا نرحل قبل أسبوعين ورأسي على ركبتيها في العربة، وارت حبها عني ثانية، إلا أنني ومارية لا نزال في الطريق الذي رسمه لنا القدر، وكنا سنستمر بالسير في هذا الطريق شئنا أم أبينا.

وصلنا إلى ساندوميرتس قبيل الظهيرة، ومن هناك إلى كراكوف[138] بالشاحنات العسكرية في ساعة متأخرة مساءً، ثم ركبنا القطار من كراكوف ووصلنا بعد ثلاثة أيام إلي فيينا ليلة رأس السنة.

138- كراكوف (Krakov): هي ثاني أكبر مدينة في بولندا ومن أقدم مدنها حيث يرجع تاريخها إلى القرن 7 الميلادي. وتقع على نهر فيستولا في منطقة بولندا الصغرى جنوب بولندا.

لم يلتفت إليَّ أي شخص في القيادة في فيينا فكنت ومارية نتجول في الشوارع بلا عمل طوال اليوم، ثم نعود مساءً إلى الفندق الذي يمكث فيه الضباط، في الأيام الأولى لم ترد مارية أن تشاركني الخبز الذي يقدمه لي أعداؤها، كان بداخلها حزن عميق وغامض وكانت تبكي في خفية مني، لكنها غضت الطرف عن هذا رويدًا رويدًا، وتكيفت مع هذا -أيضًا- لأجلي ولأجل سلامتي، تفوقت قوة العشق على الزي الألماني فتحملَتْ كل خطب ورضيَتْ بكل شيء.

كانت تكرر كلام رجال الفندق لها بالألمانية بينما تدخل وتخرج من الفندق وتقلدهم: «مساء الخير، حرَم الملازم! مساء الخير، حرم صادق!».

أمرت القيادة بأن أذهب إلى شمال إيطاليا وأنضم إلى وحدات جيش التحرير الروسي (R. O. A.)[139] الموجود هناك لأنها لن تستطيع أن تسلمني للفرق الألمانية، ليست هناك أهمية للمكان الذي أذهب إليه أو الوحدة التي سأنضم إليها بالنسبة لي، كنت أريد الابتعاد أولًا عن فيينا التي تقترب منها دبابات الجيش الأحمر.

غادرنا فيينا صباح 23 إبريل 1945، ووصلنا إلى إنسبروك[140]

139- جيش التحرير الروسي (R. O. A.):هم مجموعة من العسكريين الروس المنشقين عن الجيش الصدامي الثاني والذين أعلنوا ولاءهم للقيادة العليا للجيوش الألمانية النازية خلال الحرب العالمية الثانية.

140- انسبروك (İnnsbruck): مدينة تقع في غرب النمسا وهي عاصمة ولاية تيرول.

في اليوم الثالث من مارس سالمين بعد أن عانينا نوعًا ما بسبب تعرضنا لهجوم الطائرات الأمريكية عدة مرات علينا خلال رحلتنا التي استمرت أسبوعًا، ومن هناك عبرنا إلى إيطاليا ولم يكن في نيتي مطلقًا الانضمام إلى الوحدات الروسية التي تعمل تحت أمر القيادة الألمانية، فعلى أي حال كان انهيار ألمانيا وعدم استطاعتها الاستمرار أكثر من عدة أسابيع جليًّا.

ألقيت الزي الذي عليَّ وبحثت في سبل الاقتراب إلى حدود سويسرا(141) كمدني، كنا نريد العبور إلى سويسرا فور انتهاء الحرب، ولكن السفر في القطارات بلا زي وبلا أوراق خطير للغاية، فقررنا البقاء في إنسبورك والانتظار، أغلقت حجرة الفندق عليَّ وترقبت الأخبار الجديدة بنفاذ صبر وخرجت مارية إلى الشارع بمفردها ثم عادت أخيرًا في الثاني من مايو منفعلة بشدة، فقد صادفت عمالاً كانت ألمانيا قد جلبتهم من روسيا وبولندا وأخذتهم للخدمة جبرًا وتبعًا لما علمته منهم فقد أفرغت ألمانيا معسكرت العمال والأسرى برمتها وتركتهم جميعًا أحرارًا، وكثيرٌ منهم يتجولون بلا عمل حاليًا في المدينة، وبعضهم ذهب إلى الجيش الأمريكي في بافاريا(142) وأراد تسليم نفسه للأمريكان وأما الخائفون من البلشفيك فهم على وشك التحرك إلى أطراف

141- سويسرا (İsviçre): أو الاتحاد السويسري هي جمهورية فيدرالية تقع في غرب أوربا.

142- بافاريا (Bavgera): إحدى الولايات الست عشرة المكون لجمهورية ألمانيا.

بلودنتس[143] وفيلدكريتش[144] بأمل الدخول إلى سويسرا.

نبهت مارية عليَّ كثيرًا بالمكوث في الغرفة ثم خرجت ثانية، وبعد ساعتين عادت بزي عامل قديم لكنه نظيف موضوع داخل الصرة فوق الكرسي، كانت قد أخذت زي العمال من لاجئ في السوق السوداء مقابل سيجارة... وكانت على يقين بأننا نستطيع الوصول بسهولة إلى حدود سويسرا بين اللاجئين مع العمال الذين تركوا أحرارًا دون التعرض لأي تحقيق من الألمان، تسللنا في النهاية خفية من الفندق الذي كنا نمكث فيه باكر صباح الرابع من مايو وذهبنا إلى المحطة، ثم امتزجنا بالحشد المدني والعسكري الموجود في المحطة وانتظرنا القطار، لم يمنع الجنود الألمان العمال الأجانب الذين يركبون القطار ولم يطلبوا منهم الأوراق بالفعل، فقد كان كل شخص يفكر في همه وما كان لأحد يعبأ بأحد.

أتى قطار بلودنز[145] قبيل الظهر، فمررنا بصعوبة كبيرة من الحشد وركبناه، وغادرنا بعد نصف الساعة إنسبورك.

كان الضباط والجنود يجلسون في المقصورات، وكانت الممرات مكتظة باللاجئين والعمال الأجانب الذين خرجوا من المعسكرات، والقطار يمر فوق الأنهار من بين الجبال الضخمة المغطاة قممها

143- بلودنتس (Bludenz): مدينة تقع في غرب النمسا.

144- فيلدكريتش (Feldkirch): مدينة تقع في أقصى غرب النمسا على الحدود مع سويسرا.

145- بلودنز (Bludenz): هي مدينة تقع في ولاية فورارلبرغ أقصى غرب النمسا.

بالثلوج، ولم يكن أحد يتحدث، كل شخص يفكر في نفسه وفي ما سيحدث، أما أنا فلم أكن أفكر، رأسي فارغ، فكيف يمكن أن يكون لي مستقبل بعد الآن؟

في اليوم الذي ارتديت فيه الزي الألماني في لجيونوفا لم أفكر قط أن نهاية الحرب ستكون هكذا، حملت هذا الزي على ظهري ثلاثة أعوام! وظل الأمل عينه يؤازرني لثلاثة أعوام، أمل تحرير أمتي، والآن أين بقي الوطن وأين أصبحت الأمة؟ وما فائدة الوطن أو الأمة؟ حرية تركستان! ياله من حلم بعيد! ما يربطني بالماضي تلك الصرة فقط والزي داخلها، الزيً الذي حملته على ظهري ثلاثة أعوام! الزي الألماني الذي خفت منه حينًا وعانيت منه حينًا وأحياني بآمال عظيمة حينًا آخر! سأنزل من القطار غدًا وربما هذا المساء وأقذف هذا الزي في النهر أو أتركه أسفل شجرة وسأحل بهذا العقدة التي ربطتني بألمانيا لثلاثة أعوام، كما أن داخلي ليس خاويًا! يوجد فيه مارية التي تحيا بوجهها المضيء بين وجوه رفقائي الأعزاء الذين فقدتهم.

توقف القطار في محطة لندك[146]، ولا يمكنني أن أنسى أبدًا، كانت السماء زرقاء والهواء باردًا بعض الشيء، والثلوج التي هطلت قبل يومين على حواف الجبل تلمع ببريق يسلب الأنظار.

نزل من عربتنا بعض الجنود وبعض أهالي تيرول ذوي

146- لندك(Landeck) : هي مدينة تقع في غرب النمسا.

السراويل الجلدية القصيرة ثم تحرك القطار وخرجنا من لندك، نمر الآن بين الجبال الثلجية الشاهقة، كنت أنا ومارية نفكر في الأشياء الجيدة والجميلة فقط بعيدًا عن الحرب مستغرقين في جمال المنظر وصامتين نمسك بيدي بعضنا بعضًا في ممر العربة، ثم دوى فجأة قصفٌ رهيب... كانت الطائرات الأمريكية ذات النجوم البيضاء تمر بين الجبال الشاهقة، حل محل سكون الجبال اللطيف السابق دوي البنادق الآلية وأزيز الطائرات... فأصدر الرقباء والعرفاء الأمر بصوت عالٍ وحطم الجنود الزجاج مهشمينه بأعقاب بنادقهم وألقوا بأنفسهم من نوافذ العربات، اختبأت مارية في حضني مثل طفل صغير وخبأت رأسها أسفل لحيتي.

- «لا تخافي يا مارية، لا تخافي... إنها طائرات الأمريكان..».

صفير حاد ومن ورائه أزيز...

- «انبطحي أرضًا يا مارية! أرضًا!».

اخترقت الرصاصات صدر امرأة بجواري، دماء وأشلاء على الخشب والزجاج... صفير وأزيز متقطع غَيَّب صرخاتها وأناتها...

- «مارية! مارية!.. انهضي! اقفزي إلى الخارج! لا تتوقفي واقفزي!».

كانت مارية مثل قطة تنشب أظافرها في صدري وكنت لا

أستطيع نزعها عني بأي طريقة.

- «بالله عليكِ اقفزي يا مارية!.. إن لم تقفزي سنموت!».

كانت الطائرات الأمريكية تطوف فوق القطار بين الجبال في الجو مثل النسور الجائعة التي تجذبها رائحة الدماء والأشلاء على الأرض، كان القطار مرتفعًا بشدة والمكان الذي ستقفز مارية فيه عميقًا بعض الشيء وقعره مبطن بالأحجار الحادة، فألقيت معطفي وبعده الصرة التي بداخلها زيي إلى المجرى، ثم قفزتْ مارية عليه، وقفزتُ خلفها، ضغطتْ مارية برأسها على الصرة وبيديها الاثنتين على بطنها ونظرت إليَّ بصمت نظراتٍ أبدت ألمها.

أمسكتها من كتفيها:

- «مارية، أليس فيكِ شيء؟».

- «ليس فيَّ شيء يا صادق... قدمي تؤلمني قليلًا... وكأن ثمة وخزًا في بطني أيضًا، لكن هذا ليس شيئًا... سيمضي، ابتعدت الطائرات أليس كذلك؟».

- «ابتعدت... لكن من الممكن أن يعودوا..».

- «تعالَ لنهرب يا صادق..».

أمسكتُ مارية من خصرها ورفعتها على قدميها مرة أخرى، وتفحصت وجهها بدقة...

- «أأنت بخير مارية؟».

- «لا تخف يا صادق أنا بخير... يمكنني السير».

خرجنا من المجرى، وسرنا بين شجر الصنوبر ورأس مارية على كتفي ثم وصلنا بعد نصف ساعة إلى شاطئ نهر إن[147] الذي يَخُر بمياه زرقاء مثل السماء الكائنة فوقنا.

كانت مارية تعرج قليلًا وبدت قطرات عرق على جبهتها أسفل شعرها المبعثر من الرياح ولكن وجهها كان ضاحكًا، فبدأ قلبي يعج بأماني العيش بين مناظر الجبال الرائعة حولنا، كنت سعيدًا كطفل وكأنما قد ولدت مجددًا، أجل استعدت الحياة مرة أخرى، ليس هناك حرب بالنسبة لي بعد الآن، بل وكأنها لم تكن أبدًا لي، فأنا لم أقاتل قط ولم أقلق وأعاني، كنت قد نسيت كل شيء، فحياتي الآن تفصح عن كل جمالها هنا على هذه المياه بلا ألمان وبلا روس وبلا زي؛ تبدأ ومارية بجانبي على شاطئ «إن» الذي سينسينا الماضي والأناس السيئين، فالحياة مع مارية كيفما تصبح ستكون جميلة وعذبة.

تمددنا على العشب أسفل الشجر الأخضر على حافة النهر، كان وجه مارية ذابلًا قليلًا وشاحبًا بعض الشيء لكنها كانت تنظر بعينيها الخضراوين مع ابتسامتها التي وارت كل هذا كأنها ترغب

147- نهر إن (Inn): نهر أوربي ينبع من جبال الألب في سويسرا ويمر من سويسرا ويصب في ألمانيا.

في حياة أفضل وأجمل وأطول، كنت أشعر بأني مفعم بالنشاط، وأود لو ترى مارية -أيضًا- أعماقي، أتمنى أن تشعر هي -أيضًا- بما أشعر به ونجلس على حافة هذه المياه سويًّا في ما بعد مُنصتين لخريرها لأعوام.

شبكنا أيدينا ببعضها بغتة بشعور واحد اجتاح أعماقنا في نفس اللحظة فأدركنا أننا لا نحيا إلا لأجل بعضنا.

- «مارية! أنا أحبك، ليس الآن فقط بل قبل أن أعرفك حتى، أحببتك في كل دقيقة وفي كل ثانية وفكرت بكِ دائمًا، عشتُ مع خيالك دائمًا، قولي أنكِ لي، وأنكِ تحبينني بقدر ما أحبك!».
- «وهل تشك يا صادق؟ أكثر منك، أردت دائمًا أن أكون بجوارك، وسأظل بجانبك إلى الأبد يا صادق... ولو متُّ..».
- «لن نموت!».
- «لو متُّ أنا..».
- «ستبدأ الحياة لأجلنا بعد الآن».
- «كن قويًّا يا صادق، سِرْ ولا تنظر خلفك... عِش لأجلي..».
- «معكِ إلى الأبد يا مارية!».

سرنا على شاطئ النهر من بين الصخور حينًا وداخل الخضرة حينًا وداخل الأحجار والآجام حينًا آخر، وإن يتدفق هائجًا ومائجًا

ومُلقيًا علينا نشيده الأبدي.

المساء يحل والظلام القابع في المنخفضات يصعد من سفوح الجبال التي شحب لونها إلى التلال ثم إلى قمم الجبال، الجبال والتلال والجرف والخضرة والوديان المظلمة والصخور تغرق في سبات عميق وسكون شيئًا فشيئًا... ويَخِر «إن» مغرقًا كل المكان في سكون...

نسير ونفتش عن طريق بين الصخور ثم نتوقف برهة ونستريح، الهواء هادئ والجبال ساكنة، نسير إلى سويسرا تشدونا الآمال، فإذا استمررنا في السير على حافة النهر سنصل إلى حدود سويسرا قبل يوم، سيخرجنا هذا النهر سالمين ذات يوم، يا لصوته العذب الودود هذا! أنا في آمالي أما مارية فتخاف ولا أعلم السبب، أمن الليل؟ أم من الظلام؟ خوف مجهول بلا سبب...

- «سيري يا مارية... بهمة أكثر... بهمة أكثر قليلًا».

لم تستطع مارية السير، تشبثت بالصخور وأمسكت بذراعي، جبهتها ووجنتاها مغرورقة بالعرق فجلسنا وانتظرنا الصباح، أقبِّل وجنتيها وعينيها ورأسها على ركبتي ويداها في راحتي مثل النار، ابتلت شفتاي:

- «مارية! مارية!.. أتبكين؟ أتبكين يا مارية؟».

لم ترد مارية أصابتها الحمى... لم تكُ تعي وتوسلت قائلة وهي

تحيط بعنقي:

- «اغفر لي يا صادق! اعفُ عني!»؛ ثم حركت رأسها إلى الجانبين وأخذت تتأوه وتتنقل يديها من صدرها إلى بطنها ومن بطنها إلى صدرها...

سرتُ ومارية في حضني، أنهار من حين لآخر ثم أقف وأدعو من أعماقي قائلًا:

- «لا تأخذ مني مارية يا ربي! واحمها»، لا أعلم كم ذهبت، بصرت ثلاثة أو خمسة أضواء ضعيفة على المرتفعات في اليمين كأنها قناديل مرتعشة، توجد قرية هناك على الأغلب...

تركتُ مارية فوق المنحدرات على حافة المياه وصعدت نحو الأنوار لكنها بعيدة للغاية في الأعلى مني... لا طريق ولا علامة، تقدمت أكثر قليلًا، وكأني أسمع أصواتًا، أرهفت سمعي، نعم إنها أصوات ناس! بشر! منحتني الأصوات طوق النجاة، فوثبت للأمام، يا ربي! نجِّ مارية، كأني ميزت هيئات لأناسٍ في الظلام، سأصبح أسفل جسر ويمر الطريق من فوقي، مئات الجنود على الطريق والشاحنات المتوقفة... يتحدث الجنود بالألمانية:

- «سيادة النقيب!.. أنا سأنظر فورًا... ياورول!.. مارش! من هناك!».[148]

148- بالألمانية: "Herr Hauptman!.. Ich sehe sofort... Yaworl!.. Marsch! Wer ist den das!".

جعلتني الأصوات والجمل المتقطعة الآتية في العتمة أتلوى داخل الجاز[149]، لا أستطيع طلب المساعدة منهم، غُرزت أظافري في أرض باردة[150]، فليس بوسعي شيء آخر، عدت بعد ذلك مهرولاً إلى المكان الذي تركت فيه مارية، ولم تلحظ مارية مجيئي حتى فقد كانت تئن جاثية على ركبتيها ومحيطة رأسها بيديها ثم انبطحت بغتة على الأرض وظلت تخمشها صارخة «طبيب!.. طبيب!..» وهي تعض يديها وقدميها.

استمر هذا الألم حتى الصباح، وبينما كانت قمم الجبال تنبلج من داخل العتمة وتبدأ في الظهور لمحت كوخين على منحدر مرتفع كثيرًا عن النهر على بعد ثلاثمائة متر في اليمين، وهناك من ثمانية لعشرة منازل أخرى على حافة الجبال أعلى الطريق المار من أمام الأكواخ...

احتضنتُ مارية وحملتها إلى الأكواخ، الأكواخ خاوية، وفي أحدها في الخلف ثياب عامل قديمة وبالية ومتسخة وصناديق صفيحية وكسرات بقسماط جافة ومجموعة سرائر بدورين خشبية... بسطتُ معطفي على زاوية سليمة في سرير بدورين وأرقدت مارية، كأن الألم قد خف قليلًا لكنها ليست في وعيها بعد، جثوت على ركبتي عند رأسها وداعبت يديها البيضاء الصغيرة

149- (sesler beni caz içinde kıvrandırıyor): تعبير يدل على العجز.

150- (Tırnaklarımı soğuk toprağa batıryorum): غرزت أظافري في تراب بارد أي تأملت سرابًا.

للغاية وقبلتهما، ففتحت عينيها ببطء وارتجفت شفتاها الجافتين وأرادت قول شيء، فتحدثت كأني أريد أن أُشعرها بوجودي.

- «مارية! إنه أنا... صادق، صادقُكِ..».

أغمضت عينيها ثانية، وظل وجه مارية الجميل بالأمس ذلك تحت قناع الألم.

هدير الشاحنات لا زال في الخارج... آلاف الجنود يستعدون للتحرك إلى إيطاليا... ولا أعلم بعد إلامَ سيُفضي مرض مارية هذا ولا أعتقد أنه سيأخذها مني، أدعو دائمًا من أعماقي لتُشفى، ومن ناحية أنظف الكوخ وأوقد المدفأة الحديدية القابعة في المنتصف بأخشاب السرير المكسورة، وأعد الشاي لمارية.

توقف عرض مرور الجنود مع حلول المساء، وقبل أن يهبط الظلام أخذ ضابط ذو رتبة عالية يعلق الميداليات على صدور مجموعة بأكملها من الجنود انتظمت في صف، ثم عبر إلى مقابل الصف وأصدر أمرًا قصيرًا فمد كل الجنود أذرعهم فجأة وصرخوا جميعًا.

- «يحيا هتلر!».

كانت هذه النهاية، فما كنت سأرى جنودًا بالزي الألماني مرة أخرى بعد ذلك فالطريق خاوٍ بعد، لا جندي ولا مدني ولا شاحنة... الجبال والوديان في سكون عميق، رجعت عند رأس

مارية ثانية بينما تعتم نوافذ الكوخ... وأخذت يديها داخل راحتي مجددًا وهمست بيني وبين نفسي:

- «مارية، يا مارية! أنسيتني أنتِ كل ما عانيته، جعلتيني أنا، كيف سأعيش دونك؟ أنتِ خلف كل أفكاري وأفعالي ومشاعري، لا تدعيني يا مارية!».

فتحت مارية عينيها شيئًا فشيئًا كأنها قد قرأت ما بداخلي، واتكأت على خشب المكان الذي تنام عليه كأنما تمدده واعتصرت شفتيها ثم قالت هازة رأسها:

- «صادق... صادق... أنا سأموت... سامحني يا صادق!».
- «لن تموتي يا مارية، لن تموتي! قلبك النقي البريء، قلبك لا يزال مفعمًا بالحب والأمل، لن تموتي! لن تتركيني وحدي في هذه الدنيا!».

أخذتُ أبكي مقبِّلًا شفتيها الجافتين الذابلتين وأود لو أنها تحدثني لكنها لم تستطع غير قول «أموت، أموت!»، هدأت لمدة بعض الشيء ثم استأنفت فجأة الصراخ بصوت رهيب مرسلة شعرها « طبيب! طبيب!» فانطلقتُ من الكوخ على الفور عبرتُ الطريق وصعدتُ المنحدر إلى التلال من بين مجموعة أحجار على الأرض الجدباء ووصلت للقرية، لم يكن هناك أحد في القرية، المنازل في سكون مطبق، طرقت باب منزل فلم يُفتح، فهرولت إلى منزل آخر وطرقت الباب مجددًا بعجلة، وبدأت أصرخ بالألمانية

فظهرت امرأة وسألتها عن طبيب فقالت شيئًا بلهجة تيرول ولم أفهمها فكررت قائلًا: «طبيب! طبيب!»؛ فذهبت المرأة إلى بيتها ووضعت شالًا على رأسها ثم خرجت وأخذتني إلى منزل الطبيب وتركتني جوار الباب ثم عادت سريعًا.

طرقت باب الطبيب بهدوء ففتح الباب رجل ذو نظارة وسألني عما أريد، فتوسلت منه المجيء لمساعدة سيدة مريضة، فنظر لوجهي مندهشًا لا أعلم أمن خوفه من حالي أم من تردده لكوني غريبًا ثم قال شيئًا بالألمانية وما لبث أن أغلق الباب في وجهي.

خرجت من بيت الطبيب وانتظرت مدة بأمل أن يأتي معي إلا أن الباب ظل مغلقًا، فبدأت أطرق الباب بقبضتي صارخًا هذه المرة، لكن الطبيب لم يعبأ كذلك، فامتزج الغضب مع الحقد داخلي وضغطت على أسناني محدثًا صريرًا، أنا سأخرج هذا الوغد الخائن من بيته! سأخرجه قطعًا! وانقضضت على الباب بكل قوتي وكل جسمي لكن القفل لم ينكسر، فعدت ركضًا إلى الكوخ الذي ودعت فيه مارية، علقت بالأشجار وتخبطت بالأحجار والصخور الحادة، أسقط وأنهض ثم أستمر في الركض، عليَّ أن أنقذ مارية وسأفعل.

كنت على الطريق وصدر صوت مارية، تناديني، تنتظر مني النجدة، سأنقذها!

ولجت الكوخ، كان معتمًا وقد انطفئت النار فسمعت أنينها في

الظلام:

- «انجدني يا صادق... اجلب الطبيب! وإن لم يكن فامرأة... انقذني يا صادق!».

أشعلت شمعة عند رأس مارية وقلت منحنيًا على وجهها.

- «لا تخافي يا مارية... سيصل الطبيب... إنه آتٍ في الطريق... ثم أخذتُ صرتي فارتديتُ الزي الألماني للمرة الأخيرة متخفيًا عن مارية وراء الباب، فصعدت المنحدرات ثانية ومسدسي في يدي وعليَّ الزي الألماني، ركضت إلى منزل الطبيب في القرية، فركلت الباب مثل المجنون وضربته بقبضة مسدسي، ظهر الطبيب أخيرًا فقلت موجهًا مسدسي إلى ما بين عينيه: «إن لم تأتِ معي فاعلم أنك ميت!»، ولج الطبيب بيته ثم خرج وفي يده حقيبة صغيرة، ذهبنا إلى الكوخ الذي تقبع فيه مارية هو في الأمام وأنا في الخلف وماسورة مسدسي مسندة على عاموده الفقري، الجبال والحفر والأرض والسماء تنصت لأصوات أقدامنا حابسة أنفاسها في الظلام، الطبيب صامت ويتقدم أمامي بخطوات ثقيلة كأنه محكوم عليه بالموت، كنت أدفعه بمسدسي من خصره بين الفينة والأخرى وآمره أن يحث الخطى حتى عبرنا الطريق، ولم يكن ثمة صوت، وحده إن كان يبكي بأنين كما لو يتألم من شيء ما، نقترب من الكوخ، ما هذا الصمت؟ ولماذا هو عميق وثقيل هكذا؟ ولم يحُز فيَّ هكذا؟

توقفنا أمام الكوخ ونظر الطبيب العجوز إلى وجهي أولًا ثم إلى نافذة الكوخ المضاءة بضوء الشمعة الخافت ثم دلف إلى الداخل.

خرج الطبيب من الكوخ وتوقف جانبي دون أن ينظر لوجهي، صمت فحسب؛ لكنه بصمته هذا أراد أن يقول لي أنت الذي رأيت من الموت كما رأيت حتى الآن وتعرضت لكوارث أيما هي وتحملت من الآلام ما لا يحتمل؛ الألم الذي ستعانيه الآن مختلف عن كل شيء، مختلف تمامًا فالموت الذي ستعرفه الآن سيحيل الحياة إلى سجن أبدي لك ولن تعرف بعده طعمًا للحب أو للسعادة في الدنيا، ويتساءل أيمكنك أن تتحمل حياة جهنم التي ستحياها بعد وهل ستسعد بها؟

حكى صمت الطبيب لي أمورًا كثيرة، فنهضت شيئًا فشيئًا وتطلعت إلى وجهه محدِّقًا في عينيه فلم يجد بُدًا من الحديث ونكَّس رأسه فحسب مدركًا هو الآخر أني قد فهمت ثم خرج إلى الطريق بخطوات ثقيلة وابتلعه الظلام.

وجدت مارية في الداخل وعيناها مغلقتان فجلست حتى الصباح أتأمل وجهها على ضوء الشمعة، لم أشعر بالوحدة في تلك الليلة فما تزال مارية معي، لم تكن تتحدث أو تنظر أو تحس لكنها بجواري نائمة، كنت أتأمل وجه مارية الذي التقى بسكونها الأبدي وتلفَّح بالجمال الساكن في هذه الزاوية المظلمة من العالم بعيدًا عن الحياة.

انحسر الظلام وأضيئت الأجواء فأفاقت الجبال من السبات، ثمة حياة جديدة تستأنف لأجل العالم، عُلقت الرايات البيضاء الصغيرة الدالة على نهاية الحرب على طنوف منازل القرية الموجودة على حافة الجبل وعلى قمم شجرها السرو وعلى أبراج نواقيس كنائسها مثل حمامات بيضاء، أجل كانت نهاية الحرب، فبينما العالم يبدأ حياة بلا حربٍ وبلا دمٍ وبلا نارٍ وبلا اضطراب كنت أنا ألج الظلمات.

كان ذلك في صباح اليوم السابع من شهر مايو، ارتديت زي العامل الذي بادلته مارية بسيجارة في إنسبورك وخرجت من الكوخ.

حفرت قبرًا على شاطئ «إن» ثم فرشته بأحجار صغيرة وبأوراق الشجر والعشب وصنعت صليبًا من الخشب ثم عدتُ إلى الكوخ فاحتضنتُ مارية للمرة الأخيرة ثم حملتها إلى الضريح وأرقدتها، هنا انتهت حياتي ذات السبعة والعشرين عامًا أنا الآخر، فكل ما كان قد بقي منها هي مارية في القبر والزي الألماني أسفل قدميَّ، وما كان بإمكاني حمل أيهما إلى الحياة التي تنتظرني والتي ستستأنف بعد، فسأظل وحيدًا من دون مارية وبلا زي في تلك الحياة الرهيبة.

جثوت للمرة الأخيرة على رأس قبر مارية وذرفت دموعي الباقية، ثم نهضت على قدميَّ وأخذت زيي فقذفته في مياه «إن» المزبدة

وراقبت بعينيَّ الزي الأخضر الذي ذهب متأرجحًا بين الأمواج، لم أدرك المكانة التي احتلها في حياتي وقوته جيدًا إلا عندما اختفى تمامًا، فذلك الزي كان أحد الروابط التي تربطني بالحياة كمارية، واليوم انفكت هذه الرابطة -أيضًا- وذهبتْ مع ذلك الزي ضمن آمالي التي أوقفتني حتى الآن على قدميَّ.

ليس هنالك زيٌّ ولا مارية، ولا وجود لتركستان ولا القفقاس ولا إيديل-أورال ولا القرم عندي، تخلى عني كل شيء عشت وقاتلت وذرفت الدماء في سبيله لأعوام، فما داخلي خواء تام...

اكفهرت الدنيا بغتة واسودت، وكأن كل شيء قد انهار فجأة وتهاوى، فبدأت الهرب وما كان هدير «إن» المرعب الذي لا ينقطع أبدًا يُفارق أذنيَّ وأعماقي، الجبال كأنها ستنهار فوقي، كنت أهرب من هذه الدنيا التي بلا مارية وبلا زي وبلا أمل، ولا أعلم إلى أين! كان الألم الهائج والجامح بداخلي الذي أعجز عن التعبير عنه يدفعني للهرولة من جبل لجبل.

دُرت بلا هدف بين الجبال لثلاثة أيام وثلاثة ليالي، وبصرت في صبيحة اليوم الرابع طريق بين الأدغال، كان عليه جنود وشاحنات ودبابات، فاقتربت خفية وببطء وتفحصت الجنود من دون أن أظهر نفسي، كانوا جنودًا أمريكيين... فأردت في البداية أن أذهب وأسلم نفسي ثم تملكني الخوف بغتة ففررت ثانية إلى الجبال.

ظللت أتجول بين الوديان وعلى المنحدرات بعيدًا عن صخب

«إن» المخيف وأدخل في الليل بين الأدغال وأنام، وأذهب بين الفينة والأخرى إلى شاطئ «إن» وأنبطح على الأرض ثم أنظر عن يميني ويساري وخلفي وعندما لا أبصر أحدًا أشرب من مياه النهر ثم أتابع الطريق مختبئًا بين الأدغال ثانية.

ذهب الجنود الأمريكيون، وأضحى الطريق خاويًا وصامتًا، ذات يوم ذهبت إلى ساحل النهر، فرأيتُ شاحنة على بُعد خمسين مترًا، وكان هناك مدنيان مع خمسة جنود بجوار الشاحنة، كان الجنديان متمددين على الأرض في الطريق يعلقون إطارين جديدين للشاحنة، ثم بدأ هذان الجنديان بعد قليل يسيرون إلى النهر لجلب المياه وفي يديهما صناديق حديدية، كنت بين الأدغال وكان قلبي على وشك القفز من حلقي، فقد كان ما حول الأدغال مكشوفًا وكان الجنديان سيرياني بالتأكيد لو خرجت منها، فحبست أنفاسي وترقبت، أخذ الجنديان المياه من النهر وبعد برهة بدأ الجنود على الطريق ينادون أصدقاءهم الموجودين على شاطئ المياه، وكانت هذه الأصوات التي امتزجت بهدير «إن» بولندية. لا أعلم أكانت روح مارية قد ملأت صدري لوهلة فشعرت بأني لن أستطع العيش أكثر في الجبال وبأنني يجب أن أذهب وأسلم نفسي للحياة التي أخافها، أجل كان الجنود يتحدثون بلغة مارية البولندية وبعثوا عذاب مارية المقدس من بين الآلام داخلي، فأردت الخروج من الأدغال والذهاب إلى جانب أولئك الجنود لكنهم لو أدركوا أنني كنت جنديًّا ألمانيًّا؟ لو أنهم قتلوني؟

أو سلموني للروس؟ فكرت بهذا إلا أن مارية بأعماقي أمدتني بالقوة التي بعثت فيَّ الحياة، سار الجنديان الذين ملآ الصناديق الحديدية بالمياه إلى أصدقائهم، فزمجرت الشاحنة وانبعث الدخان من أنبوب العادم ثم تصاعد شيئًا فشيئًا، في تلك اللحظة تمامًا بدأ كل جسدي بالارتجاف، وثبت بغتة من بين الأدغال -لا أعرف كيف حدث هذا- وركضت إلى الطريق ثم رفعت يديَّ إلى الشاحنة التي ابتعدت عني، فتوقفت الشاحنة بعد برهة وأشار الجنود الذين في الخلف بأيديهم إليَّ، فما كان بإمكاني الهروب بعدها، قفز عدة جنود من الشاحنة وساروا إليَّ مباشرة، فتوجهتُ أنا -أيضًا- نحوهم ببطء، وتقدم أحدهم إلى الأمام وصرخ:

- «أأنت بولندي؟».

أومأت رأسي مؤمنًا.

- «هيا اقفز إلى الشاحنة، هل ستذهب إلى إيطاليا؟».

- «نعم».

- «مرحى! أي أنه سينضم جندي آخر إلى قوات الجنرال أندريس، هلم أسرع! هل أتيت من إنسبورك؟».

- «نعم».

- «طريق طويل، يعني أنك حاولت عبور الحدود بمفردك! ممتاز! ستصير جنديًّا جيدًا!».

ركبنا الشاحنة فانتابني خوف شديد من أن يتحدث معي الجنود الذين في مؤخرة الشاحنة أو يسألوني، إلا أن الجندي الذي تحدث معي أولًا –جُزي خيرًا– ظل يتحدث على الدوام حتى أنه كان يرد محلي على أكثر الأسئلة التي سُئلت.

أضحى الليل وكانت الشاحنة تصعد طريق الجبل المستوي، وكان الجند نيامًا، أما الجندي كثير الكلام الذي بجواري فظل يأكل ويواصل كلامه أيضًا:

- «وماذا كنت تفعل في إنسبورك وقت الحرب يا صديقي؟ أكنت أسير أم عامل؟».
- «كنت عاملًا».
- «ومتى خرجت من إنسبورك؟».
- «منذ ثلاثة أيام».
- «وأين كنت تأكل؟».
- «لم أكن آكل».
- «أأنت جائع؟».
- .....
- «أنت جائع بالتأكيد، وهل تكون معدة إنسان لم يذق طعامًا لثلاثة أيام ممتلئة؟».

وضع قليلًا من السجق في قطعة خبز ثم دفعها في يدي، لا أعلم لِمَ تذكرت الأذربيجاني الذي دفع الخبز في يدي بين الأسرى في العتمة حينما كنا في الكوخ رقم 2 في معسكر الأسر أومان، انبعثت داخلي ذكريات أيام الأسر، فتذكرت طريق كيفوغراد_ عُمان ومعسكرات الأسر بينما كنت آكل الخبز، وأضحيت أتناول الخبز في الشاحنة كما لو كان في معسكرات الأسر؛ بيد أنني لم أكن أعرف أنا أسير مَن؟!

توقفت الشاحنة منتصف الليل في برنر[151]، فأحاطت الشرطة العسكرية البولندية المرتدية للزي الإنجليزي بالشاحنة وسألوا عن عدد الأشخاص في الشاحنة وعن كونهم جميعًا جنودًا أم لا، فقال الرقيب أنه يوجد بين الجنود ثلاثة مدنيين وأن ثلاثتهم بولنديون وذاهبون للتطوع في جيش الجنرال أندريس، فتحركنا على الفور.

وصلنا إلى فيرونا[152] قبيل ظهر اليوم التالي، وتوقفنا أمام مبنى داخل المدينة يقطن فيه الجنود، فقفز الجنود من الشاحنة ودخلوا المبنى، وذهب المدنيان -أيضًا- مع الجنود؛ أما أنا فبقيت وحدي في الشاحنة، وعاد الجندي الذي قدم لي الخبز في الليلة الماضية قبل أن يلج المبنى فجاء إلى الشاحنة:

151- برنر (Brenner) : هي بلدية تقع في جنوب تيرول شمال إيطاليا.

152- فيرونا (Verona) : هي مدينة تقع في شمال إيطاليا.

- «هلم اقفز هيا!».

- «هل وصلنا؟».

- «لا، سنتناول هنا غداءنا، فلا زال الطريق أمامنا، وسنرتدي أزياءنا في أنكونا[153] فالقيادة هناك».

- «زيّ مَنْ؟».

- «وزي من سيكون؟ بالتأكيد زي الإنجليز، أفحسبت أنه زي الروس؟ الزي الإنجليزي لكن من أجل بولندا وفي سبيل بولندا فالحرب لم تنتهِ، ونحن لن ندع أسلحتنا ما دام الروس لم يخرجوا من بولندا، هيا اقفز من الشاحنة!».

- «دقيقة واحدة... سآتي... لأربط حذائي كذلك..».

دخل مبنى الجنود وقفزت من الشاحنة، كان الشارع مزدحمًا بعض الشيء، وكأن الجندي الذي تحدث منذ برهة قد أيقظ ذكرى في أعماقي، فتوقفتُ قبل الوصول للمبنى، وأعدت على نفسي ببطء الجملة التي قلناها في لجيونوفا شهر مارس عام 1942 « بالزي الألماني لأجل تركستان...».

ارتجفت ثانية بغتة... ثم عدت فامتزجت بالسكان المدنيين المتدفقين والمارين بجواري، وابتعدت عن الشاحنة وعن المبنى الذي ولجه الجنود...

153- أنكونا (Alkona- Ancona) : هي مدينة تقع في الجزء الشمالي من وسط إيطاليا.